

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء الجزء الخامس

مقدمة الجزء الخامس

نمضي مع سورة النساء في هذا الجزء الذي يتضمن معظم أهداف السورة وموضوعاتها التي أجملنا الإشارة إليها في مطالعها في الجزء الرابع ونجد في هذا الجزء من الأهداف الأساسية للسورة والموضوعات الرئيسية عناصر كثيرة نجد في الدرس الأول بقية من تنظيم شؤون الأسرة ; وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة ; وحمايتها من تأثير الملابس العارضة في جو الحياة الزوجية ; وحمايتها كذلك وحماية المجتمع معها من انتشار الفاحشة والاستهتار بالحرمان ووهن الروابط العائلية كذلك نجد بقية من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية تتناول العلاقات المالية والتجارية كما تتناول بعض أحكام الميراث وحقوق الملكية للجنسين في المجتمع وهذه التنظيمات وتلك تستهدف كما قلنا في مطالع السورة نقل المجتمع المسلم من النظام الجاهلي إلى النظام الإسلامي للحياة ; ومحو الملامح الجاهلية المترسبة وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة والارتفاع بالجماعة المسلمة التي التقطها المنهج الرباني من سفح الجاهلية والمضي بها صعودا في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة ثم نجد في الدرس الثاني عودة إلى تقرير أصول التصور الإسلامي ; تبين حد الإيمان وشرط الإسلام ليقوم هذا التقرير المستأنف قاعدة لبعض تنظيمات أخرى للتكافل الاجتماعي في الجماعة التكافل الذي يبدأ من أضيق الحدود في الأسرة ثم يمتد ليشمل المحتاجين والضعاف في الجماعة كلها ومع الأمر بالبذل والتكافل نجد تقييد البخل بالمال والاختيال بالثراء وكتمان النعمة والرياء في الإنفاق كما نجد في هذا الدرس جانباً من التربية النفسية بالعبادة التي بدأ بها والتطهير لأدائها واعتبار الخمر دنسا لا يتفق مع حال العبادة وذلك كخطوة في طريق تحريمها وفق المنهج التربوي الحكيم وفي الدرس الثالث نجد من موضوعات السورة الأساسية موقفاً مع أهل الكتاب يتضمن كشفاً لأهدافهم الخبيثة ونياتهم الماكرة بالجماعة المسلمة وبياناً لطبيعة كيدهم ومكرهم وتعجيباً من أمرهم واعتبارهم عدواً للمسلمين وتهديدهم بسوء المصير والعذاب الأليم أما الدرس الرابع فيستهدف بيان معنى الدين وشرط الإيمان وحد الإسلام بياناً حاسماً جازماً يكشف عن طبيعة النظام الإسلامي ومنهج المسلمين في الطاعة والاتباع والتلقي من الله وحده والتحاكم إلى منهج الله وحده واتباع حكم رسوله وطاعته كما يكشف عن تكاليف المسلمين في الأرض في أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل وإقامة منهج الله في حياة الناس باعتبار هذا كله شرطاً لتحقيق الإيمان مع التعجب من أمر الذين يدعون الإيمان ثم لا يحققون شرطه الأول من التحاكم إلى الله ورسوله مع الرضى والتسليم المطلق والتوكيد بعد التوكيد على أنه لا إيمان مهما ادعاه المدعون إلا بتحقيق هذا الشرط الواضح الصريح ومن ثم نجد في الدرس الخامس توجيه الجماعة المسلمة لحماية هذا المنهج الواضح بالقتال دونه والتنديد بالمعوقين والمنافقين الذين يبطئون عن الجهاد واستجاشة

الضمائر المؤمنة ببيان أهداف القتال لاستنقاذ الضعاف من المؤمنين من دار الكفر إلى دار الإسلام وتمتعهم بالحياة في ظل ذلك المنهج الرفيع الكريم وبيان حقيقة الأجل والقدر لتطهير القلوب من الخوف والفرع وينتهي الدرس بأمر للنبي ص أن يمضي إلى الجهاد ولو لم يجد إلا نفسه فلا مناص من المضي فيه للتمكين لهذا الدين وللمنهج الإلهي القويم وبمناسبة القتال نجد في الدرس السادس بيانا للكثير من قواعد المعاملات الدولية بين المعسكر الإسلامي وشتى المعسكرات المناوئة له والمهادنة والمعاهدة فليس الأمر أمر قوة وبطش وغلب ولكنه أمر مواجهة للواقع مع إقامة الحدود المنظمة للعلاقات الإنسانية في المعسكرات المختلفة الاتجاه وفي الدرس السابع نجد الحديث عن الجهاد بالأموال والأنفس في صدق التنديد بالقاعدين عن الهجرة في دار الكفر حيث يفتنون عن دينهم بينما دار الإسلام قائمة وراية الدين فيها عزيزة كريمة وينتهي هذا الدرس أيضا بالتحريض للمؤمنين على القتال ومتابعة أعدائهم وعدم الوهن في طلبهم وبيان حقيقة موقف المؤمنين وموقف أعدائهم واختلاف وجهتهم ومصائرهم وجزائهم وفي الدرس الثامن نستشرف تلك القمة السامقة في العدل الإسلامي في قصة اليهودي الذي اتهم ظلما وقامت الشهادات الملفقة ضده فنزل القرآن من الملاً الأعلى يبرئ هذا اليهودي مع كل ما كانت تكيده يهود للإسلام والمسلمين ولكن العدل الإسلامي الإلهي هو العدل الذي لا يتأثر بالموودة أو الشنان وهو القمة السامقة التي لم تبلغ إليها البشرية قط إلا في ظلال هذا المنهج الرفيع الفريد والدرس التاسع جولة مع الشرك والمشركين وخرافات الشرك وأثاره في إنشاء الشعائر الضالة والتصورات السخيفة مع تصحيح الأوهام والأمانى الزائفة عن عدل الله وتقدير الجزاء على أساس العمل لا الأمانى والأوهام وتوكيد أن الإسلام هو وحدة الدين وهو ملة إبراهيم ويعود الدرس العاشر إلى النساء ; وحقوقهن وبخاصة اليتامى منهن وحقوق المستضعفين من الولدان وهو الموضوع الذي بدأت به السورة وإلى الإجراءات التي يعالج بها موقف النشوز والإعراض من جانب الزوج مع بيان حدود العدل المطلوب في معاشرة الزوجات والذي لا تستقيم العشرة بدونه ويكون خيرا منها الفرقة عندما يتعذر الإصلاح والتعقيب على هذه الأحكام المتعلقة بالأسرة والعدل في المعاشرة يربط هذه الأحكام والتوجيهات بالله وملكيته للسموات والأرض ; وقدرته على الذهاب بالناس واستبدال غيرهم بهم فيدل على ضخامة الأمر وعلاقته بحقيقة الألوهية الهائلة ومن ثم يستجيش تقوى الله في الضمائر ; ويستطرد إلى دعوة الذين آمنوا إلى العدل المطلق في معاملاتهم كلها وفي أحكامهم جميعها على طريقة القرآن في الاستطراد من القطاع الضيق الخاص إلى المحيط الشامل العام ثم يجيء الدرس الأخير في هذا الجزء وهو يكاد يكون مقصورا على التنديد بالنفاق والمنافقين ; ودعوة المؤمنين إلى الإيمان الجاد الواضح المستقيم ; وتحذيرهم من الولاء لغير الجماعة المسلمة وقيادتها الخاصة ومن التهاون والتراخي في دينهم مجاملة أو مراعاة للعلاقات الاجتماعية أو المصلحية مع المنافقين وأعداء هذا الدين فهذه سمة من سمات النفاق والمنافقون في الدرك الأسفل من النار والمنافقون هم الذين يتولون الكافرين ويختم الدرس ويختم الجزء معه بتقرير حقيقة مؤثرة عن صفة الله سبحانه وعلاقته بعباده والحكمة في عقابه للمنحرفين والصالحين وهو سبحانه لا حاجة به إلى عقاب مخالفيه لو

آمنوا وشكروا ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا
علما وهو تعبير عجيب يوحى للقلب برحمة الله واستغناؤه سبحانه عن
تعذيب الناس لو استقاموا على منهجه وشكروا فضله في هذا المنهج ومنته
ولكنهم هم الذين يشترون العذاب لأنفسهم بالكفر والجحود وما ينشئه
الكفر والجحود من فساد في الأرض وفساد في النفس وفساد في الحياة
وهكذا يضم الجزء جناحيه على هذا الحشد من الأهداف والموضوعات
وعلى هذا المدى من الأشواط والأبعاد فنكتفي في التقديم له بهذه
الإشارات الخاطفة ريثما نستعرض النصوص فيما يلي بتوفيق الله



الوحدة الثالثة من أحكام تنظيم الأسرة والمجتمع الإسلامي إداريا وأخلاقيا وماليا

مقدمة الوحدة

الدرس الأول من أحكام النكاح

الدرس الثاني الزواج من الإماء وعقوبتهن عند المخالفة

الدرس الثالث بين إرادة الله وإرادة أصحاب الشهوات

الدرس الرابع النهي عن أكل المال بالباطل

الدرس الخامس تنظيم الصلات بين الرجال والنساء

الدرس السادس تنظيم مؤسسة الأسرة

مقدمة الوحدة

تنظيم الأسرة على قواعد الفطرة هذا الدرس تكملة لما جاء في هذه
السورة عن تنظيم الأسرة على قواعد الفطرة ولا يعود السياق بعد ذلك إلا
في موضعين لبيان بعض الأحكام التكميلية في هذا الموضوع الأساسي
الهام الذي يترتب على تنظيمه جريان الحياة الإنسانية في مجراها الفطري
الهاديء الصالح كما يترتب على انحرافها عنه فساد في الأرض كبير وهذا
الدرس يتضمن تكملة لبيان المحرمات من النساء ثم يحدد الطريقة التي
يحب الله أن يجتمع عليه الرجال والنساء في مؤسسة الأسرة النظيفة
ويكشف عما في هذه الطريقة من تيسير على الناس وتخفيف إلى جانب
نظافتها وطهارتها ويقرر القواعد التنظيمية التي تقوم عليها تلك المؤسسة
الأساسية والحقوق والواجبات الملقاة على عاتق الطرفين المتعاقدين فيها
وإلى جانب هذا التنظيم في الأسرة يتطرق إلى شيء من التنظيم لبعض

علاقات المجتمع المسلم في الأموال ; فيبين حقوق الرجال والنساء في المال المكتسب والمال الموروث وما يتبع كذلك في تصفية ما كان من عقود التوارث بالولاء بين غير الأقارب ومما يلاحظ بوجه عام أن السياق يربط ربطا دقيقا بين هذه التنظيمات والأحكام وبين الأصل الأول الكبير للإيمان وهو أن هذه التنظيمات والأحكام صادرة من الله وهي مقتضى ألوهيته فأخص خصائص الألوهية كما كررنا ذلك في مطلع السورة هو الحاكمية والتشريع للبشر ووضع الأسس التي تقوم عليها حياتهم وارتباطاتهم والسياق ما بني يكرر هذا الارتباط الدقيق ; وينبه إلى هذه الخاصة من خصائص الألوهية ويكرر كذلك الإشارة إلى صدور هذه التنظيمات عن العليم الحكيم وهي إشارة ذات مغزى فالأمر في هذا المنهج الإلهي كله هو قبل كل شيء أمر العلم الشامل الكامل والحكمة المدركة البصيرة هذه الخصائص الإلهية التي يفقدها الإنسان فلا يصلح بعدها أبدا لوضع المنهج الأساسي لحياة الإنسان ومن هنا شقوة الإنسان في الأرض كلما حاد عن منهج العليم الحكيم وراح يخبط في التيه بلا دليل ويزعم أنه قادر بجهله وطيشه وهواه أن يختار لنفسه ولحياته خيرا مما يختاره الله والأمر الآخر الذي يؤكد سياق الدرس ويكرره هو أن منهج الله هذا أيسر على الإنسان وأخف وأقرب إلى الفطرة من المناهج التي يريدتها البشر ويهوونها وأنه من رحمة الله بضعف الإنسان أن يشرع له هذا المنهج الذي تكلفه الحيدة عنه عنتا ومشقة فوق ما تكلفه من هبوط وارتكاس وسنرى عند استعراض النصوص بالتفصيل مصداق هذه الحقيقة في واقع البشر التاريخي وهي حقيقة واضحة في هذا الواقع لولا أن الهوى يطمس القلوب ويعمي العيون عندما تربن الجاهلية على القلوب والعيون

الدرس الأول من أحكام النكاح

والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيما نكح من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن واتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا لقد سبق في نهاية الجزء الرابع بيان المحرمات من النساء حرمة ذاتية وذلك في قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات

نسائكم وربائكم اللاتي في حوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيمًا أما هذه التكملة والمحصلات من النساء فتتعلق بالمحرمات لأنهن في عصمة رجال آخرين محصلات بالزواج منهم فهن محرمات على غير أزواجهن لا يحل نكاحهن وذلك تحقيقًا للقاعدة الأولى في نظام المجتمع الإسلامي من قيامه على قاعدة الأسرة وجعلها وحدة المجتمع وصيانة هذه الأسرة من كل شائبة ومن كل اختلاط في الأنساب ينشأ من شيوعية الاتصال الجنسي أو ينشأ من انتشار الفاحشة وتلوث المجتمع بها والأسرة القائمة على الزواج العلني الذي تخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه ويتم به الإحصان وهو الحفظ والصيانة هي أكمل نظام يتفق مع فطرة الإنسان وحاجاته الحقيقية الناشئة من كونه إنسانًا لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية وإن كانت تتضمن هذه الغاية في ثنائها ويحقق أهداف المجتمع الإنساني كما يضمن لهذا المجتمع السلم المطمئنة سلم الضمير وسلم البيت وسلم المجتمع في نهاية المطاف والملاحظ بصفة ظاهرة أن الطفل الإنساني يحتاج إلى فترة رعاية أطول من الفترة التي يحتاج إليها طفل أي حيوان آخر كما أن التربية التي يحتاج إليها ليصبح قادرًا على إدراك مقتضيات الحياة الإنسانية الاجتماعية المترقية التي يتميز بها الإنسان تمتد إلى فترة طويلة أخرى وإذا كانت غاية الميل الجنسي في الحيوان تنتهي عند تحقيق الاتصال الجنسي والتناسل والإكثار فإنها في الإنسان لا تنتهي عند تحقيق هذا الهدف إنما هي تمتد إلى هدف أبعد هو الارتباط الدائم بين الذكر والأنثى بين الرجل والمرأة ليتم إعداد الطفل الإنساني لحماية نفسه وحفظ حياته وجلب طعامه وضرورياته كما يتم وهذا هو الأهم بالنسبة لمقتضيات الحياة الإنسانية تربية هذا الطفل وتزويده برصيده من التجارب الإنسانية والمعرفة الإنسانية يؤهله للمساهمة في حياة المجتمع الإنساني والمشاركة في حمل تبعته من أطراد الترقى الإنساني عن طريق الأجيال المتتالية ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هي المقوم الأول في حياة الجنسين في عالم الإنسان ; إنما هي مجرد وسيلة ركبها الفطرة فيهما ليتم الالتقاء بينهما وبطول بعد الاتصال الجنسي للقيام بواجب المشاركة في أطراد نمو النوع ولم يعد الهوى الشخصي هو الحكم في بقاء الارتباط بين الذكر والأنثى إنما الحكم هو الواجب واجب النسل الضعيف الذي يجيء ثمرة للالتقاء بينهما وواجب المجتمع الإنساني الذي يحتم عليهما تربية هذا النسل إلى الحد الذي يصبح معه قادرًا على النهوض بالتبعية الإنسانية وتحقيق غاية الوجود الإنساني وكل هذه الاعتبارات تجعل الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة هو النظام الوحيد الصحيح كما تجعل تخصيص امرأة لرجل هو الوضع الصحيح الذي تستمر معه هذه العلاقة والذي يجعل الواجب لا مجرد اللذة ولا مجرد الهوى هو الحكم في قيامها ثم في استمرارها ثم في معالجة كل مشكلة تقع في أثناءها ثم عند فطم عقدها عند الضرورة القصوى وأي تهوين من شأن روابط الأسرة وأي توهين للأساس الذي تقوم عليه وهو الواجب لإحلال الهوى المتقلب و النزوة العارضة و الشهوة الجامحة محله هي محاولة أئمة لا لأنها تشيع الفوضى والفاحشة والانحلال في المجتمع الإنساني فحسب بل كذلك لأنها تحطم هذا المجتمع ; وتهدم الأساس الذي يقوم عليه ومن هنا ندرك مدى الجريمة التي تراولها الأقلام والأجهزة

الذنسة المسخرة لتوهين روابط الأسرة والتصغير من شأن الرباط الزوجي وتشويهه وتحقيره للإعلاء من شأن الارتباطات القائمة على مجرد الهوى المتقلب والعاطفة الهائجة والنزوة الجامحة وتمجيد هذه الارتباطات بقدر الحط من الرباط الزوجي كما ندرك مدى الحكمة والعمق في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل أراد أن يطلق زوجته معللاً ذلك بأنه لم يعد يحبها ويحك ألم تن البيوت إلا على الحب فأين الرعاية وأين التذمم مستمداً قولته هذه من توجيه الله سبحانه وتربية القرآن الكريم لتلك الصفة المختارة من عباده وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً وذلك للإمساك بالبيوت ما أمكن ومقاومة نزوات القلوب وعلاجها حتى تفيء وعدم بت هذه الصلة إلا حين تفلس المجادلات كلها رعاية للجيل الناشيء في هذه البيوت ; وصيانة لها من هزات العاطفة المتقلبة والنزوة الجامحة والهوى الذاهب مع الريح وفي ظل هذه النظرة السامية العميقة تتبدى التفاهة والسطحية فيما ينعق به اليوم أولئك المائعون وهم يمجدون كل ارتباط إلا الارتباط الذي يحكم الواجب والذي يرعى أمانة الجنس البشري كله وهي تنشئة أجيال تنهض بمقتضيات الحياة الإنسانية المترقية وتحكيم مصلحة هذه الأجيال لا مصلحة العواطف الوقتية الزائلة إن أقلاماً دنسة رخيصة وأجهزة خبيثة لئيمة توحى لكل زوجة ينحرف قلبها قليلاً عن زوجها أن تسارع إلى خدين ; ويسمون ارتباطها بخدينها هذا رباطاً مقدساً بينما يسمون ارتباطها بذلك الزوج عقد بيع للجسد والله سبحانه يقول في بيان المحرمات من النساء والمحصنات من النساء فيجعلهن محرمات هذا قول الله وذلك قول المائعين المسخرين لتحطيم هذا المجتمع ونشر الفاحشة فيه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل إن جهوداً منظمة موجهة تبذل لإنشاء موازين وقيم وتصورات للمجتمع غير تلك التي يريدتها الله ولإقامة أسس للحياة والارتباطات غير تلك التي أقامها الله ولتوجيه الناس والحياة وجهة غير التي قررها الله والموجهون لهذه الجهود يحسبون أنهم ينتهون إلى تحطيم قواعد المجتمع الإسلامي وتدمير حياة المسلمين في الأوطان الإسلامية حتى لا تبقى أمامهم حواجز تصد أطماعهم القديمة في هذه الأوطان بعد أن تنهار عقائدها وتنهار أخلاقها وتنهار مجتمعاتها ولكن الكارثة أبعد من هذا مدى إنها تحطيم قواعد المجتمع الإنساني كله لا المجتمع الإسلامي وحده تحطيم قواعد الفطرة التي تقوم عليها حياة الإنسان وحرمان المجتمع البشري من العناصر التي تحمل أمانته الكبرى أمانة الحياة الإنسانية المترقية وذلك بحرمانه من الأطفال المؤهلين في جو الأسرة الهاديء المطمئن الآمن من عواصف الشهوات الجامحة والنزوات المتقلبة والهوى الذاهب مع الريح للنهوض بأمانة الجنس البشري كله وهي شيء آخر غير مجرد التناسل الحيواني وغير مجرد الالتقاء الشهواني على أساس العواطف وحدها وتنحية الواجب المطمئن الثابت الهاديء وهكذا تحق اللعنة على الجنس البشري كله إذ يحطم نفسه بنفسه ; ويدمر الجيل الحاضر منه مستقبلاً الأجيال القادمة لتحقيق لذاته هو وشهواته هو وعلى الأجيال القادمة اللعنة وتحق كلمة الله على الخارجين على كلمته وفطرته وتوجيهه ويذوق الجنس البشري كله وبال أمره إلا أن يرحمه الله بالعصبة المؤمنة التي تقر كلمة الله ومنهجه في الأرض وتأخذ بيد الناس إليها ; وتعصمهم من الشر الماحق الذي يهينونه لأنفسهم بأيديهم وهم يحسبون أنهم فقط إنما يحطمون

الأوطان الإسلامية لتنهار حواجزها بتلك الجهود الموجهة الخبيثة التي تتولاها أقلام وأجهزة من داخل هذه الأوطان ذاتها والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم وهذا الاستثناء يتعلق بالسبايا اللواتي كن يؤخذن أسيرات في حروب الجهاد الإسلامي وهن متزوجات في دار الكفر والحرب حيث تنقطع علاقاتهن بأزواجهن الكفار بانقطاع الدار ويصبحن غير محصنات فلا أزواج لهن في دار الإسلام ومن ثم يكفي استبراء أرحامهن بحيضة واحدة ؛ يظهر منها خلو أرحامهن من الحمل ويصبح بعدها نكاحهن حلالا إن دخلن في الإسلام أو أن يباشرهن من غير عقد نكاح من يقعن في سهمه باعتبارهن ملك يمين سواء أسلمن أم لم يسلمن ولقد سبق لنا في الجزء الثاني من هذه الظلال بيان موقف الإسلام من مسألة الرق بجملتها كذلك ورد بيان آخر عند تفسير قوله تعالى حتى إذا أئختموهم فشدوا الوثاق ؛ فإما منا بعد وإما فداء ؛ حتى تضع الحرب أوزارها في سورة محمد في الجزء السادس والعشرين فيرجع إليهما في مواضعهما ونكتفي هنا بالقول بأن المعسكر الإسلامي كان يعامل أعداءه في مسألة استرقاق الأسرى في الحرب كما يعاملونه من حيث مبدأ الرق ويفضلهم في نوع معاملته للرقيق وفي اعتبار إنسانيته فضلا كبيرا ولم يكن له بد من ذلك حيث كان استرقاق الأسرى نظاما عالميا لا يملك الإسلام إبطاله من جانب واحد وإلا كان الأسرى من المسلمين يصبحون رقيقا ؛ بينما الأسرى من الكفار يصبحون أحرارا فترجح كفة المعسكرات الكافرة على المعسكر الإسلامي وتطمع هذه المعسكرات في مهاجمته وهي آمنة مطمئنة من عواقب الهجوم بل وهي رابحة غانمة ومن ثم لم يكن بد من أن تكون هناك سبايا كوافر في المجتمع المسلم فكيف يصنع بهن إن الفطرة لا تكتفي بأن يأكلن ويشربن فهناك حاجة فطرية أخرى لا بد لهن من إشباعها وإلا التمسنها في الفاحشة التي تفسد المجتمع كله وتدنسه ولا يجوز للمسلمين أن ينكحوهن وهن مشركات لتحريم الارتباط الزوجي بين مسلم ومشركة فلا يبقى إلا طريق واحد هو إحلال وطئهن بلا نكاح ما دمن مشركات بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن وانقطاع صلتهن بأزواجهن في دار الكفر والحرب وقبل أن يمضي السياق القرآني في تقرير ما يحل بعد تلك المحرمات يربط بين أصل التحريم والتحليل ومصدر التحريم والتحليل المصدر الذي ليس لغيره أن يحرم أو يحلل ؛ أو يشرع للناس شيئا في أمور حياتهم جميعا كتاب الله عليكم هذا عهد الله عليكم وميثاقه وكتابه فليست المسألة هوى يتبع أو عرفا يطاع أو موروثة بيئة تتحكم إنما هو كتاب الله وعهده وميثاقه فهذا هو المصدر الذي تتلقون منه الحل والحرمة ؛ وترعون ما يفرضه عليكم وما يكتبه وتطالبون بما كتب عليكم وما عهد إليكم كذلك ومما يلاحظ أن معظم المحرمات التي حرمها القرآن في الآيات السابقة كانت محرمة في الجاهلية ولم يكن يباح منها في عرف الجاهلية إلا ما نكح الآباء والجمع بين الأختين على كره من العرف الجاهلي ذاته لنكاح زوجات الآباء وقد كان يسمى عندهم مقينا نسبة إلى المقمت ولكن لما جاء القرآن يقرر حرمة هذه المحرمات لم يرجع في تحريمها إلى عرف الجاهلية هذا إنما قال الله سبحانه كتاب الله عليكم هذه لمسة تقتضي الوقوف أمامها لبيان حقيقة الأصل الاعتقادي في الإسلام وحقيقة الأصل الفقهي فهذا البيان يفيدنا في أمور كثيرة في حياتنا الواقعية إن الإسلام يعتبر أن الأصل الوحيد الذي يقوم عليه التشريع للناس هو أمر الله وإذنه بإعتبار أنه هو مصدر

السلطان الأول والأخير فكل ما لم يقرم ابتداء على هذا الأصل فهو باطل بطلانا أصليا غير قابل للتصحيح المستأنف فالجاهلية بكل ما فيها والجاهلية هي كل وضع لا يستمد وجوده من ذلك الأصل الوحيد الصحيح باطلة بطلانا أصليا باطلة بكل تصوراتها وقيمها وموازينها وعرفها وتقاليدها وشرائعها وقوانينها والإسلام حين يسيطر على الحياة ويصرفها يأخذ الحياة جملة ويأخذ الأمر جملة ; فيسقط ابتداء كل أوضاع الجاهلية وكل قيمها وكل عرفها وكل شرائعها ; لأنها باطلة بطلانا أصليا غير قابل للتصحيح المستأنف فإذا أقر عرفا كان سائدا في الجاهلية فهو لا يقره بأصله الجاهلي ; مستندا إلى هذا الأصل إنما هو يقره ابتداء بسلطانه المستمد من أمر الله وإذنه أما ذلك الذي كان في الجاهلية فقد سقط ولم يعد له وجود من الناحية الشرعية كذلك حين يحيل الفقه الإسلامي على العرف في بعض المسائل فهو يمنح العرف ابتداء سلطانا من عنده هو بأمر الله فتصبح للعرف في هذه المسائل قوة الشريعة استمدادا من سلطان الشارع وهو الله لا استمدادا من الناس ومن البيئة التي تواضعت على هذا العرف من قبل فليس تواضع البيئة على هذا العرف هو الذي يمنحه السلطان كلا إنما الذي يمنحه السلطان هو اعتبار الشارع إياه مصدرا في بعض المسائل وإلا بقي على بطلانه الأصلي لأنه لم يستمد من أمر الله وهو وحده مصدر السلطان وهو يقول عما كانت الجاهلية تشرعه مما لم يأذن به الله أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله فيشير إلى أن الله وحده هو الذي يشرع فهل لهم آلهة شرعت لهم ما لم يأذن به الله هذا الأصل الكبير الذي تشير إليه هذه اللمسة كتاب الله عليكم تقرره وتؤكدوه النصوص القرآنية في كل مناسبات التشريع فما من مرة ذكر القرآن تشريعا إلا أشار إلى المصدر الذي يجعل لهذا التشريع سلطانا أما حين يشير إلى شرائع الجاهلية وعرفها وتصوراتها فهو يردفها غالبا بقوله ما أنزل الله بها من سلطان لتحريرها من السلطان ابتداء وبيان علة بطلانها وهي كونها لم تصدر من ذلك المصدر الوحيد الصحيح وهذا الأصل الذي تقرره هنا هو شيء آخر غير الأصل المعروف في التشريع الإسلامي من أن الأصل في الأشياء الحل ما لم يرد بتحريمها نص فكون الأصل في الأشياء الحل إنما هو كذلك بأمر الله وإذنه فهو راجع إلى الأصل الذي قررناه ذاته إنما نحن نتحدث عما تشرعه الجاهلية لنفسها دون رجوع إلى ما شرعه الله وهذا الأصل فيه البطلان جملة وكلية حتى يقرر شرع الله ما يرى تقريره منه من جديد فيكتسب منذ أن يرد في شرع الله المشروعية والسلطان فإذا انتهى السياق من بيان المحرمات وربطها بأمر الله وعهده أخذ في بيان المجال الذي يملك فيه الناس أن يلبوا دوافع فطرتهم في التزاوج والطريقة التي يجب الله أن يلتقي بها أفراد الجنسين لتكوين البيوت وإقامة مؤسسات الأسرة والمتاع بهذا الالتقاء في نظافة وطهر وجد تليق بهذا الأمر العظيم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما ففيما وراء هذه المحرمات المذكورة فالنكاح جلال وللراغبين فيه أن يبتغوا النساء بأموالهم أي لأداء صداقهن لا لشراء أعراضهن بالأموال من غير نكاح ومن ثم قال محصنين غير مسافحين وجعلها قيذا وشرطا للابتغاء بالأموال قبل أن يتم الجملة وقبل أن يمضي في الحديث ولم يكتف بتقرير هذا القيد في صورته

الإيجابية المثبتة محصنين بل أردفها بنفي الصورة الأخرى غير مسافحين زيادة في التوكيد والإيضاح في معرض التشريع والتقنين ثم لكي يرسم صورة لطبيعة العلاقة الأولى التي يحبها ويريدها علاقة النكاح وصورة لطبيعة العلاقة الأخرى التي يكرهها وينفيها علاقة المخادنة أو البغاء وقد كانت هذه وتلك معروفة في مجتمع الجاهلية ومعترفا بها كذلك من المجتمع جاء في حديث عائشة رضي الله عنها ان النكاح في الجاهلية كان علي أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمى من أحببت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك فالنوعان الثالث والرابع هما السفاح الذي ينص على نفيه سواء منه المخادنة والبغاء والأول هو الإحصان الذي ينص على طلبه أما الثاني فما ندري كيف نسميه والقرآن يصور طبيعة النوع الذي يريده الله فهو إحصان هو حفظ وصيانة هو حماية ووقاية هو إحصان للرجل وإحصان للمرأة ففي هذه القراءة محصنين بصيغة اسم الفاعل وفي قراءة أخرى محصنين بصيغة اسم المفعول وكلا المعنيين يتحقق في هذه الصورة النظيفة القويمة العفيفة وهو إحصان للبيت والأسرة والأطفال إحصان لهذة المؤسسة التي تقوم على هذا الأساس ثابتة راسخة وطيدة والآخر سفاح مفاعلة من السفح وهو إراقة الماء في المنحدر الواطى ء مسافحة يشترك فيها الرجل والمرأة فيريقان ماء الحياة الذي جعله الله لامتداد النوع ورفقه عن طريق اشتراك الرجل والمرأة في إنجاب الذرية وتربيتها وحضانتها وصيانتها فإذا هما يريقانه للذة العابرة والنزوة العارضة يريقانه في السفح الواطى ء فلا يحصنهما من الدنس ولا يحصن الذرية من التلف ولا يحصن البيت من البوار وهكذا يرسم التعبير القرآني صورتين كاملتين لنوعين من الحياة ; في كلمتين اثنتين ويبلغ غايته من تحسين الصورة التي يرتضيها وتبشيع الصورة التي لا يرتضيها بينما هو يقرر حقيقة كل من الصورتين في واقع الحياة وذلك من بدائع التعبير في القرآن فإذا انتهى من هذا القيد للابتغاء بالأموال عاد ليقرر كيف ينتعى بالأموال فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة فهو يجعل صداق المرأة فريضة لها مقابل الاستمتاع بها فمن أراد أن يستمتع بامرأة من الحلائل وهن ما وراء ذلكم من المحرمات فالطريق هو ابتغاؤها للإحصان أي عن طريق النكاح الزواج لا عن أي طريق آخر وعليه أن يؤدي لها صداقها حتما مفروضا لا نافلة ولا تطوعا منه ولا إحسانا فهو حق لها عليه مفروض وليس له أن يرثها وراثه بلا مقابل كما كان يقع في بعض

الأحوال في الجاهلية وليس له أن يقايض عليها مقايضة كما كان يقع في زواج الشغار في الجاهلية وهو أن يتزوج الرجل امرأة في مقابل أن يدفع لوليها امرأة من عنده كأنهما بهيمتان أو شيئان وبعد تقرير هذا الحق للمرأة وفرضيته يدع الباب مفتوحا لما يتراضى عليه الزوجان بينهما وفق مقتضيات حياتهما المشتركة ووفق مشاعرهما وعواطفهما أحدهما تجاه الآخر ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة فلا حرج عليهما في أن تتنازل الزوجة عن مهرها كله أو بعضه بعد بيانه وتحديدده وبعد أن أصبح حقا لها خالصا تتصرف فيه كما تتصرف في سائر أموالها بحرية ولا جناح عليهما في أن يزيدا الزوج على المهر أو يزيدا فيه فهذا شأنه الخاص وهذا شأنهما معا يتراضيان عليه في حرية وسماحة ثم يجيء التعقيب يربط هذه الأحكام بمصدرها ; ويكشف عما وراءها من العلم الكاشف والحكمة البصيرة إن الله كان عليما حكيما فهو الذي شرع هذه الأحكام وهو الذي شرعها عن علم وعن حكمة فيعرف ضمير المسلم من أين يتلقى الأحكام في كل شأن من شئون حياته وأخصها هذا الذي بينه وبين زوجته ويطمئن إلى ما يتلقاه من هذه الأحكام الصادرة عن العلم وعن الحكمة إن الله كان عليما حكيما

الدرس الثاني الزواج من الإماء وعقوبتهن عند المخالفة

فإذا كانت ظروف المسلم تحول بينه وبين الزواج من حرة تحصنها الحرية وتصونها فقد رخص له في الزواج من غير الحرة إذا هو لم يصبر حتى يستطيع الزواج من حرة وخشي المشقة ; أو خشي الفتنة ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيما نكح من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن ; وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتبن بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم إن هذا الدين يتعامل مع الإنسان في حدود فطرته وفي حدود طاقته وفي حدود واقعه وفي حدود حاجاته الحقيقية وحين يأخذ بيده ليرتفع به من حضيض الحياة الجاهلية إلى مرتقى الحياة الإسلامية لا يغفل فطرته وطاقته وواقعه وحاجاته الحقيقية بل يلبسها كلها وهو في طريقه إلى المرتقى الصاعد إنه فقط لا يعتبر واقع الجاهلية هو الواقع الذي لا فكاك منه فواقع الجاهلية هابط وقد جاء الإسلام ليرفع البشرية من وهدة هذا الواقع إنما هو يعتبر واقع الإنسان في فطرته وحقيقته واقتدار الإنسان على الترقى واقع من هذا الواقع فليس الواقع فقط هو مجرد تلبطه في وحل الجاهلية أية جاهلية فمن الواقع كذلك مقدرته بما ركب في فطرته على الصعود والتسامي عن ذلك الوحل أيضا والله سبحانه هو الذي يعلم واقع الإنسان كله لأنه يعلم حقيقة الإنسان كلها هو الذي خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وقد كان في المجتمع المسلم الأول رقيق يتخلف من الحروب ; ريثما يتم تدبير أمره إما بإطلاق سراحه امتنانا عليه بلا مقابل

وإما فداء مقابل إطلاق سراح أسارى المسلمين أو مقابل مال حسب الملابس والظروف المتنوعة فيما بين المسلمين وأعدائهم المحاربين وقد عالج الإسلام هذا الواقع بإياحة مباشرة ملك اليمين كما جاء في الآية السابقة لمن هن ملك يمينه لمواجهة واقع فطرتهن كما أسلفنا مباشرتهن إما بزواج منهن إن كن مؤمنات أو بغير زواج بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن في دار الحرب بحيضة واحدة ولكنه لم يبح لغير سادتهن مباشرتهن إلا أن يكون ذلك عن طريق الزواج لم يبح لهن أن يبعن أعراضهن في المجتمع لقاء أجر ؛ ولا أن يسرحهن سادتهن في المجتمع يزاولن هذه الفاحشة لحسابهم كذلك وفي هذه الآية ينظم طريقة نكاحهن والظروف المبيحة لهذا النكاح ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات إن الإسلام يؤثر الزواج من حرة في حالة الطول أي القدرة على نكاح الحرة ذلك أن الحرة تحصنها الحرية ؛ وتعلمها كيف تحفظ عرضها وكيف تصون حرمة زوجها فهن محصنات هنا لا بمعنى متزوجات فقد سبق تحريم نكاح المتزوجات ولكن بمعنى حرائر محصنات بالحرية ؛ وما تسبغه على الضمير من كرامة وما توفره للحياة من ضمانات فالحررة ذات أسرة وبيت وسمعة ولها من يكفيا وهي تخشى العار وفي نفسها أنفة وفي ضميرها عزة فهي تأبى السفاح والانحدار ولا شيء من هذا كله لغير الحرة ومن ثم فهي ليست محصنة وحتى إذا تزوجت فإن رواسب من عهد الرق تبقى في نفسها فلا يكون لها الصون والعفة والعزة التي للحررة فضلا على أنه ليس لها شرف عائلي تخشى تلويثه مضافا إلى هذا كله أن نسلها من زوجها كان المجتمع ينظر إليهم نظرة أدنى من أولاد الحرائر فتعلق بهم هجنة الرق في صورة من الصور وكل هذه الاعتبارات كانت قائمة في المجتمع الذي تشرع له هذه الآية لهذه الاعتبارات كلها أثر الإسلام للمسلمين الأحرار ألا يتزوجوا من غير الحرائر إذا هم استطاعوا الزواج من الحرائر وجعل الزواج من غير الحرة رخصة في حالة عدم الطول مع المشقة في الانتظار ولكن إذا وجدت المشقة وخاف الرجال العنت عنت المشقة أو عنت الفتنة فإن الدين لا يقف أمامهم بذودهم عن اليسر والراحة والطمأنينة فهو يحل إذن الزواج من المؤمنات غير الحرائر اللواتي في ملك الآخرين وبعين الصورة الوحيدة التي يرضاها للعلاقة بين الرجال الأحرار وغير الحرائر وهي ذاتها الصورة التي رضىها من قبل في زواج الحرائر فأولا يجب أن يكن مؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات وثانيا يجب أن يعطين أجورهن فريضة لهن لا لسادتهن فهذا حقهن الخالص وأتوهن أجورهن وثالثا يجب أن تكون هذه الأجور في صورة صداق وأن يكون الاستمتاع بهن في صورة نكاح لا مخادنة ولا سفاح والمخادنة أن تكون لواحد والسفاح أن تكون لكل من أراد محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان وقد كان المجتمع إذ ذاك يعرف هذه الأنواع من الاتصال الجنسي بين الحرائر كما سلف من حديث عائشة رضي الله عنها كما كان يعرف كذلك بين غير الحرائر أنواعا من البغاء وقد كان سادة من أشرف القوم يرسلون رقيقاتهم يكسبن بأجسامهن في هذا السبيل القدر لحساب سادتهن وكان لعبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين في المدينة وهو من سادة قومه أربع جوار يكسبن له من هذا السبيل وكانت هذه بقايا أو حال الجاهلية التي جاء الإسلام ليرفع العرب منها ويطهرهم ويزكيهم كما يرفع منها سائر البشرية كذلك وكذلك

جعل الإسلام طريقا واحدة للمعايشة بين الرجال الأحرار وهؤلاء الفتيات هي طريق النكاح الذي تخصص فيه امرأة لرجل لتكوين بيت وأسرة لا الذي تنطلق فيه الشهوات انطلاقا البهائم وجعل الأموال في أيدي الرجال لتؤدي صداقا مفروضا لا لتكون اجرا في مخادنة أو سفاح وكذلك طهر الإسلام هذه العلاقات حتى في دنيا الرقيق من وحل الجاهلية الذي تلبط فيه البشرية كلما ارتكست في الجاهلية والذي تلبط فيه اليوم في كل مكان لأن رايات الجاهلية هي التي ترتفع في كل مكان لا راية الإسلام ولكن قبل أن نتجاوز هذا الموضوع من الآية ينبغي أن نقف أمام تعبير القرآن عن حقيقة العلاقات الإنسانية التي تقوم بين الأحرار والرقيق في المجتمع الإسلامي وعن نظرة هذا الدين إلى هذا الأمر عندما واجهه المجتمع الإسلامي إنه لا يسمى الرقيقات رقيقات ولا جوارى ولا إماء إنما يسميهن فتيات فمما ملكت إيمانكم من فتياتكم المؤمنات وهو لا يفرق بين الأحرار وغير الأحرار تفرقة عنصرية تتناول الأصل الإنساني كما كانت الاعتقادات والاعتبارات السائدة في الأرض كلها يومذاك إنما يذكر بالأصل الواحد ويجعل الأصرة الإنسانية والأصرة الإيمانية هما محور الارتباط والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض وهو لا يسمى من هن ملك لهم سادة إنما يسميهم أهلا فانكوهن بإذن أهلهن وهو لا يجعل مهر الفتاة لسيدها فمهرها إنما هو حق لها لذلك يخرج من قاعدة أن كسبها كله له فهذا ليس كسبا إنما هو حق ارتباطها برجل وأتوهن أجورهن وهو يكرمهن عن أن يكن بائعات أعراض بثمن من المال إنما هو النكاح والإحصان محصنات غير مسافحات ولا متحذات أخدان وكلها لمسات واعتبارات تحمل طابع التكريم لإنسانية هؤلاء الفتيات حتى وهن في هذا الوضع الذي اقتضته ملابسات وقتية لا تطعن في أصل الكرامة الإنسانية وحين يقاس هذا التكريم إلى ما كان سائدا في جاهلية الأرض كلها يومذاك من النظرة إلى الرقيق وحرمانه حق الانتساب إلى إنسانية السادة وسائر الحقوق التي تترتب على هذه الإنسانية يبدو مدى النقلة التي نقل الإسلام إليه كرامة الإنسان وهو يرفعها في جميع الأحوال بغض النظر عن الملابس الطارئة التي تحد من أوضاع بعض الأناسي كوضع الأسترقاق ويبدو مدى النقلة البعيدة حين يقاس صنيع الإسلام هذا وتنظيمه لأوضاع هذه الحالة الطارئة بما تصنعه الجيوش الفاتحة في هذه الجاهلية الحديثة بنساء وفتيات البلاد المفتوحة وكلنا يعرف حكاية الترفيه أو قصة الوحل الذي تلغ فيه جيوش الجاهلية الفاتحة في كل مكان وتخلفه وراءها للمجتمع حين ترحل يعاني منه السنوات الطوال ثم يقرر الإسلام عقوبة مخففة على من ترتكب الفاحشة من هؤلاء الفتيات بعد إحصانها بالزواج واضعا في حسابه واقعها وظروفها التي تجعلها أقرب إلى السقوط في الفاحشة وأضعف في مقاومة الإغراء من الحرة مقدر أن الرق يقلل من الحصانة النفسية لأنه يغض من الشعور بالكرامة والشعور بشرف العائلة وكلاهما شعور يثير الإباء في نفس الحرة كما يقدر الحالة الاجتماعية والاقتصادية واختلافها بين الحرة والأمة وأثرها في جعل هذه أكثر تسامحا في عرضها وأقل مقاومة لإغراء المال وإغراء النسب ممن يراودها عن نفسها يقدر الإسلام هذا كله فيجعل حد الأمة بعد إحصانها نصف حد الحرة المحصنة بالحرية قبل زواجها فإذا أحصن فان أتت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ومفهوم أن النصف يكون من العقوبة التي تحتل القسمة وهي عقوبة الجلد ولا يكون في عقوبة الرجم

إذ لا يمكن قسمتها فإذا زنت الجارية المؤمنة المتزوجة عوقبت بنصف ما تعاقب به الحرة البكر أما عقوبة الجارية البكر فمختلف عليها بين الفقهاء هل تكون هذا الحد نفسه وهو نصف ما على الحرة البكر ويتولاه الإمام أم تكون تأديبا يتولاه سيدها ودون النصف من الحد وهو خلاف يطلب في كتب الفقه أما نحن في ظلال القرآن فنقف أمام مراعاة هذا الدين لواقع الناس وظروفهم في الوقت الذي يأخذ بأيديهم في المرتقى الصاعد النظيف إن هذا الدين يأخذ في اعتباره كما قلنا واقع الناس دون أن يدعهم يتلبطون في الوحل باسم هذا الواقع وقد علم الله ما يحيط بحياة الرقيق من مؤثرات تجعل الواحدة ولو كانت متزوجة أضعف من مقاومة الإغراء والوقوع في الخطيئة فلم يغفل هذا الواقع ويقرر لها عقوبة كعقوبة الحرة ولكن كذلك لم يجعل لهذا الواقع كل السلطات فيعفيها نهائيا من العقوبة قوام وسط يلحظ كل المؤثرات وكل الملابس كذلك لم يجعل من انحطاط درجة الرقيق سببا في مضاعفة العقوبة كما كانت قوانين الجاهلية السائدة في الأرض كلها تصنع مع الطبقات المنحطة والطبقات الراقية ; أو مع الوضعاء والأشراف تخفف عن الأشراف وتقسو على الضعاف كان المعمول به في القانون الروماني الشهير أن تشدد العقوبة كلما انحطت الطبقة فكان يقول ومن يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء فعقوبته إن كان من بيئة كريمة مصادرة نصف ماله وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض وكان المعمول به في القانون الهندي الذي وضعه منو وهو القانون المعروف باسم منوشاستر أن البرهمي إن استحق القتل فلا يجوز للحاكم إلا أن يخلق رأسه أما غيره فيقتل وإذا مد أحد المنبوذين إلى برهمي يدا أو عصا ليطش به قطعت يده الخ وكان اليهود إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الوضع أقاموا عليه الحد وجاء الإسلام ليضع الحق في نصابه ; وليأخذ الجاني بالعقوبة مراعيًا جميع اعتبارات الواقع وليجعل حد الأمة بعد الإحصان نصف حد الحرة قبل الإحصان فلا يترخص فيعفيها من العقوبة ويجعل إرادتها ملغاة كلية من ارتكاب الفعل تحت وطأة الظروف فهذا خلاف الواقع ولا يغفل واقعها كذلك فيعاقبها عقاب الحرة وواقعها يختلف عن واقع الحرة ولا يتشدد تشدد الجاهلية مع الضعاف دون الأشراف وما تزال الجاهلية الحديثة في أمريكا وفي جنوب أفريقية وفي غيرها تراول هذه التفرقة العنصرية وتغفر للأشراف البيض ما لا تغفره للضعاف الملونين والجاهلية هي الجاهلية حيث كانت والإسلام هو الإسلام حيث كان ثم تنتهي الآية ببيان أن الزواج من الإماء رخصة لمن يخشى المشقة أو الفتنة فمن استطاع الصبر في غير مشقة ولا فتنة فهو خير لما أسلفناه من الملابس التي تحيط بالزواج من الإماء ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم إن الله لا يريد أن يعنت عباده ولا أن يشق عليهم ولا أن يوقعهم في الفتنة وإذا كان دينه الذي اختاره لهم يريد منهم الاستعلاء والارتفاع والتسامي فهو يريد منهم هذا كله في حدود فطرتهم الإنسانية وفي حدود طاقتهم الكامنة وفي حدود حاجاتهم الحقيقية كذلك ومن ثم فهو منهج ميسر يلحظ الفطرة ويعرف الحاجة ويقدر الضرورة كل ما هنالك أنه لا يهتف للهابطين بالهبوط ولا يقف أمامهم وهم غارقون في الوحل يبارك هبوطهم وبمجد سقوطهم أو يعفيهم من الجهد في محاولة التسامي أو من التبعة في قلة مقاومة الإغراء وهو هنا يهيب بالصبر حتى تنهيا القدرة على نكاح الحرائر ; فهن أولى أن تصان

نفوسهن بالزواج وان تقوم عليهن البيوت وأن ينجبن كرام الأبناء وأن يحسن الإشراف على الجيل الناشئ وأن يحفظن فراش الأزواج فأما إذا خشي العنت عنت المشقة عند الصبر وعنت الفتنة التي لا تقاوم فهناك الرخصة والمحاولة لرفع مستوى الإماء بذلك التكريم الذي يضيفه عليهن فهن فتياتكم وهم أهلن والجميع بعضهم من بعض يربطهم الإيمان والله أعلم بالإيمان ولهن مهورهن فريضة وهو نكاح لا مخادنة ولا سفاح وهن مسؤولات إن وقعن في الخطيئة ولكن مع الرفق والتخفيف ومراعاة الظروف والله غفور رحيم يعقب بها على الاضطرار لنكاح غير الحرائر ويعقب بها على تخفيف عقوبة الإماء وهي في موضعها المناسب عقب هذه وتلك فمغفرة الله ورحمته وراء كل خطيئة ووراء كل اضطرار

الدرس الثالث بين إرادة الله وإرادة أصحاب الشهوات

ثم يجيء التعقيب الشامل على تلك الأحكام ; وعلى تلك التنظيمات التي شرعها الله للأسرة في المنهج الإسلامي ليرفع بها المجتمع المسلم من وهدة الحياة الجاهلية ; ويرفع بها مستواه النفسي والخلقي والاجتماعي إلى القمة السامقة النظيفة الوضيئة التي رفعه إليها يجيء التعقيب ليكشف للجماعة المسلمة عن حقيقة ما يريد الله لها بهذا المنهج وتلك الأحكام والتشريعات والتنظيمات ; وعن حقيقة ما يريد بها الذين يتبعون الشهوات ويحيدون عن منهج الله يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا إن الله سبحانه يتلطف مع عباده ; فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريد له لحياتهم من خير ويسر إنه يكرمهم سبحانه وهو يرفعهم إلى هذا الأفق الأفق الذي يحدثهم فيه ليبين لهم حكمة ما يشرعه لهم ; وليقول لهم إنه يريد أن يبين لهم يريد الله ليبين لكم يريد الله ليكشف لكم عن حكمته ; ويريد لكم أن تتروا هذه الحكمة وأن تتدبروها وأن تقبلوا عليها مفتوحا الأعين والعقول والقلوب ; فهي ليست معميات ولا ألغازا ; وهي ليست تحكما لا علة له ولا غاية ; وأنتم أهل لإدراك حكمتها ; وأهل لبيان هذه الحكمة لكم وهو تكريم للإنسان يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية فيدركون مدى هذا التلطف الكريم ويهديكم سنن الذين من قبلكم فهذا المنهج هو منهج الله الذي سنه للمؤمنين جميعا وهو منهج ثابت في أصوله موحد في مبادئه مطرد في غاياته وأهدافه هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون بذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان ; ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان ; ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول في الطريق اللاب الطويل وهي لفظة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمه ومنهجه وطريقه إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله تجمعها أصرة المنهج الإلهي على اختلاف الزمان والمكان واختلاف الأوطان ; والألوان وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين في كل جيل ومن كل قبيل

ويتوب عليكم فهو سبحانه يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ليرحمكم ليأخذ بيدكم إلى التوبة من الزلل والتوبة من المعصية ليمهد لكم الطريق ويعينكم على السير فيه والله عليم حكيم فعن العلم والحكمة تصدر هذه التشريعات ومن العلم والحكمة تجيء هذه التوجيهات العلم بنفوسكم وأحوالكم والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم والحكمة في طبيعة المنهج وفي تطبيقاته على السواء والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريد الله للناس بمنهجه وطريقته وحقيقة ما يريد بهم الذين يتبعون الشهوات ويحيدون عن منهج الله وكل من يحيد عن منهج الله إنما يتبع الشهوات فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع وشهوة تطاع وانحراف وفسوق وضلال فماذا يريد الله بالناس حين يبين لهم منهجه ويشرع لهم سنته إنه يريد أن يتوب عليهم يريد أن يهديهم يريد أن يجنبهم المزالق يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ويزنون للناس منافع ومذاهب لم يأذن بها الله ولم يشرعها لعباده إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلا عظيما عن المنهج الراشد والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم وفي هذا الميدان الخاص الذي تواجهه الآيات السابقة ميدان تنظيم الأسرة ; وتطهير المجتمع ; وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة التي يحب الله أن يلتقي عليها الرجال والنساء ; وتحريم ما عداها من الصور وتبشيعها وتقيحها في القلوب والعيون في هذا الميدان الخاص ما الذي يريد الله وما الذي يريد الذين يتبعون الشهوات فأما ما يريد الله فقد بينته الآيات السابقة في السورة وفيها إرادة التنظيم وإرادة التطهير وإرادة التيسير وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال وأما ما يريد الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال ديني أو أخلاقي أو اجتماعي يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كايح من أي لون كان السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب ولا يسكن معه عصب ولا يطمئن معه بيت ولا يسلم معه عرض ولا تقوم معه أسرة يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم ينزوا فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة كل هذا الدمار وكل هذا الفساد وكل هذا الشر باسم الحرية وهي في هذا الوضع ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين إياه وهو يحذرهم ما يريد لهم الذين يتبعون الشهوات وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهي القويم النظيف وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي الذي لا عاصم منه إلا منهج الله حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء الله واللمسة الأخيرة في التعقيب تتولى بيان رحمة الله بضعف الإنسان فيما يشرعه له من منهج وأحكام والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه ومراعاة اليسر فيما يشرع له ونفي الحرج والمشقة والضرر والضرار يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا فأما في هذا المجال الذي تستهدفه الآيات السابقة وما فيها من تشريعات وأحكام وتوجيهات فإرادة التخفيف واضحة ; تتمثل في الاعتراف بدوافع الفطرة وتنظيم الاستجابة لها وتصريف طاقتها في المجال الطيب المأمون

المثمر وفي الجو الطاهر النظيف الرفيع ; دون أن يكلف الله عباده عنتا في كتبها حتى المشقة والفتنة ; ودون أن يطلقهم كذلك ينحدرون في الاستجابة لها بغير حد ولا قيد وأما في المجال العام الذي يمثله المنهج الإلهي لحياة البشر كلها فإرادة التخفيف تبدو كذلك واضحة ; بمراعاة فطرة الإنسان وطاقته وحاجاته الحقيقية ; وإطلاق كل طاقاته البانية ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله وبخاصة في علاقات الجنسين شاق مجهد والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح وهذا وهم كبير فإطلاق الشهوات من كل قيد ; وتحري اللذة واللذة وحدها في كل تصرف ; واقصاء الواجب الذي لا مكان له إذا كانت اللذة وحدها هي الحكم الأول والآخر ; وقصر الغاية من التقاء الجنسين في عالم الإنسان على ما يطلب من مثل هذا الالتقاء في عالم البهائم ; والتجرد في علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقي ومن كل التزام اجتماعي إن هذه كلها تبدو يسرا وراحة وانطلاقا ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد وثقلة وعقابيلها في حياة المجتمع بل في حياة كل فرد عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي تحررت من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة يكفي لإلقاء الرعب في القلوب لو كانت هنالك قلوب لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الأول الذي حطم الحضارات القديمة حطم الحضارة الإغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة ; وقد ظهرت آثار التحطيم

شبه كاملة في انهيارات فرنسا التي سبقت في هذه الفوضى



والسويد وانجلترا وغيرها من دول الحضارة الحديثة وقد ظهرت آثار هذه الفوضى في فرنسا مبكرة مما جعلها تركع على أقدامها في كل حرب خاضتها منذ سنة إلى اليوم وهي في طريقها إلى الانهيار التام كما تدل جميع الشواهد وهذه بعض الإمارات التي أخذت تبدو واضحة من بعد الحرب العالمية الأولى إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم اضمحلال قواهم الجسدية وتدرجها إلى الضعف يوما فيوما فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ; وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم ; وطغيان الأمراض السرية قد أحف بصحتهم فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي على فترة كل بضع سنين لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام وهذا مقياس أمين يدلنا كدلالة مقياس الحرارة في الصحة والتدقيق على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية ومن أهم عوامل هذا الاضمحلال الأمراض السرية الفتاكة يدل على ذلك أن كان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل وتبعث بهم إلى المستشفيات في السنتين الأوليين من سني الحرب العالمية الأولى لكونهم مصابين بمرض الزهري خمسة وسبعين الفا وابتلي بهذا المرض وحده جنديا في أن واحد في ثكنة متوسطة وتصور بالله حال هذه الأمة البائسة في الوقت الذي كانت فيه بجانب في المضيق الحرج بين الحياة والموت فكانت أحوج ما تكون إلى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين لسلامتها وبقائها وكان كل فرنك من ثروتها مما يضمن به ويوفر ; وكانت الحال تدعو إلى بذل أكثر ما يمكن من القوة والوقت وسائر الأدوات والوسائل في سبيل الدفاع وكان بجانب آخر أبنائها الشباب الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع من جراء انغماسهم في اللذات ; وما كفى أمتهم ذلك خسرانا بل ضيعوا جانباً من ثروة الأمة ووسائلها في علاجهم في تلك الأوضاع الحرجة يقول طبيب فرنسي نطاسي يدعى الدكتور ليريه إنه يموت في فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهري وما يتبعه من الأمراض الكثيرة في كل سنة وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى الدق وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية التي فيها عدا هذا أمراض كثيرة أخرى والأمة الفرنسية يتناقص تعدادها بشكل خطير ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسي وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد لا تدع مجالاً لتكوين الأسرة ولا لاستقرارها ولا لاحتفال تبعة الأطفال الذين يولدون من الالتقاء الجنسي العابر ومن ثم يقل الزواج ويقل التناسل وتتدرج فرنسا منحدره إلى الهاوية سبعة أو ثمانية في الألف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم ولك أن تقدر من هذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التي لا تتزوج من أهاليها ثم هذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج قل فيهم من ينوون به التحصن والتزام المعيشة البرة الصالحة بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض حتى إنه كثيرا ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحلوا به الولد النغل الذي قد ولدته أمه قبل النكاح ويتخذوه ولدا شرعيا فقد كتب بول بيورو من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها ميثاقا قبل أن يعقد بينهما النكاح أن الرجل سيتخذ ولدها الذي ولدته قبل النكاح ولدا

شرعيا له وجاءت امرأة في محكمة الحقوق بمدينة سين فصرحت إنني كنت قد آذنت بعلي عن النكاح بأني لا أقصد بالزواج إلا استحلال الأولاد الذين ولدتهم نتيجة اتصالي به قبل النكاح وأما أن أعاشره وأعيش معه كزوجة فما كان في نيتي عند ذاك ولا هو في نيتي الآن ولذلك اعتزلت زوجي في أصيل اليوم الذي تم فيه زواجنا ولم ألتق به إلى هذا اليوم لأنني كنت لا أنوي قط أن أعاشره معاشرة زوجية قال عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيورد إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغي في بيتهم أيضا ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنين أو أكثر يهيمون في أودية الفجور أحرارا طلقاء ثم يأتي عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحياة الشريفة المتقلقلة فيتزوجون بامرأة بعينها حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته ولذة المخادنة الحرة خارج البيت وهكذا تدهورت فرنسا وهكذا هزمت في كل حرب خاضتها وهكذا تتوارى عن مسرح الحضارة ثم عن مسرح الوجود يوما بعد يوم حتى تحقق سنة الله التي لا تتخلف ; وإن بدت بطيئة الدوران في بعض الأحيان بالقياس إلى تعجل الإنسان أما في الدول التي لا تزال تبدو فتية أو لم تظهر فيها آثار الدمار واضحة بعد فهذه نماذج مما يجري فيها يقول صحفي ممن زاروا السويد حديثا بعد أن يتحدث عن حرية الحب في السويد وعن الرخاء المادي والضمانات الاجتماعية في مجتمعها الاشتراكي النموذجي إذا كانت أقصى أحلامنا أن نحقق للشعب هذا المستوى الاقتصادي الممتاز ; وأن نزيل الفوارق بين الطبقات بهذا الاتجاه الاشتراكي الناجح ; وأن نؤمن المواطن ضد كل ما يستطيع أي عقل أن يتصوره من أنواع العقبات في الحياة إذا وصلنا إلى هذا الحلم البهيج الذي نسعى بكل قوانا وإمكانياتنا إلى تحقيقه في مصر فهل نرضى نتائجه الأخرى هل نقبل الجانب الأسود من هذا المجتمع المثالي هل نقبل حرية الحب وآثارها الخطيرة على كيان الأسرة دعونا نتحدث بالأرقام مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة وتكوين أسرة فإن الخط البياني لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ; ثم تكفل لطفلها الحياة المجانية حتى يتخرج في الجامعة فإن الأسرة السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق يقابل هذا انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين مع ملاحظة أن عشرين في المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدًا لقد بدأ عهد التصنيع وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام كانت نسبة الأمهات غير المتزوجات في ذلك العام في المائة وارتفعت هذه النسبة في عام إلى في المائة والاحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة وقد أجرت المعاهد العلمية عدة استفسارات عن الحب الحر في السويد فتبين منها أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج في سن الثامنة عشرة والفتاة في سن الخامسة عشرة وأن في المائة من الشبان في سن سنة لهم علاقات جنسية وإذا أردنا تفصيلات تقنع المطالبين بحرية الحب فإننا نقول إن في المائة من هذه العلاقات الجنسية مع خطيبات و في المائة منها مع حبيبات و في المائة منها مع صديقات عابرات وإذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل سن العشرين وجدنا أن في المائة من هذه العلاقات مع أزواج و في المائة منها مع خطيب و في المائة منها مع صديق عابر وتقول الأبحاث العلمية إن في المائة من نساء السويد

مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج و في المائة بقين بلا زواج وأدت حرية الحب بطبيعة الحال إلى الزواج المتأخر وإلى الخطبة الطويلة الأجل مع زيادة عدد الأطفال غير الشرعيين كما قلت والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الأسرة إن أهل السويد يدافعون عن حرية الحب بقولهم إن المجتمع السويدي ينظر نظرة احتقار إلى الخيانة بعد الزواج كأي مجتمع متمدن آخر وهذا صحيح لا ننكره ولكنهم لا يستطيعون الدفاع عن الاتجاه إلى انقراض النسل ثم الزيادة المروعة في نسبة الطلاق إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم إن طلاقًا واحدًا يحدث بين كل ست أو سبع زيجات طبقًا للإحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد والنسبة بدأت صغيرة وهي مستمرة في الزيادة في عام كان يحدث طلاقًا بين كل ألف من السكان ارتفع هذا الرقم إلى في عام ثم ارتفع إلى في عام وسبب ذلك أن في المائة من الزيجات تتم اضطرارًا تحت ضغط الظروف بعد أن تحمل الفتاة والزواج بحكم الضرورة لا يدوم بطبيعة الحال كالزواج العادي ويشجع على الطلاق أن القانون السويدي لا يضع أية عقبة أمام الطلاق إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جدًا وإذا طلب أحدهما الطلاق فإن أي سبب بسيط يقدمه يمكن أن يتم به الطلاق وإذا كانت حرية الحب مكفولة في السويد فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد إنها حرية عدم الإيمان بالله لقد انتشرت في السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضًا المدرسون في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية وبيثونها في عقول النشء والشباب والجيل الجديد ينحرف وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف وإلى الإدمان على المخدرات والخمور وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ألفًا أي ما يوازي في المائة من مجموع أطفال العائلات كلها وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف إن من يقبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن و يوازي ثلاثة أمثال عدد المقبوض عليهم بنفس السبب منذ عامًا وعادة الشرب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيء إلى أسوأ ويتبع ذلك حقيقة رهيبية إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية ويقول أطباء السويد إن في المائة من مرضاهم يعانون من اضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية ولا شك أن التمدن في التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية ويزيد من دواعي تفكك الأسرة وبقربهم إلى هوة انقراض النسل والحال في أمريكا لا تقل عن هذه الحال ونذر السوء تتوالى والأمة الأمريكية في عنفوانها لا تتلفت للنذر ولكن عوامل التدمير تعمل في كيانها على الرغم من هذا الرواء الظاهري ; وتعمل بسرعة مما يشي بسرعة الدمار الداخلي على الرغم من كل الظواهر الخارجية لقد وجد الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم لا أنهم في حاجة إلى المال ولكن لأن بهم شذوذًا جنسيًا ناشئًا من آثار الفوضى الجنسية السائدة في المجتمع وقبل سنوات وضع البوليس الأمريكي يده على عصاة ضخمة ذات فروع في مدن شتى مؤلفة من المحامين والأطباء أي من قمة الطبقة المثقفة مهمتها مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بإيجاد الزوج أو الزوجة في حالة تلبس بالزنا وذلك

لأن بعض الولايات لا تزال تشترط هذا الشرط لقبول توقيع الطلاق ومن ثم يستطيع الطرف الكاره أن يرفع دعوى على شريكه بعد ضبطه عن طريق هذه العصاة متلبسًا وهي التي أوقعته في حبالها كذلك من المعروف أن هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين وذلك في مجتمع لا يدري فيه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته في الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق ولا تدري الزوجة إن كان زوجها الذي خرج في الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية مجتمع تعيش البيوت فيه في مثل هذا القلق الذي لا يدع عصيًا يستريح وأخيرًا يعلن رئيس الولايات المتحدة أن ستة من كل سبعة من شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجنسية بسبب الانحلال الخلقي الذي يعيشون فيه وقد كتبت إحدى المجلات الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن تقول عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثلوثها بدينانا اليوم وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض أولها الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحة ورواجه بعد الحرب العالمية الأولى بسرعة عجيبة والثاني الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب بل تلقنهم دروسًا عملية في بابه والثالث انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء الذي يظهر في ملابسهن بل في عريهن وفي إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام هذه المفاصد الثلاث فبنا إلى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر فإن نحن لم نجد من طغيانها فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان ومن تبعمهم من سائر الأمم الذين قد أوردتهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمر ونساء أو مشاغل رقص ولهو وغناء والذي حدث أن أمريكا لم تحد من طغيان هذه العوامل الثلاثة بل استسلمت لها تمامًا وهي تمضي في الطريق الذي سار فيه الرومان ويكتب صحفي آخر عن موجة انحراف الشباب في أمريكا وبريطانيا وفرنسا ليهون من انحلال شبابنا يقول انتشرت موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات من شباب أمريكا وأعلن حاكم ولاية نيويورك أنه سوف يجعل علاج هذا الانحراف على رأس برنامج الإصلاح الذي يقوم به في الولاية وعمد الحاكم إلى إنشاء المزارع و الإصلاحات التهذيبية والأندية الرياضية الخ ولكنه أعلن أن علاج الإدمان على المخدرات التي انتشرت بصفة خاصة بين طلبة وطالبات الجامعات ومنها الحشيش والكوكايين لا يدخل في برنامجه وأنه يترك أمره للسلطات الصحية وأما في إنجلترا فقد كثرت في العاميين الأخيرين جرائم الاعتداء على النساء وعلى الفتيات الصغيرات في طرق الريف وفي معظم الحالات كان المعتدي أو المجرم غلامًا مراهقًا وفي بعضها كان المجرم يعمد إلى خنق الفتاة أو الطفلة وتركها جثة هامدة حتى لا تفشي سره أو تتعرف عليه إذا عرضه عليها رجال البوليس ومنذ شهرين اثنين كان شيخ عجوز في طريقه إلى القرية عندما أبصر على جانب الطريق وتحت شجرة غلامًا يضاجع فتاة واقترب الشيخ منهما ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه وقال له إن ما يفعله لا يجوز ارتكابه في الطريق العام ونهض الفتى وركل الشيخ بكل قوته في بطنه ووقع الشيخ وهنا ركله الفتى في رأسه بحذائه واستمر يركله بقسوة حتى تهشم الرأس وكان الغلام في الخامسة عشرة والفتاة في الثالثة عشرة من عمرها وقد قررت لجنة الأربعة عشر الأمريكية التي

تعنى بمراقبة حالة البلاد الخلقية أن في المائة من الشعب الأمريكي مصابون بالأمراض السرية الفتاكة وذلك قبل وجود المركبات الحديثة من مضادات الحيوية كالبنسلين والاستربيتومايسين وكتب القاضي لندسي بمدينة دنفر أنه من كل حالي زواج تعرض قضية طلاق وكتب الطبيب العالم العالمي ألكسيس كاريل في كتابه الإنسان ذلك المجهول بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي والقوى العقلية ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون في المصحات على عدد المرضى الموجودين في جميع المستشفيات الأخرى وكالجنون فإن الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية أخذ في الازدياد وهي أكثر العناصر نشاطًا في جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر إن الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن هذا طرف مما تتكلفه البشرية الضالة في جاهليتها الحديثة من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ولا يريدون أن يفيئوا إلى منهج الله للحياة المنهج الملحوظ فيه اليسر والتخفيف على الإنسان الضعيف وصيانته من نزواته وحمائته من شهواته وهدايته إلى الطريق الآمن والوصول به إلى التوبة والصلاح والطهارة والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلًا عظيمًا يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا

فهرس الوحدة

الدرس الرابع النهي عن أكل المال بالباطل

والفقرة الثانية في هذا الدرس تتناول جانبًا من العلاقات المالية في المجتمع المسلم لتنظيم طرق التعامل في هذا الجانب ; لضمان طهارة التعامل بين الأفراد عامة ; ثم لتقرير حق النساء كالرجال في الملك والكسب كل حسب نصيبه وأخيرًا لتنظيم التعامل في عقود الولاء التي كانت سارية في الجاهلية وفي القسم الأول من صدر الإسلام لتصفية هذا النظام وتخصيص الميراث بالأقارب ; ومنع عقود الولاء الجديدة يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصليه نارًا وكان ذلك على الله يسيرًا إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ; وندخلكم مدخلا كريمًا ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وأسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ; والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدًا إنها حلقة في سلسلة التربية وحلقة في سلسلة التشريع والتربية والتشريع في المنهج الإسلامي متلازمان ; أو متداخلان ; أو متكاملان فالتشريع منظور فيه إلى التربية ; كما هو منظور فيه إلى تنظيم شؤون الحياة الواقعية ; والتوجيهات المصاحبة للتشريع منظور فيها إلى تربية الضمائر ; كما أنه منظور فيها إلى حسن تنفيذ التشريع وانبعث التنفيذ عن شعور بجدية هذا التشريع ; وتحقق المصلحة فيه والتشريع

والتوجيه المصاحب منظور فيهما معًا إلى ربط القلب بالله وإشعاره بمصدر هذا المنهج المتكامل من التشريع والتوجيه وهذه هي خاصية المنهج الرباني للحياة البشرية هذا التكامل الذي يصلح الحياة الواقعية ويصلح الضمير البشري في ذات الأوان وهنا في هذه الفقرة نجد النهي للذين آمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل وبيان الوجه الحلال للربح في تداول الأموال وهو التجارة ونجد إلى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس ; وهلكة وبوار ونجد إلى جانبه كذلك التحذير من عذاب الآخرة ومس النار وفي الوقت ذاته نجد التيسير والوعد بالمغفرة والتكفير والعون على الضعف والعفو عن التقصير كذلك نجد تربية النفوس على عدم التطلع إلى ما أنعم الله على البعض والتوجه إلى الله صاحب العطاء وسؤال من بيده الفضل والعطاء وذلك التوجيه مصاحب لتقرير حق الرجال ونصيبتهم فيما اكتسبوا وحق النساء ونصيبتهم فيما اكتسبن وهذا وذلك مصحوب بأن الله كان بكل شيء عليماً كما أن بيان التصرف في عقود الولاء والأمرء بالوفاء بها نجده مصحوباً بأن الله كان على كل شيء شهيداً وهي لمسات وجدانية مؤثرة مصاحبة للتشريع وتوجيهات تربوية من صنع العليم بالإنسان وتكوينه النفسي ومسالك نفسه ودروبها الكثيرة يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصلبه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً النداء للذين آمنوا والنهي لهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل مما يوحى بأنها عملية تطهير لبقايا رواسب الحياة الجاهلية في المجتمع الإسلامي ; واستجاشة ضمائر المسلمين بهذا النداء يا أيها الذين آمنوا واستحياء مقتضيات الإيمان مقتضيات هذه الصفة التي يناديهم الله بها لينهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل وأكل الأموال بالباطل يشمل كل طريقة لتداول الأموال بينهم لم يأذن بها الله أو نهى عنها ومنها الغش والرشوة والقمار واحتكار الضروريات لإغلائها وجميع أنواع البيوع المحرمة والربا في مقدمتها ولا نستطيع أن نجزم إن كان هذا النص قد نزل بعد تحريم الربا أو قبله ; فإن كان قد نزل قبله فقد كان تمهيداً للنهي عنه فالربا أشد الوسائل أكلاً للأموال بالباطل وإن كان قد نزل بعده فهو يشملها فيما يشمل من ألوان أكل أموال الناس بالباطل واستثنى العمليات التجارية التي تتم عن تراض بين البائع والشاري إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم وهو استثناء منقطع تأويله ولكن إذا كانت تجارة عن تراض منكم فليست داخله في النص السابق ولكن مجيئها هكذا في السياق القرآني يوحى بنوع من الملازمة بينها وبين صور التعامل الأخرى التي توصف بأنها أكل لأموال الناس بالباطل وندرك هذه الملازمة إذا استصحبنا ما ورد في آيات النهي عن الربا في سورة البقرة من قول المرابين في وجه تحريم الربا إنما البيع مثل الربا ورد الله عليهم في الآية نفسها وأحل الله البيع وحرم الربا فقد كان المرابون يغالطون وهم يدافعون عن نظامهم الاقتصادي الملعون فيقولون إن البيع وهو التجارة تنشأ عنها زيادة في الأموال وريح فهو من مثل الربا فلا معنى لإحلال البيع وتحريم الربا والفرق بعيد بين طبيعة العمليات التجارية والعمليات الربوية أولاً وبين الخدمات التي تؤديها التجارة للصناعة وللجماهير ; والبلاء الذي يصبه الربا على التجارة وعلى الجماهير فالتجارة وسيط نافع بين الصناعة والمستهلك ; تقوم بترويج البضاعة وتسويقها ;

ومن ثم تحسينها وتيسير الحصول عليها معًا وهي خدمة للطرفين وانتفاع عن طريق هذه الخدمة انتفاع يعتمد كذلك على المهارة والجهد ; ويتعرض في الوقت ذاته للريح والخسارة والربا على الضد من هذا كله يثقل الصناعة بالفوائد الربوية التي تضاف إلى أصل التكاليف ويثقل التجارة والمستهلك بأداء هذه الفوائد التي يفرضها على الصناعة وهو في الوقت ذاته كما تجلى ذلك في النظام الرأسمالي عندما بلغ أوجه يوجه الصناعة والاستثمار كله وجهة لا مراعاة فيها لصالح الصناعة ولا لصالح الجماهير المستهلكة ; وإنما الهدف الأول فيها زيادة الربح للوفاء بفوائد القروض الصناعية ولو استهلكت الجماهير مواد الترف ولم تجد الضروريات ولو كان الاستثمار في أحط المشروعات المثيرة للغرائز المحطمة للكيان الإنساني وفوق كل شيء هذا الربح الدائم لرأس المال ; وعدم مشاركته في نوبات الخسارة كالتجارة وقلة اعتماده على الجهد البشري الذي يبذل حقيقة في التجارة إلى آخر قائمة الاتهام السوداء التي تحيط بعنق النظام الربوي ; وتقتضي الحكم عليه بالإعدام ; كما حكم عليه الإسلام بهذه الملابس بين الربا والتجارة هي التي لعلها جعلت هذا الاستدراك إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم يجيء عقب النهي عن أكل الأموال بالباطل وإن كان استثناء منقطعًا كما يقول النحويون ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا تعقيب يجيء بعد النهي عن أكل الأموال بالباطل ; فيوحي بالآثار المدمرة التي ينشئها أكل الأموال بالباطل في حياة الجماعة ; إنها عملية قتل يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها حين ينهاهم عنها وإنها كذلك فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة بالربا والغش والقمار والاحتكار والتدليس والاختلاس والاحتيال والرشوة والسرقة وبيع ما ليس يباع كالعرض والذمة والضمير والخلق والدين مما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء ما تروج هذه الوسائل في جماعة إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها وتتردى في هاوية الدمار والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة المردية للنفوس ; وهذا طرف من إرادة التخفيف عنهم ; ومن تدارك ضعفهم الإنساني الذي يردبهم حين يتخلون عن توجيه الله إلى توجيه الذين يريدون لهم أن يتبعوا الشهوات ويلي ذلك التهديد بعذاب الآخرة تهديد الذين يأكلون الأموال بينهم بالباطل معتدين ظالمين تهديدهم بعذاب الآخرة ; بعد تحذيرهم من مقتلة الحياة الدنيا ودمارها الأكل فيهم والمأكل ; فالجماعة كلها متضامنة في التبعة ; ومتى تركت الأوضاع المعتدية الظالمة التي تؤكل فيها الأموال بالباطل تروج فيها فقد حقت عليها كلمة الله في الدنيا والآخرة ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصلبه نارا وكان ذلك على الله يسيرا وهكذا يأخذ المنهج الإسلامي على النفس حارسا حذرا يقظا على تلبية التوجيه وتنفيذ التشريع ; ويقوم من الجماعة بعضها على بعض رقيبًا لأنها كلها مسؤولة ; وكلها نصيبها المقتلة والدمار في الدنيا وكلها تحاسب في الآخرة على إهمالها وترك الأوضاع الباطلة تعيش فيها وكان ذلك على الله يسيرا فما يمنع منه مانع ولا يحول دونه حائل ولا يتخلف متى وجدت أسبابه عن الوقوع وفي مقابل اجتناب الكبائر ومنها أكل الأموال بينهم بالباطل يعدهم الله برحمته وغفرانه وتجاوزة عما عدا الكبائر ; مراعاة لضعفهم الذي يعلمه سبحانه وتيسيرًا عليهم وتطمينًا لقلوبهم ; ووعودًا لهم على التحايز عن النار ; باجتناب

الفواحش الكبار إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ألا ما أسمح هذا الدين وما أيسر منهجه على كل ما فيه من هتاف بالرفعة والسمو والطهر والنظافة والطاعة وعلى كل ما فيه من التكاليف والحدود والأوامر والنواهي التي يراد بها إنشاء نفوس زكية طاهرة ; وإنشاء مجتمع نظيف سليم إن هذا الهتاف وهذه التكاليف لا تغفل في الوقت ذاته ضعف الإنسان وقصوره ; ولا تتجاوز به حدود طاقته وتكوينه ; ولا تتجاهل فطرته وحدودها ودوافعها ; ولا تجهل كذلك دروب نفسه ومنحنياتها الكثيرة ومن ثم هذا التوازن بين التكاليف والطاقة وبين الأشواق والضرورات وبين الدوافع والكوابح وبين الأوامر والزواجر وبين الترغيب والترهيب وبين التهديد الرعيب بالعذاب عند المعصية والإطماع العميق في العفو والمغفرة إنه حسب هذا الدين من النفس البشرية أن يتم اتجاهها لله ; وأن تخلص حقًا في هذا الاتجاه وأن تبذل غاية الجهد في طاعته ورضاه فأما بعد ذلك فهناك رحمة الله هناك رحمة الله ترحم الضعف وتعطف على القصور ; وتقبل التوبة وتصفح عن التقصير ; وتكفر الذنب وتفتح الباب للعائدين في إيناس وفي تكريم وآية بذل الطاقة اجتناب كبائر ما نهى الله عنه أما مقارفة هذه الكبائر وهي واضحة ضخمة بارزة ; لا تتركبها النفس وهي جاهلة لها أو غير واعية فهي دليل على أن هذه النفس لم تبذل المحاولة المطلوبة ; ولم تستنفد الطاقة في المقاومة وحتى هذه فالتوبة منها في كل وقت مع الإخلاص مقبولة برحمة الله التي كتبها على نفسه وقد قال فيها والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون وعدهم من المتقين إنما الذي نحن بصدده هنا هو تكفير السيئات والذنوب مباشرة من الله متى اجتنبت الكبائر ; وهذا هو وعد الله هنا وبشراه للمؤمنين أما ما هي الكبائر فقد وردت أحاديث تعدد أنواعًا منها ولا تستقصيها وذلك بدليل احتواء كل حديث على مجموعة تزيد أو تنقص ; مما يدل على أن هذه الأحاديث كانت تعالج حالات واقعة ; فتذكر من الكبائر في كل حديث ما يناسب الملابس الحاضرة والمسلم لا يعسر عليه أن يعلم الكبائر من الذنوب وإن كانت تختلف عددًا ونوعًا بين بيئة وبيئة وبين جيل وجيل ونذكر هنا قصة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو المتحرج المتشدد الشديد الحساسية بالمعصية تبين مع ذلك كله كيف قوم الإسلام حسه المرهف وكيف جعل الميزان الحساس يعتدل في يده ويستقيم ; وهو يعالج أمور المجتمع وأمور النفوس قال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن ابن عون ; عن الحسن أن ناسًا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها لا يعمل بها ; فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك فقدم وقدموا معه فلقي عمر رضي الله عنه فقال متى قدمت فقال منذ كذا وكذا قال أبان قدمت قال فلا أدري كيف رد عليه فقال أمير المؤمنين إن ناسًا لقوني بمصر فقالوا إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها فأحبوا أن يلقوك في ذلك قال فاجمعهم لي قال فجمعتهم له قال أبو عون أظنه قال في بهو فأخذ أدناهم رجلاً ; فقال أنشدك الله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله قال نعم قال فهل أحصيته في نفسك فقال اللهم لا ولو قال نعم لخصمه قال فهل أحصيته في بصرك فهل أحصيته في لفظك هل أحصيته في أترك ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم فقال ثكلت عمر أمه أتكلفونه أن

يقيم الناس على كتاب الله قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات قال وتلا إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم الآية ثم قال هل علم أهل المدينة أو قال هل علم أحد بما قدمتم قالوا لا قال لو علموا لوعظت بكم فهكذا كان عمر المتحرج الشديد الحساسية يسوس القلوب والمجتمع ; وقد قوم القرآن حسه ; وأعطاه الميزان الدقيق وقد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ولن نكون غير ما علم ربه أن نكون إنما المعول عليه هو القصد والتصويب والمحاولة والرغبة في الوفاء بالالتزامات وبذل الجهد في هذا الوفاء إنه التوازن والجد واليسر والاعتدال

الدرس الخامس تنظيم الصلات بين الرجال والنساء

وفي سياق الحديث عن الأموال وتداولها في الجماعة تجيء تكملة فيما بين الرجال والنساء من ارتباطات ومعاملات وفيما كان من عقود الولاء وعلاقاتها بنظام التوريث العام الذي سبق تفصيله في أوائل السورة ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً والنص عام في النهي عن تمني ما فضل الله بعض المؤمنين على بعض من أي أنواع التفضيل في الوظيفة والمكانة وفي الاستعدادات والمواهب وفي المال والتمتع وفي كل ما تتفاوت فيه الأنصبة في هذه الحياة والتوجه بالطلب إلى الله وسؤاله من فضله مباشرة ; بدلا من إضاعة النفس حسرات في التطلع إلى التفاوت ; وبدلاً من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع من حسد وحقن ; ومن حنق كذلك ونقمة أو من شعور بالضياع والحرمان والتهاوي والتهافت أمام هذا الشعور وما قد ينشأ عن هذا كله من سوء ظن بالله ; وسوء ظن بعدالة التوزيع حيث تكون القاصمة التي تذهب بطمأنينة النفس وتورث القلق والنكد ; وتستهلك الطاقة في وجدانات خبيثة وفي اتجاهات كذلك خبيثة بينما التوجه مباشرة إلى فضل الله هو ابتداء التوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء الذي لا ينقص ما عنده بما أعطي ولا يضيق بالسائلين المتزاحمين على الأبواب وهو بعد ذلك موئل الطمأنينة والرجاء ; ومبعث الإيجابية في تلمس الأسباب بدل بذل الجهد في التحرق والغيط أو التهاوي والانحلال النص عام في هذا التوجيه العام ولكن موضعه هنا من السياق وبعض الروايات عن سبب النزول قد تخصص من هذا المعنى الشامل تفاوتاً معيناً وتفضيلاً معيناً هو الذي نزل هذا النص يعالجه هو التفاضل في أنصبة الرجال وأنصبة النساء كما هو واضح من سياق الآية في عمومها بعد ذلك وهذا الجانب على أهميته الكبرى في تنظيم العلاقة بين شطري النفس البشرية وإقامتها على الرضا وعلى التكامل ; وإشاعة هذا الرضا من ثم في البيوت وفي المجتمع المسلم كله ; إلى جانب إيضاح الوظائف المتنوعة فيه بين الجنسين والمهام هذا الجانب على أهميته هذه لا ينفي عموم النص مع خصوص السبب ولهذا روت التفاسير الماثورة هذا المعنى وذلك قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبي نجيح عن مجاهد قال قالت أم

سلمة يا رسول الله تغزو الرجال ولا تغزو ولنا نصف الميراث فأنزل الله ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث الثوري عن أبي نجیح عن مجاهد قال قالت أم سلمة يا رسول الله لا نقاتل فنستشهد ولا نقطع الميراث فنزلت الآية ثم أنزل الله أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى الآية وقال السدي في الآية إن رجالاً قالوا إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهمان وقالت النساء إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء فإنا لا نستطيع أن نقاتل ولو كتب علينا القتال لقاتلنا فأبى الله ذلك ولكن قال لهم سلوني من فضلي قال ليس بعرض الدنيا وروى مثل ذلك عن قتادة كذلك وردت روايات أخرى بإطلاق معنى الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال ولا يتمنى الرجل فيقول ليت لي مال فلان وأهله فهى الله عن ذلك ولكن يسأل من فضله وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا ونجد في الأقوال الأولى ظلالاً من روايب الجاهلية في تصور ما بين الرجال والنساء من روابط ; كما نجد روايب للتنافس بين الرجال والنساء لعلها قد أثارته تلك الحريات والحقوق الجديدة التي علمها الإسلام للمرأة تمثيلاً مع نظريته الكلية في تكريم الإنسان بجنسيه وفي إنصاف كل جنس فيه وكل طبقة وكل أحد إنصافه حتى من نفسه التي بين جنبيه ولكن الإسلام إنما كان يستهدف من هذا كله تحقيق منهجه المتكامل بكل حذافيره لا لحساب الرجال ولا لحساب النساء ولكن لحساب الإنسان ولحساب المجتمع المسلم ولحساب الخلق والصلاح والخير في إطلاقه وعمومه وحساب العدل المطلق المتكامل الجوانب والأسباب إن المنهج الإسلامي يتبع الفطرة في تقسيم الوظائف ; وتقسيم الأنصبة بين الرجال والنساء والفطرة ابتداء جعلت الرجل رجلاً والمرأة امرأة ; وأودعت كلاً منهما خصائصه المميزة ; لتنوط بكل منهما وظائف معينة لا لحسابه الخاص ولا لحساب جنس منهما بذاته ولكن لحساب هذه الحياة الإنسانية التي تقوم وتنظم وتستوفي خصائصها وتحقق غايتها من الخلافة في الأرض وعبادة الله بهذه الخلافة عن طريق هذا التنوع بين الجنسين والتنوع في الخصائص والتنوع في الوظائف وعن طريق تنوع الخصائص وتنوع الوظائف ينشأ تنوع التكاليف وتنوع الأنصبة وتنوع المراكز لحساب تلك الشركة الكبرى والمؤسسة العظمى المسماة بالحياة وحين يدرس المنهج الإسلامي كله ابتداء ثم يدرس الجانب الخاص منه بالارتباطات بين شطري النفس الواحدة لا يبقى مجال لمثل ذلك الجدل القديم الذي ترويه هذه الروايات ولا كذلك للجدل الحديث الذي يملأ حياة الفارغين والفارغات في هذه الأيام ويطغى أحياناً على الجادين والجادات بحكم الضجيج العام إنه عبث تصوير الموقف كما لو كان معركة حادة بين الجنسين تسجل فيه المواقف والانتصارات ولا يرتفع على هذا العبث محاولة بعض الكتاب الجادين تنقص المرأة وثليها وإصاق كل شائنة بها سواء كان ذلك باسم الإسلام أو باسم البحث والتحليل فالمسألة ليست معركة على الإطلاق إنما هي تنوع وتوزيع وتكامل وعدل بعد ذلك كامل في منهج الله يجوز أن تكون هناك معركة في المجتمعات الجاهلية ; التي تنشأ عن أنظمتها من تلقاء نفسها ; وفق هواها ومصالحها الظاهرة القريبة أو مصالح طبقات غالبية فيها أوبيوت أو أفراد ومن ثم تنتقص من حقوق المرأة لأسباب من

الجهالة بالإنسان كله وبوظيفة الجنسين في الحياة أو لأسباب من المصالح الاقتصادية في حرمان المرأة العاملة من مثل أجر الرجل العامل في نفس مهنتها أو في توزيع الميراث أو حقوق التصرف في المال كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية الحديثة فأما في المنهج الإسلامي فلا لا ظل للمعركة ولا معنى للتنافس على أعراض الدنيا ولا طعم للحملة على المرأة أو الحملة على الرجل ; ومحاولة النيل من أحدهما وثلبه وتتبع نقائصه ولا مكان كذلك للظن بأن هذا التنوع في التكوين والخصائص لا مقابل له من التنوع في التكليف والوظائف ولا آثار له في التنوع في الاختصاصات والمراكز فكل ذلك عبث من ناحية وسوء قهم للمنهج الإسلامي ولحقيقة وظيفة الجنسين من ناحية وننظر في أمر الجهاد والاستشهاد ونصيب المرأة منه ومن ثوابه وهو ما كان يشغل بال الصالحات من النساء في الجيل الصالح الذي يتجه بكليته إلى الآخرة ; وهو يقوم بشئون هذه الدنيا وفي أمر الإرث ونصيب الذكر والأنثى منه وقد كان يشغل بعض الرجال والنساء قديمًا وما يزال هو وأمثاله يشغل رجالا ونساء في هذه الأيام إن الله لم يكتب على المرأة الجهاد ولم يحرمه عليها ; ولم يمنعها منه حين تكون هناك حاجة إليها لا يسدها الرجال وقد شهدت المغازي الإسلامية أحادًا من النساء مقاتلات لا مواسيات ولا حاملات أزواد وكان ذلك على قلة وندرة بحسب الحاجة والضرورة ; ولم يكن هو القاعدة وعلى أية حال فإن الله لم يكتب على المرأة الجهاد كما كتبه على الرجال إن الجهاد لم يكتب على المرأة لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون وهي مهياة لميلاد الرجال بكل تكوينها العضوي والنفسي ; ومهياة لإعدادهم للجهاد وللحياة سواء وهي في هذا الحقل أقدر وأنفع هي أقدر لأن كل خلية في تكوينها معدة من الناحية العضوية والناحية النفسية لهذا العمل ; وليست المسألة في هذا مسألة التكوين العضوي الظاهر ; بل هي وعلى وجه التحديد كل خلية منذ تلقيح البويضة وتقرير أن تكون أنثى أو ذكرًا من لدن الخالق سبحانه ثم يلي ذلك تلك الظواهر العضوية والظواهر النفسية الكبرى وهي أنفع بالنظر الواسع إلى مصلحة الأمة على المدى الطويل فالجهد حين تحصد الرجال وتستبقي الإناث ; تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ والأمر ليس كذلك حين تحصد النساء والرجال أو حتى حين تحصد النساء وتستبقي الرجال فرجل واحد في النظام الإسلامي وعند الحاجة إلى استخدام كل رخصه وإمكاناته يمكن أن يجعل نساء أربعًا ينتجن ويملأن الفراغ الذي تتركه المقتلة بعد فترة من الزمان ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد لتعويض ما وقع في المجتمع من اختلال وليس ذلك إلا بابًا واحدًا من أبواب الحكمة الإلهية في إعفاء المرأة من فريضة الجهاد ووراءه أبواب شتى في أخلاق المجتمع وطبيعة تكوينه واستبقاء الخصائص الأساسية لكلا الجنسين لا يتسع لها المجال هنا لأنها تحتاج إلى بحث خاص وأما الأجر والثواب فقد طمأن الله الرجال والنساء عليه فحسب كل إنسان أن يحسن فيما وكل إليه ليلبغ مرتبة الإحسان عند الله على الإطلاق والأمر في الميراث كذلك ففي الوهلة الأولى يبدو أن هناك إثارة للرجل في قاعدة فللذكر مثل حظ الأنثيين ولكن هذه النظرة السطحية لا تفتأ أن تتكشف عن وحدة متكاملة في اوضاع الرجل والمرأة وتكاليهما فالغنم بالغرم قاعدة ثابتة متكاملة في المنهج الإسلامي فالرجل يؤدي للمرأة صداقها ابتداء ولا تؤدي له صداقًا

والرجل ينفق عليها وعلى أولادها منه وهي معفاة من هذا التكليف ولو كان لها مال خاص وأقل ما يصيب الرجل من هذا التكليف أن يحبس فيه إذا ماطل والرجل عليه في الديات والأرش التعويض عن الجراحات متكافلا مع الأسرة والمرأة منها معفاة والرجل عليه في النفقة على المعسرين والعاجزين والعواجز عن الكسب في الأسرة الأقرب فالأقرب والمرأة معفاة من فريضة التكافل العائلي العام حتى أجر رضاع طفلها من الرجل وحضانتها عند افتراقهما في المعيشة أو عند الطلاق يتحملها الرجل ويؤديها لها كنفقتها هي سواء بسواء فهو نظام متكامل توزيع التبعات فيه هو الذي يحدد توزيع الميراث ونصيب الرجل من التبعات أثقل من نصيبه في الميراث ومنظور في هذا إلى طبيعته وقدرته على الكسب ; وإلى توفير الراحة والطمأنينة الكاملة للمرأة لتقوم على حراسة الرصيد البشري الثمين ; الذي لا يقوم بمال ولا يعد له إنتاج أية سلعة أو أية خدمة أخرى للصالح العام وهكذا نجد معالم التوازن الشامل والتقدير الدقيق في المنهج الإسلامي الحكيم الذي شرعه الحكيم العليم ونسجل هنا ما منحه الإسلام للمرأة في هذا النص من حق الملكية الفردية للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وهو الحق الذي كانت الجاهلية العربية كغيرها من الجاهليات القديمة تحيف عليه ; ولا تعترف به للمرأة إلا في حالات نادرة ولا تفتأ تحتال للاعتداء عليه إذ كانت المرأة ذاتها مما يستولى عليه بالوراثة كالمتاع وهو الحق الذي ظلت الجاهليات الحديثة التي تزعم أنها منحت المرأة من الحقوق والاحترام ما لم يمنح لها منهج آخر تتحيفه فبعضها يجعل الميراث لأكبر وارث من الذكور وبعضها يجعل إذن الولي ضروريًا لتوقيع أي تعاقد للمرأة بشأن المال ; ويجعل إذن الزواج ضروريًا لكل تصرف مالي من الزوجة في مالها الخاص وذلك بعد ثوارت المرأة وجرعاتها الكثيرة ; وما نشأ عنها من فساد في نظام المرأة كله وفي نظام الأسرة وفي الجو الأخلاقي العام فأما الإسلام فقد منحها هذا الحق ابتداء ; وبدون طلب منها وبدون ثورة وبدون جمعيات نسوية وبدون عضوية برلمان منحها هذا الحق تمشيًا مع نظرتة العامة إلى تكريم الإنسان جملة ; وإلى تكريم شقي النفس الواحدة ; وإلى إقامة نظامه الاجتماعي كله على أساس الأسرة ; وإلى حيابة جو الأسرة بالود والمحبة والضمانات لكل فرد فيها على السواء ومن هنا كانت المساواة في حق التملك وحق الكسب بين الرجال والنساء من ناحية المبدأ العام وقد أورد الدكتور عبد الواحد وافي في كتاب حقوق الإنسان لفنة دقيقة إلى وضع المرأة في الإسلام ووضعها في الدول الغربية جاء فيه وقد سوى الإسلام كذلك بين الرجل والمرأة أمام القانون وفي جميع الحقوق المدنية سواء في ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة فالزواج في الإسلام يختلف عن الزواج في معظم أمم الغرب المسيحي في أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية ولا أهليتها في التعاقد ولا حقها في التملك بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها وبكامل حقوقها المدنية ; وبأهليتها في تحميل الالتزامات وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية ; وما إلى ذلك ; ومحتفظة بحقها في التملك تملكًا مستقلًا عن غيرها فللمرأة المتزوجة في الإسلام شخصيتها المدنية الكاملة وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئًا من مالها قل ذلك أو كثر قال تعالى وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم

إحداهن قنطارًا فلا تأخذونه منه شيئًا أتأخذونه بهتاتًا وإثمًا مبيئًا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا وقال ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا وإذا كان لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئًا مما سبق أن آتاه لزوجته فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئًا من ملكها الأصيل إلا أن يكون هذا أو ذاك برضاها وعن طيب نفس منها وفي هذا يقول الله تعالى وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئًا ولا يحل للزوج كذلك أن يتصرف في شيء من أموالها إلا إذا أذنت له بذلك أو وكلته في إجراء عقد بالنيابة عنها وفي هذه الحالة يجوز أن تلغي وكالته وتوكل غيره إذا شاءت وهذه المنزلة من المساواة لم يصل إلى مثلها بعد أحدث القوانين في أرقى الأمم الديمقراطية الحديثة فحالة المرأة في فرنسا كانت إلى عهد قريب بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شيء بحالة الرق المدني فقد نزع منها القانون صفة الأهلية في كثير من الشئون المدنية كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدني الفرنسي إذ تقرر أن المرأة المتزوجة حتى ولو كان زوجها قائمًا على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تمتلك بعوض أو بغير عوض بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية وأورد نصها الفرنسي ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيرًا من آثارها لا يزال ملازمًا لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر وتوكيدًا لهذا الرق المفروض على المرأة الغربية تقرر قوانين الأمم الغربية ويقضي عرفها أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان ; بل تحمل اسم زوجها وأسرته ; فتدعى مدام فلان أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته بدلًا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها وفقدان اسم المرأة وحملها لاسم زوجها كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة واندماجها في شخصية الزوج ومن الغريب أن الكثير من سيداتنا يحاولن أن يتشبهن بالغربيات حتى في هذا النظام الجائر ويرتضين لأنفسهن هذه المنزلة الوضيعة ; فتسمى الواحدة منهن نفسها باسم زوجها ; أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته بدلًا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها كما هو النظام الإسلامي وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه المحاكاة العمياء وأغرب من هذا كله أن اللاتي يحاكين هذه المحاكاة هن المطالبات بحقوق النساء ومساواتهن بالرجال ; ولا يدرين أنهن بتصرفهن هذا يفرطن في أهم حق منحه الإسلام لهن ; ورفع به شأنهن وسواهن فيه بالرجال ص من هذا الجزء والآن نجيب إلى النص الأخير في هذه الفقرة ; وهو ينظم التصرف في عقود الولاء التي سبقت أحكام الميراث هذه الأحكام التي حصرت الميراث في القرابة بينما عقود الولاء كانت تجعلها كذلك في غير القرابة على ما سيأتي بيانه ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ; والذين عقدت أيمانكم فأتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدًا بعد أن ذكر أن للرجال نصيبًا مما اكتسبوا وللنساء نصيبًا مما اكتسبن وبين فيما سلف أنصبة الذكور والإناث في الميراث ذكر أن الله جعل لكل موالى من قرابته يرثونه يرثونه مما آل إليه من الوالدين والأقربين فالمال يظل يتداول بهذا الإرث جيلا بعد جيل يرث الوارثون ثم يضمون إلى ميراثهم ما يكتسبون ; ثم يرثهم من يلونهم من

الأقربين وهي صورة تمثل دورة المال في النظام الإسلامي ; وأنها لا تقف عند جيل ; ولا تتركز في بيت ولا فرد إنما هو التوارث المستمر والتداول المستمر وحركة التوزيع الدائبة ; وما يتبعها من تعديل في المالكين وتعديل في المقادير بين الحين والحين ثم عطف على العقود التي أقرتها الشريعة الإسلامية والتي تجعل الإرث يذهب أحيانًا إلى غير الأقرباء وهي عقود الموالاة وقد عرف المجتمع الإسلامي أنواعًا من هذه العقود الأول عقد ولاء العتق وهو النظام الذي أصبح بمقتضاه الرقيق بعد عتقه بمنزلة العضو في أسرة مولاه مولى العتق فيدفع عنه المولى الدية إذا ارتكب جناية توجب الدية كما يفعل ذلك حيال أقربائه من النسب ويرثه إذا مات ولم يترك عصبة والثاني عقد الموالاة وهو النظام الذي يبيح لغير العربي إذا لم يكن له وارث من أقاربه أن يرتبط بعقد مع عربي هو مولى الموالاة فيصبح بمنزلة عضو في أسرة مولاه يدفع عنه المولى الدية إذا ارتكب جناية توجب الدية ويرثه إذا مات والنوع الثالث هو الذي عقده النبي ص أول العهد بالمدينة بين المهاجرين والأنصار فكان المهاجر يرث الأنصاري مع أهله كواحد منهم أو دون أهله إن كانوا مشركين فصلت بينهم وبينه العقيدة والنوع الرابع كان في الجاهلية يعاقد الرجل الرجل ويقول وترثني وأرثك وقد جعل الإسلام يصفى هذه العقود ; وبخاصة النوعين الثالث والرابع بتقرير أن الميراث سببه القرابة والقرابة وحدها ولكنه لم يبطل العقود التي سبق عقدها فأمضاها على ألا يجدد سواها وقال الله سبحانه والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبتهم وشدد في هذا وأشهد الله على العقد وعلى التصرف فيه إن الله كان على كل شيء شهيدًا وقال رسول الله ص ﷺ حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة < رواه أحمد ومسلم وقد سار الإسلام في تصفية هذه العقود سيرته في كل ما يتعلق بالأنظمة المالية في علاجه لها بدون أثر رجعي فهكذا صنع في الربا حين أبطله أبطله منذ نزول النص وترك لهم ما سلف منه ; ولم يأمر برد الفوائد الربوية وإن كان لم يصح العقود السابقة على النص ما لم يكن قد تم قبض تلك الفوائد فأما هنا فقد احترمت تلك العقود ; على ألا ينشأ منها جديد لما يتعلق بها فوق الجانب المالي من ارتباطات أخذت طابع العضوية العائلية بتشابكاتها الكثيرة المعقدة فترك هذه العقود القائمة تنفذ ; وشدد في الوفاء بها ; وقطع الطريق على الجديد منها ; قبل أن تترتب عليه أية آثار تحتاج إلى علاج وفي هذا التصرف يبدو التيسير كما يبدو العمق والإحاطة والحكمة والشمول في علاج الأمور في المجتمع حيث كان الإسلام يصوغ ملامح المجتمع المسلم يومًا بعد يوم ; ويمحو ويلغي ملامح الجاهلية في كل توجيه وكل تشريع

فهرس الوحدة

الدرس السادس تنظيم مؤسسة الأسرة

والموضوع الأخير في هذا الدرس هو تنظيم مؤسسة الأسرة ; وضبط الأمور فيها ; وتوزيع الاختصاصات وتحديد الواجبات ; وبيان الإجراءات التي تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة ; والمحافظه عليها من زعاع الأهواء والخلافات ; واتقاء عناصر التهديم فيها والتدمير جهد المستطاع الرجال

قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ولا بد قبل الدخول في تفسير هذه النصوص القرآنية وبيان أهدافها النفسية والاجتماعية من بيان مجمل لنظرة الإسلام إلى مؤسسة الأسرة ومنهجه في بنائها والمحافظة عليها وأهدافه منها بيان مجمل بقدر الإمكان إذ أن التفصيل فيه يحتاج إلى بحث مطول خاص إن الذي خلق هذا الإنسان جعل من فطرته الزوجية شأنه شأن كل شيء خلقه في هذا الوجود ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ثم شاء أن يجعل الزوجين في الإنسان شطرين للنفس الواحدة يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وأراد بالتقاء شطري النفس الواحدة بعد ذلك فيما أراد أن يكون هذا اللقاء سكناً للنفس وهدوءاً للعصب وطمأنينة للروح وراحة للحسد ثم سترًا وإحصاءً وصيانة ثم مزرعة للنسل وامتداد الحياة مع ترقيها المستمر في رعاية المحض الساكن الهاديء المطمئن المستور المصون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً هن لباس لكم وأنتم لباس لهن نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نازًا وقودها الناس والحجارة والذين آمنوا وأتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ومن تساوي شطري النفس الواحدة في موقفهما من الله ومن تكريمه للإنسان كان ذلك التكريم للمرأة وتلك المساواة في حقوق الأجر والثواب عند الله وفي حقوق التملك والإرث وفي استقلال الشخصية المدنية التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة من هذا الدرس ومن أهمية التقاء شطري النفس الواحدة لإنشاء مؤسسة الأسرة ومن ضخامة تبعه هذه المؤسسة أولاً في توفير السكن والطمأنينة والستر والإحصان للنفس بشطريها وثانيًا في إمداد المجتمع الإنساني بعوامل الامتداد والترقي كانت تلك التنظيمات الدقيقة المحكمة التي تتناول كل جزئية من شئون المؤسسة وقد احتوت هذه السورة جانبًا من هذه التنظيمات هو الذي استعرضناه في الصفحات السابقة من أول هذا الجزء ; تكملة لما استعرضناه منها في الجزء الرابع واحتوت سورة البقرة جانبًا آخر هو الذي استعرضناه في الجزء الثاني واحتوت سور أخرى من القرآن وعلى الأخص سورة النور في الجزء الثامن عشر وسورة الأحزاب في الجزئين الحادي والعشرين والثاني والعشرين وسورة الطلاق وسورة التحريم في الجزء الثامن والعشرين ومواضع أخرى متفرقة في السور جوانب أخرى تؤلف دستورًا كاملًا شاملًا دقيقًا لنظام هذه المؤسسة الإنسانية ; وتدل بكثرتها وتنوعها ودقتها وشمولها على مدى الأهمية التي يعقدها المنهج الإسلامي للحياة الإنسانية على مؤسسة الأسرة الخطيرة ونرجو أن يكون قارىء هذه الصفحة على ذكر مما سبق في صفحات هذا الجزء نفسه ; عن طفولة الطفل الإنساني وطولها وحاجته في خلالها إلى بيئة تحميه أولاً حتى يستطيع أن يكسب رزقه للمعاش ; وأهم من هذا أن تؤهله بالتربية إلى وظيفته الاجتماعية ; والنهوض بنصيبه في ترقية المجتمع

الإنساني وتركه خيرًا مما تسلمه حين جاء إليه فهذا الكلام ذو أهمية خاصة في بيان قيمة مؤسسة الأسرة ; ونظرة المنهج الإسلامي إلى وظائفها والغاية منها ; واهتمامه بصيانتها وحياطتها من كل عوامل التدمير من قريب ومن بعيد وفي ظل هذه الإشارات المجملية إلى طبيعة نظرة الإسلام للأسرة وأهميتها ; ومدى حرصه على توفير ضمانات البقاء والاستقرار والهدوء في جوها إلى جانب ما أوردناه من تكريم هذا المنهج للمرأة ; ومنحها استقلال الشخصية واحترامها ; والحقوق التي أنشأها لها إنشاء لا محابة لذاتها ولكن لتحقيق أهدافه الكبرى من تكريم الإنسان كله ورفع الحياة الإنسانية نستطيع أن نتحدث عن النص الأخير في هذا الدرس الذي قدمنا للحديث عنه بهذا الإيضاح إن هذا النص في سبيل تنظيم المؤسسة الزوجية وتوضيح الاختصاصات التنظيمية فيها لمنع الاحتكاك فيها بين أفرادها بردهم جميعًا إلى حكم الله لا حكم الهوى والانفعالات والشخصيات يحدد أن القوامة في هذه المؤسسة للرجل ; ويذكر من أسباب هذه القوامة تفضيل الله للرجل بمقومات القوامة وما تتطلبه من خصائص ودرية و تكليف الرجل الإنفاق على المؤسسة وبناء على إعطاء القوامة للرجل يحدد كذلك اختصاصات هذه القوامة في صيانة المؤسسة من التفسخ ; وحمايتها من النزوات العارضة ; وطريقة علاج هذه النزوات حين تعرض في حدود مرسومة وأخيرًا يبين الإجراءات الخارجية التي تتخذ عندما تفشل الاجراءات الداخلية ويلوح شبح الخطر على المؤسسة التي لا تضم شطري النفس الواحدة فحسب ولكن تضم الفراخ الخضر الناشئة في المحضن المعرضة للوبار والدمار فلننظر فيما وراء كل إجراء من هذه الإجراءات من ضرورة ومن حكمة بقدر ما نستطيع الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم إن الأسرة كما قلنا هي المؤسسة الأولى في الحياة الإنسانية الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التي تؤثر في كل مراحل الطريق والأولى من ناحية الأهمية لأنها تزاوّل إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني وهو أكرم عناصر هذا الكون في التصور الإسلامي وإذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل شأنًا والأرخص سعرًا كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية وما إليها لا يوكل أمرها عادة إلا لأكفأ المرشحين لها ; ممن تخصصوا في هذا الفرع علميًا ودربوا عليه عمليًا فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة إذا كان هذا هو الشأن في المؤسسات الأقل شأنًا والأرخص سعرًا فأولى أن تتبع هذه القاعدة في مؤسسة الأسرة التي تنشئ أئمن عناصر الكون العنصر الإنساني والمنهج الرباني يراعي هذا ويراعي به الفطرة والاستعدادات الموهوبة لشطري النفس لأداء الوظائف المنوطة بكل منهما وفق هذه الاستعدادات كما يراعي به العدالة في توزيع الأعباء على شطري النفس الواحدة والعدالة في اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيأ لها المعان عليها من فطرته واستعداداته المتميزه المتفردة والمسلم به ابتداءً أن الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله وأن الله سبحانه لا يريد أن يظلم أحدًا من خلقه وهو يهيئه ويعدده لوظيفة خاصة ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإحسان هذه الوظيفة وقد خلق الله الناس ذكرًا وأنثى زوجين على أساس القاعدة الكلية في بناء هذا الكون وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل وهي وظائف ضخمة أولاً وخطيرة ثانيًا وليست هينة ولا يسيرة بحيث تؤدي بدون إعداد عضوي

ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأثنى فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشطر الثاني الرجل توفير الحاجات الضرورية وتوفير الحماية كذلك للأثنى ; كي تتفرغ لوظيفتها الخطيرة ; ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في أن واحد وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينه على أداء وظائفه هذه وأن تمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك وكان هذا فعلاً ولا يظلم ربك أحداً ومن ثم زودت المرأة فيما زودت به من الخصائص بالرقه والعطف وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة بغير وعي ولا سابق تفكير لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها حتى في الفرد الواحد لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطنه بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية لتسهل تليتها فوراً وفيما يشبه أن يكون قسراً ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ; ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك لتكوين الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى مهما يكن فيها من المشقة والتضحية صنع الله الذي أتقن كل شيء وهذه الخصائص ليست سطحية بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة بل يقول كبار العلماء المختصين إنها غائرة في تكوين كل خلية لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولى التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين بكل خصائصه الأساسية وكذلك زود الرجل فيما زود به من الخصائص بالخشومنة والصلابة وبطء الانفعال والاستجابة ; واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال إلى تدبير المعاش إلى سائر تكاليفه في الحياة لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدام ; وإعمال الفكر والبطء في الاستجابة بوجه عام وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة وأفضل في مجالها كما أن تكليفه بالإنفاق وهو فرع من توزيع الاختصاصات يجعله بدوره أولى بالقوامة لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل في هذه القوامة ; والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني وهو يقرر قوامة الرجال على النساء في المجتمع الإسلامي قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية ; وتكليف كل شطر في هذا التوزيع بالجانب الميسر له والذي هو معان عليه من الفطرة وأفضليته في مكانها في الاستعداد للقوامة والدربة عليها والنهوض بها بأسبابها لأن المؤسسة لا تسير بلا قوامة كسائر المؤسسات الأقل شأنًا والأرخص سعراً ولأن أحد شطري النفس البشرية مهياً لها معان عليها مكلف تكاليفها وأحد الشطرين غير مهياً لها ولا معان عليها ومن الظلم أن يحملها ويحمل تكاليفها إلى جانب أعبائه الأخرى وإذا هو هيء لها بالاستعدادات الكامنة ودرّب عليها بالتدريب العلمي والعملية فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرى وظيفه الأمومة لأن لها هي الأخرى مقتضياتها واستعداداتها وفي مقدمتها سرعة الانفعال وقرب الاستجابة فوق الاستعدادات الغائرة في التكوين العضوي والعصبي ; وآثارها في السلوك والاستجابة إنها مسائل

خطيرة أخطر من أن تتحكم فيها أهواء البشر وأخطر من أن تترك لهم يخطون فيها خبط عشواء وحين تركت لهم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة هددت البشرية تهديدًا خطيرًا في وجودها ذاته ; وفي بقاء الخصائص الإنسانية التي تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز ولعل من الدلائل التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها ; ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها لعل من هذه الدلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبط وفساد ومن تدهور وانهار ; ومن تهديد بالدمار والبيوار في كل مرة خولفت فيها هذه القاعدة فاهتزت سلطة القوامة في الأسرة أو اختلطت معالمها أو شذت عن قاعدتها الفطرية الأصلية لعل من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلى قيام هذه القوامة على أصلها الفطري في الأسرة وشعورها بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة ; عندما تعيش مع رجل لا يزاوول مهام القوامة ; وتنقص صفاتها اللازمة ; فيكل إليها هي القوامة وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتى المنحرفات الخابطات في الظلام ولعل من هذه الدلائل أن الأطفال الذين ينشأون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأب إما لأنه ضعيف الشخصية بحيث تبرز عليه شخصية الأم وتسيطر وإما لأنه مفقود لوفاته أو لعدم وجود أب شرعي قلما ينشأون أسوياء وقل ألا ينحرفوا إلى شذوذ ما في تكوينهم العصبي والنفسي وفي سلوكهم العملي والخلقي فهذه كلها بعض الدلائل التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها ولا نستطيع أن نستطرد أكثر من هذا في سياق الضلال عن قوامة الرجال ومقوماتها ومبرراتها وضرورياتها وفطريتها كذلك ولكن ينبغي أن نقول إن هذه القوامة ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة في البيت ولا في المجتمع الإنساني ; ولا إلغاء وضعها المدني كما بينا ذلك من قبل وإنما هي وظيفة داخل كيان الأسرة لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة وصيانتها وحمايتها ووجود القيم في مؤسسة ما لا يلغي وجود ولا شخصية ولا حقوق الشركاء فيها والعاملين في وظائفها فقد حدد الإسلام في مواضع أخرى صفة قوامة الرجل وما يصاحبها من عطف ورعاية وصيانة وحماية وتكاليف في نفسه وماله وأداب في سلوكه مع زوجه وغياله وبعد بيان واجب الرجل وحقه والتزاماته وتكاليفه في القوامة يجيء بيان طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها وتصرفها الإيماني في محيط الأسرة فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله فمن طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها أن تكون قانتة مطيعة والقنوت الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة لا عن قسر وإرغام وتغلت ومعاطلة ومن ثم قال قانتات ولم يقل طائعات لأن مدلول اللفظ الأول نفسي وظلاله رحية ندية وهذا هو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة في المحض الذي يرعى الناشئة ويطبعمهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها كذلك أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته وبالأولى في حضوره فلا تبيح من نفسها في نظرة أو نبرة بله العرض والحرمة مالا يباح إلا له هو بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة وما لا يباح لا تقرره هي ولا يقرره هو إنما يقرره الله سبحانه بما حفظ الله فليس الأمر أمر رضاء

الزوج عن ان تبيح زوجته من نفسها في غيبته أو في حضوره ما لا يغضب
هو له أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع إذا انحرف المجتمع عن منهج الله إن
هنالك حكمًا واحدًا في حدود هذا الحفظ ; فعليها أن تحفظ نفسها بما حفظ
الله والتعبير القرآني لا يقول هذا بصيغة الأمر بل بما هو أعمق وأشد توكيدًا
من الأمر إنه يقول إن هذا الحفظ بما حفظ الله هو من طبيعة الصالحات
ومن مقتضى صلاحهن

وعندئذ تتهاوى كل أعذار المهزومين
والمهزومات من المسلمين والمسلمات أمام ضغط المجتمع المنحرف
وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب بما حفظ الله مع القنوت الطائع
الراضي الودود فأما غير الصالحات فهن الناشزات من الوقوف على النشرز
وهو المرتفع البارز من الأرض وهي صورة حسية للتعبير عن حالة نفسية
فالناشز تبرز وتستعلي بالعصيان والتمرد والمنهج الإسلامي لا ينتظر حتى
يقع الناشز بالفعل وتعلن راية العصيان ; وتسقط مهابة القوامة ; وتنقسم
المؤسسة إلى معسكرين فالعلاج حين ينتهي الأمر إلى هذا الوضع قلما
يجدي ولا بد من المبادرة في علاج مبادئ الناشز قبل استفحاله لأن ماله
إلى فساد في هذه المنظمة الخطيرة لا يستقر معه سكن ولا طمأنينة ولا
تصلح معه تربية ولا إعداد للناشئين في المحضن الخطير وماله بعد ذلك
إلى تصدع وانهار ودمار للمؤسسة كلها ; وتشرذم للناشئين فيها ; أو تربيتهم
بين عوامل هدامة مفضية إلى الأمراض النفسية والعصبية والبدنية وإلى
الشدوذ فالأمر إذن خطير ولا بد من المبادرة باتخاذ الإجراءات المتدرجة
في علاج علامات الناشوز منذ أن تلوح من بعيد وفي سبيل صيانة المؤسسة
من الفساد أو من الدمار أبيع للمسئول الأول عنها أن يزاول بعض أنواع
التأديب المصلحة في حالات كثيرة لا للانتقام ولا للإهانة ولا للتعذيب ولكن
للإصلاح ورأب الصدع في هذه المرحلة المبكرة من الناشوز واللاتي تخافون
نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا
تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليًا كبيرًا واستحضر ما سبق لنا بيانه من
تكريم الله للإنسان بشطريه ومن حقوق للمرأة نابعة من صفتها الإنسانية
ومن احتفاظ للمرأة المسلمة بشخصيتها المدنية بكامل حقوقها بالإضافة
إلى أن قوامة الرجل عليها لا تفقدها حقها في اختيار شريك حياتها ;
والتصرف في أمر نفسها والتصرف في أمر مالها إلى آخر هذه المقومات
البارزة في المنهج الإسلامي استحضر هذا الذي سبق كله ; واستحضر ما
قيل عن أهمية مؤسسة الأسرة كذلك يجعلنا نفهم بوضوح حين لا تنحرف
القلوب بالهوى والرءوس بالكبر لماذا شرعت هذه الإجراءات التأديبية أولاً
والصورة التي يجب أن تؤدي بها ثانيًا إنها شرعت كإجراء وقائي عند خوف
النشوز للمبادرة بإصلاح النفوس والاضواء لا لزيادة إفساد القلوب وملئها
بالبغض والحنيق أو بالمذلة والرضوخ الكظيم إنها أبدًا ليست معركة بين
الرجل والمرأة يراد لها بهذه الإجراءات تحطيم رأس المرأة حين تهم
بالنشوز ; وردها إلى السلسلة كالكلب المسجور إن هذا قطعًا ليس هو
الإسلام إنما هو تقاليد بيئية في بعض الأزمان نشأت مع هو ان الإنسان كله
لا هون شطر منه بعينه فأما حين يكون هو الإسلام فالأمر مختلف جدًا في
الشكل والصورة وفي الهدف والغاية واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن
هذا هو الإجراء الأول الموعظة وهذا هو أول واجبات القيم ورب الأسرة
عمل تهذيبي مطلوب منه في كل حالة يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم

وأهليكم نازًا وقودها الناس والحجارة ولكنه في هذه الحالة بالذات يتجه اتجاهًا معينًا لهدف معين هو علاج أعراض النشوز قبل أن تستفحل وتستعلن ولكن العظة قد لا تنفع لأن هناك هويًا غالبًا أو انفعالًا جامحًا أو استعلاء بجمال أو بمال أو بمركز عائلي أو بأي قيمة من القيم تنسي الزوجة أنها شريكة في مؤسسة وليست نذًا في صراع أو مجال افتخار هنا يجيء الإجراء الثاني حركة استعلاء نفسية من الرجل على كل ما تدل به المرأة من جمال وجاذبية أو قيم أخرى ترفع بها ذاتها عن ذاته أو عن مكان الشريك في مؤسسة عليها قوامه واهجروهن في المضاجع والمضجع موضع الإغراء والجادبية التي تبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانها فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعزز بها وكانت في الغالب أميل إلى التراجع والملاينة أمام هذا الصمود من رجلها وأمام بروز خاصية قوة الإرادة والشخصية فيه في أحراج مواضعها على أن هناك أدبًا معينًا في هذا الإجراء إجراء الهجر في المضاجع وهو ألا يكون هجرًا ظاهرًا في غير مكان خلوة الزوجين لا يكون هجرًا أمام الأطفال يورث نفوسهم شرًا وفسادًا ولا هجرًا أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها فتزداد نشوزًا فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة ولا إفساد الأطفال وكلا الهدفين يبدو أنه مقصود من هذا الإجراء ولكن هذه الخطوة قد لا تفلح كذلك فهل تترك المؤسسة تتحطم إن هناك إجراء ولو أنه أعنف ولكنه أهون وأصغر من تحطيم المؤسسة كلها بالنشوز واضربوهن واستصحاب المعاني السابقة كلها واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات كلها يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيبًا للانتقام والتشفي ويمنع أن يكون إهانة للاذلال والتحقير ويمنع أن يكون أيضًا للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاهم ويحدد أن يكون ضرب تأديب مصحوب بعاطفة المؤدب المربي كما يزاولة الأب مع أبنائه وكما يزاولة المربي مع تلميذه ومعروف بالضرورة أن هذه الإجراءات كلها لا موضع لها في حالة الوفاق بين الشريكين في المؤسسة الخطيرة وإنما هي لمواجهة خطر الفساد والتصددع فهي لا تكون إلا وهناك انحراف ما هو الذي تعالجه هذه الإجراءات وحين لا تجدي الموعظة ولا يجدي الهجر في المضاجع لا بد أن يكون هذا الانحراف من نوع آخر ومن مستوى آخر لا تجدي فيه الوسائل الأخرى وقد تجدي فيه هذه الوسيلة وشواهد الواقع والملاحظات النفسية على بعض أنواع الانحراف تقول إن هذه الوسيلة تكون أنسب الوسائل لإشباع انحراف نفسي معين وإصلاح سلوك صاحبه وإرضائه في الوقت ذاته على أنه من غير أن يكون هناك هذا الانحراف المرضي الذي يعينه علم النفس التحليلي بالاسم ; إذ نحن لا نأخذ تقريبات علم النفس مسلمات علمية فهو لم يصبح بعد علمًا بالمعنى العلمي كما يقول الدكتور الكسيس كاريل فربما كان من النساء من لا تحس قوة الرجل الذي تحب نفسها أن تجعله قيمًا وترضي به زوجًا إلا حين يقهرها عضليًا وليست هذه طبيعة كل امرأة ولكن هذا الصنف من النساء موجود وهو الذي قد يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة ليستقيم ويبقى على المؤسسة الخطيرة في سلم وطمأنينة وعلى أية حال فالذي يقرر هذه الإجراءات هو الذي خلق وهو أعلم بمن خلق وكل جدال بعد قول العليم الخبير مهاترة ; وكل تمرد على اختيار الخالق وعدم تسليم به مفض إلى الخروج من مجال الإيمان كله وهو سبحانه يقررها في جو وفي ملابس

تحدد صفتها وتحدد النية المصاحبة لها وتحدد الغاية من ورائها بحيث لا يحسب على منهج الله تلك المفهومات الخاطئة للناس في عهود الجاهلية ; حين يتحول الرجل جلاّدًا باسم الدين ويتحول المرأة رقيقًا باسم الدين أو حين يتحول الرجل امرأة ; ويتحول المرأة رجلا ; أو يتحول كلاهما إلى صنف ثالث مائع بين الرجل والمرأة باسم التطور في فهم الدين فهذه كلها أوضاع لا يصعب تمييزها عن الإسلام الصحيح ومقتضياته في نفوس المؤمنين وقد أوضحت هذه الإجراءات لمعالجة أعراض النشوز قبل استفحالها وأحيطت بالتحذيرات من سوء استعمالها فور تقريرها وإباحتها وتولى الرسول ص بسنته العملية في بيته مع أهله وتوجيهاته الكلامية علاج الغلو هنا وهناك وتصحيح المفهومات في أقوال كثيرة ورد في السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه قال > أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت < وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه قال النبي ص > لا تضربوا إماء الله < فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ص فقال ذئرت النساء على أزواجهن فرخص رسول الله ص في ضربهن فأطاف بال رسول الله ص نساء كثير يشتكين أزواجهن فقال رسول الله ص > لقد أطاف بال محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ليس أولئك بخياركم < وقال ص > لا يضرب أحدكم امرأته كالبعير يجلدها أول النهار ثم يضاجعها آخره < وقال > خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي < ومثل هذه النصوص والتوجيهات ; والملابس التي أحاطت بها ; ترسم صورة لصراع الرواسب الجاهلية مع توجيهات المنهج الإسلامي في المجتمع المسلم في هذا المجال وهي تشبه صورة الصراع بين هذه الرواسب وهذه التوجيهات في شتى مجالات الحياة الأخرى قبل أن تستقر الأوضاع الإسلامية الجديدة وتعمق جذورها الشعورية في أعماق الضمير المسلم في المجتمع الإسلامي وعلى أية حال فقد جعل لهذه الإجراءات حد تقف عنده متى تحققت الغاية عند مرحلة من مراحل هذه الإجراءات فلا تتجاوز إلى ما وراءها فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً فعند تحقق الغاية تقف الوسيلة مما يدل على أن الغاية غاية الطاعة هي المقصودة وهي طاعة الاستجابة لا طاعة الإرغام فهذه ليست طاعة تصلح لقيام مؤسسة الأسرة قاعدة الجماعة ويشير النص إلى أن المضي في هذه الإجراءات بعد تحقق الطاعة بغي وتحكم وتجاوز فلا تبغوا عليهن سبيلاً ثم يعقب على هذا النهي بالتذكير بالعلي الكبير كي تتطامن القلوب وتعنو الرؤوس وتتبخر مشاعر البغي والاستعلاء إن طافت ببعض النفوس على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب إن الله كان عليًا كبيرًا ذلك حين لا يستعلن النشوز وإنما تتقى بوادره فأما إذا كان قد استعلن فلا تتخذ تلك الإجراءات التي سلفت إذا لا قيمة لها إذن ولا ثمرة وإنما هي إذن صراع وحرب بين خصمين ليحطم أحدهما رأس الآخر وهذا ليس المقصود ولا المطلوب وكذلك إذا رئي أن استخدام هذه الإجراءات قد لا يجدي بل سيزيد الشقة بعدًا والنشوز استعلانًا ; ويمزق بقية الخيوط التي لا تزال مربوطة أو إذا أدى استخدام تلك الوسائل بالفعل إلى غير نتيجة في هذه الحالات كلها يشير المنهج الإسلامي الحكيم بإجراء أخير ; لإنقاذ المؤسسة العظيمة من الانهيار قبل أن ينفذ يديه منها ويدعها تنهار وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدًا إصلاحًا يوفق الله بينهما إن الله كان عليًا

خيرًا وهكذا لا يدعو المنهج الإسلامي إلى الاستسلام لبوادر النشور والكرهية ; ولا إلى المسارعة بفصم عقدة النكاح وتحطيم مؤسسة الأسرة على رؤوس من فيها من الكبار والصغار الذين لا ذنب لهم ولا يد ولا حيلة فمؤسسة الأسرة عزيزة على الإسلام ; بقدر خطورتها في بناء المجتمع وفي إمداده باللبات الجديدة اللازمة لنموه ورقية وامتداده إنه يلجأ إلي هذه الوسيلة الأخيرة عند خوف الشقاق فيبادر قبل وقوع الشقاق فعلا بيعت حكم من أهلها ترتضيه وحكم من أهله يرتضيه يجتمعان في هدوء بعيدين عن الانفعالات النفسية والرواسب الشعورية والملابسات المعيشية التي كدرت صفو العلاقات بين الزوجين طليقين من هذه المؤثرات التي تفسد جو الحياة وتعقد الأمور وتبدو لقربها من نفسي الزوجين كبيرة تغطي على كل العوامل الطيبة الأخرى في حياتهما حريصين على سمعة الأسرتين الأصليتين مشفقين على الأطفال الصغار بريئين من الرغبة في غلبة أحدهما على الآخر كما قد يكون الحال مع الزوجين في هذه الظروف راغبين في خير الزوجين وأطفالهما ومؤسستهما المهتدة بالدمار وفي الوقت ذاته هما مؤتمنان على أسرار الزوجين لأنهما من أهلها لا خوف من تشهيرهما بهذه الأسرار إذ لا مصلحة لهما في التشهير بها بل مصلحتهما في دفنها ومداراتها يجتمع الحكمان لمحاولة الإصلاح فإن كان في نفسي الزوجين رغبة حقيقية في الإصلاح وكان الغضب فقط هو الذي يحجب هذه الرغبة فإنه بمساعدة الرغبة القوية في نفس الحكمين يقدر الله الصلاح بينهما والتوفيق إن يريد إصلاحًا يوفق الله بينهما فهما يريدان الإصلاح والله يستجيب لهما ويوفق وهذه هي الصلة بين قلوب الناس وسعيهم ومشئته الله وقدره إن قدر الله هو الذي يحقق ما يقع في حياة الناس ولكن الناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا ; وبقدر الله بعد ذلك يكون ما يكون ويكون عن علم بالسرائر وعن خيرة بالصوالح إن الله كان عليماً خيرًا وهكذا نرى في هذا الدرس مدى الجدية والخطورة في نظرة الإسلام إلى المرأة وعلاقات الجنسين ومؤسسة الأسرة وما يتصل بها من الروابط الاجتماعية ونرى مدى اهتمام المنهج الإسلامي بتنظيم هذا الجانب الخطير من الحياة الإنسانية ونطلع على نماذج من الجهد الذي بذله هذا المنهج العظيم وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة التي التقطها من سفح الجاهلية في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة على هدى الله الذي لا هدى سواه

الوحدة الرابعة توجيهات في العلاقات الإجتماعية والإنفاق

مقدمة الوحدة

الدرس الأول تنظيم العلاقات الإجتماعية والإنفاق

الدرس الثاني من أحكام الصلاة والوضوء والغسل

تنظيم حياة المجتمع المسلم هناك أكثر من مناسبة واحدة تربط بين مطلع هذا الدرس ; وبين محور السورة كلها وموضوعاتها الأساسية من ناحية ; وبينه وبين موضوعات الدرس السابق في هذا الجزء من ناحية أخرى فهذا الدرس بدء جولة في تنظيم حياة المجتمع المسلم ; وتخليصه من رواسب الجاهلية وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة ; والتحذير من أهل الكتاب وهم اليهود بالمدينة وما جبلوا عليه من شر ونكر ; وما ينفثونه في المجتمع المسلم وما يبذلونه من جهود لتعويق نموه وتكامله وبخاصة من الناحية الأخلاقية وناحية التكافل والتعاون اللتين هما موضع القوة النامية في هذا المجتمع الجديد ولأن الدرس الجديد جولة جديدة فقد بدأ بالقاعدة الأولية التي يقوم عليها المجتمع المسلم قاعدة التوحيد الخالص التي تنبثق منها حياته ; وينبثق منها منهج هذه الحياة في كل جانب وفي كل اتجاه وقد سبق هذا الدرس أشواط متنوعة في التنظيم العائلي والتنظيم الاجتماعي وكان الحديث في الدرس السابق عن الأسرة وتنظيمها ووسائل صيانتها والروابط التي تشدها وتوثق بناءها فجاء هذا الدرس يتناول علاقات إنسانية في المجتمع المسلم أوسع مدى من علاقات الأسرة ; ومتصلة بها كذلك متصلة بها بالحديث عن الوالدين ومتصلة بها في توسعها بعد علاقة الوالدين لتشمل علاقات أخرى ; ينبع الشعور بها من المشاعر الودود الطيبة التي تنشأ في جو الأسرة المتحابة ; حتى تفيض على جوانب الإنسانية الأخرى ; ويتعلمها الإنسان أول من يتعلمها في جو الأسرة الحاني ومحضنها الرفيق ومن هناك يتوسع في علاقاته بأسرة الإنسانية كلها ; بعدما بذرت بذورها في حسه أسرته الخاصة القريبة ولأن في الدرس الجديد توجيهات إلى رعاية الأسرة القريبة العائلة والأسرة الكبيرة الإنسانية وإقامة قيم وموازين في هذا الحقل للباذلين وللباخلين فقد ابتدأ الدرس بالقاعدة الأساسية التي تنبثق منها كل القيم والموازين كما ينبثق منها منهج الحياة كله في المجتمع المسلم وهي قاعدة التوحيد وربط كل حركة وكل نشاط وكل خالجة وكل انفعال بمعنى العبادة لله التي هي غاية كل نشاط إنساني في ضمير المسلم وفي حياته وبسبب من الحديث عن عبادة الله وحده في محيطها الشامل جاءت الفقرة الثانية في الدرس ; تبين بعض أحكام الصلاة والطهارة ; وتتخذ خطوة في طريق تحريم الخمر ولم تكن قد حرمت بعد باعتبار هذه الخطوة جزءا من برنامج التربية الإسلامية العامة الدائمة الخطى في المجتمع الوليد وباعتبار علاقتها بالعبادة والصلاة والتوحيد حلقات متماسكة بعضها مع بعض ومع الدرس السابق ومع محور السورة كذلك

الدرس الأول تنظيم العلاقات الاجتماعية والإنفاق

واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم

الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا هذه الفقرة تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده والنهي عن إشراك شيء به تبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر وهذا النهي والأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة في أواخر الدرس الماضي فيدل هذا الربط بين الموضوعين على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة في هذا الدين فليس هو مجرد عقيدة تستكن في الضمير ; ولا مجرد شعائر تقام وعبادات ; ولا مجرد تنظيم دنيوي منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله ويربط بين جوانبه ويشدها جميعا إلى الأصل الأصيل وهو توحيد الله والتلقي منه وحده في هذا النشاط كله دون سواه توحيد إلهها معبودا وتوحيده مصدرا للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضا لا ينفك هذا التوحيد عن ذاك في الإسلام وفي دين الله الصحيح على الإطلاق وبلي الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك الأمر بالإحسان إلى تلك المجموعات من الأسرة الخاصة والأسرة الإنسانية ; وتقيح البخل والخيلاء والفخر وأمر الناس بالبخل وكتمان فضل الله من أي نوع سواء كان من المال أم من العلم والدين والتحذير من اتباع الشيطان ; والتلويح بعذاب الآخرة وما فيه من خزي وافتضاح لربط هذا كله بالتوحيد ; وتحديد المصدر الذي يتلقى منه من يعبد الله ولا يشرك به شيئا وهو مصدر كذلك واحد لا يتعدد ولا يشاركه أحد في التوجيه والتشريع ; كما لا يشاركه أحد في الألوهية وعبادة الناس له بلا شريك واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار والجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن التشريعات والتوجيهات في منهج الله إنما تنبثق كلها من أصل واحد وترتكز على ركيزة واحدة إنها تنبثق من العقيدة في الله وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة ومن ثم يتصل بعضها ببعض ; ويتناسق بعضها مع بعض ; وبصعب فصل جزئية منها عن جزئية ; وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون الرجوع إلى أصلها الكبير الذي تلقي عنده ; ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير واف بتحقيق صفة الإسلام ; كما أنه غير واف بتحقيق ثمار المنهج الإسلامي في الحياة من العقيدة في الله تنبع كل التصورات الأساسية للعلاقات الكونية والحيوية والإنسانية تلك التصورات التي تقوم عليها المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعالمية والتي تؤثر في علاقات الناس بعضهم ببعض في كل مجالي النشاط الإنساني في الأرض ; والتي تكيف ضمير الفرد وواقع المجتمع ; والتي تجعل المعاملات عبادات بما فيها من اتباع لمنهج الله ومراقبة الله والعبادات قاعدة للمعاملات بما فيها من تطهير للضمير والسلوك والتي تحيل الحياة في النهاية وحدة متماسكة ; تنبثق من المنهج الرباني وتتلقى منه وحده دون سواه وتجعل مردها في الدنيا والآخرة إلى الله هذه السمة الأساسية في العقيدة الإسلامية وفي المنهج الإسلامي وفي دين الله الصحيح كله تبرز هنا في تصدير آية الإحسان إلى الوالدين والأقربين وغيرهم من طوائف الناس بعبادة الله وتوحيده كما أسلفنا ثم في الجمع بين قرابة الوالدين وقرابة

هذه الطوائف من الناس متصلة هذه وتلك بعبادة الله وتوحيده كذلك وذلك بعد أن جعل هذه العبادة وهذا التوحيد واسطة ما بين دستور الأسرة القريبة في نهاية الدرس الماضي ودستور العلاقات الإنسانية الواسعة في هذا الدرس على النحو الذي بينا من قبل ليصلها جميعا بتلك الأصرة التي تضم الأواصر جميعا ; وليوحد المصدر الذي يشرع ويوجه في شأن هذه الأواصر جميعا واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً الأمر الأول بعبادة الله والنهي الثاني لتحريم عبادة أحد معه سواه نهياً باتاً شاملاً لكل أنواع المعبودات التي عرفتها البشرية ولا تشركوا به شيئاً شيئاً كائناً ما كان من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان فكلها مما يدخل في مدلول كلمة شيء عند إطلاق التعبير على هذا المنوال ثم ينطلق إلى الأمر بالإحسان إلى الوالدين على التخصيص ولذوي القربي على التعميم ومعظم الأوامر تتجه إلى توصية الذرية بالوالدين وإن كانت لم تغفل توجيه الوالدين إلى الذرية ; فقد كان الله أرحم بالذاري من آبائهم وأمهاتهم في كل حال والذرية بصفة خاصة أحوج إلى توجيهها للبر بالوالدين بالجيل المدبر المولي إذ الأولاد في الغالب يتجهون بكينونتهم كلها وبعواطفهم ومشاعرهم واهتماماتهم إلى الجيل الذي يخلفهم ; لا الجيل الذي خلفهم وبينما هم مدفوعون في تيار الحياة إلى الأمام غافلون عن التلفت إلى الوراء تغيثهم هذه التوجيهات من الرحمن الرحيم الذي لا يترك والداً ولا مولوداً والذي لا ينسى ذرية ولا والدين ; والذي يعلم عباده الرحمة بعضهم ببعض ولو كانوا ذرية أو والدين كذلك يلحظ في هذه الآية وفي كثير غيرها أن التوجيه إلى البر يبدأ بذوي القربي قرابة خاصة أو عامة ثم يمتد منها ويتسع نطاقه من محورها إلى بقية المحتاجين إلى الرعاية من الأسرة الإنسانية الكبيرة وهذا المنهج يتفق أولاً مع الفطرة ويسايرها فعاطفة الرحمة ووجدان المشاركة يبدأ أولاً في البيت في الأسرة الصغيرة وقلما ينشقان في نفس لم تذوق طعم هذه العاطفة ولم تجد مس هذا الوجدان في المحضن الأول والنفس كذلك أميل إلى البدء بالأقربين فطرة وطبعاً ولا بأس من ذلك ولا ضير ; ما دامت توجه دائماً إلى التوسع في الدائرة من هذه النقطة ومن هذا المحور ثم يتفق المنهج ثانياً مع طريقة التنظيم الاجتماعي الإسلامية من جعل الكافل يبدأ في محيط الأسرة ; ثم ينساح في محيط الجماعة كي لا يركز عمليات التكافل في يد الأجهزة الحكومية الضخمة إلا عندما تعجز الأجهزة الصغيرة المباشرة فالوحدات المحلية الصغيرة أقدر على تحقيق هذا التكافل في وقته المناسب وفي سهولة ويسر وفي تراحم وود يجعل جو الحياة لائقاً ببني الإنسان وهنا يبدأ بالإحسان إلى الوالدين ويتوسع منهما إلى ذوي القربي ومنهم إلي اليتامى والمساكين ولو أنهم قد يكونون أبعد مكاناً من الجار ذلك أنهم أشد حاجة وأولى بالرعاية ثم الجار ذو القرابة فالجار الأجنبي مقدمين على صاحب المرافق لأن الجار قربه دائم أما صاحب فلقاؤه على فترات ثم صاحب المرافق وقد ورد في تفسيره أنه الجلّيس في الحضرة الرفيق في السفر ثم ابن السبيل العابر المنقطع عن أهله وماله ثم الرفيق الذين جعلتهم الملابس ملك اليمين ولكنهم يتصلون بأصرة الإنسانية الكبرى بين بني آدم أجمعين ويعقب على الأمر بالإحسان بتقيح الاختيال والفخر والبخل والتبخيل وكتمان نعمة الله وفضله والرياء في الإنفاق ; والكشف عن سبب هذا كله وهو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر واتباع الشيطان وصحبه إن الله لا يحب من كان مختلاً فخوراً الذين

يخلون ويأمرون الناس بالبخل وبكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعدنا للكافرين عذابا مهينا والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا وهكذا تتضح مرة أخرى تلك اللمسة الأساسية في المنهج الإسلامي وهي ربط كل مظاهر السلوك وكل دوافع الشعور وكل علاقات المجتمع بالعقيدة بإفراد الله سبحانه بالعبادة والتلقي يتبعه الإحسان إلى البشر إبتغاء وجه الله ورضاه والتعلق بثوابه في الآخرة ; في أدب ورفق ومعرفة بأن العبد لا ينفق إلا من رزق الله فهو لا يخلق رزقه ولا ينال إلا من عطاء الله والكفر بالله وباليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر والبخل والأمر بالبخل وكتمان فضل الله ونعمته بحيث لا تظهر آثارها في إحسان أو عطاء ; أو الإنفاق رياء وتظاهرا طلبا للمفخرة عند الناس ; إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخياء بين العباد وهكذا تتحدد الأخلاق أخلاق الإيمان وأخلاق الكفر فالباعث على العمل الطيب والخلق الطيب هو الإيمان بالله واليوم الآخر والتطلع إلى رضا الله وجزاء الآخرة فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبة جزاء من الناس ولا يتلقاه ابتداء من عرف الناس فإذا لم يكن هناك إيمان بالله يتبغى وجهه وتتحدد بواعث العمل بالرغبة في رضاه وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء اتجه هم الناس إلى نيل القيم الأرضية المستمدة من عرف الناس وهذه لا ضابط لها في جيل واحد في رقعة واحدة فضلا عن أن يكون لها ضابط ثابت في كل زمان وفي كل مكان وكانت هذه هي بواعثهم للعمل وكان هناك التآرجح المستمر كتآرجح أهواء الناس وقيمهم التي لا تثبت على حال وكان معها تلك الصفات الذميمة من الفخر والخياء والبخل والتبخيل ومراءاة الناس لا التجرد والإخلاص والتعبير القرآني يقول إن الله لا يحب هؤلاء والله سبحانه لا ينفعل أنفعال الكره والحب إنما المقصود ما يصاحب هذا الانفعال في مألوف البشر من الطرد والأذى وسوء الجزاء وأعدنا للكافرين عذابا مهينا والإهانة هي الجزاء المقابل للفخر والخياء ولكن التعبير القرآني يلقي ظلالة إلى جوار المعنى المقصود وهي ظلال مقصودة ; تشير في النفوس الكره لهذه الصفات ولهذه التصرفات ; كما تشير الاحتقار والاشمئزاز وبخاصة حين يضم إليها أن الشيطان هو قرينهم ومن يكن الشيطان له قرينًا فساء قرينًا وقد ورد أن هذه النصوص نزلت في جماعة من يهود المدينة وهي صفات تنطبق على اليهود كما تنطبق على المنافقين وكلاهما كان موجودا في المجتمع المسلم في ذلك الحين وقد تكون الإشارة إلى كتمانهم ما آتاهم الله من فضله تعني كذلك كتمانهم للحقائق التي يعرفونها في كتبهم عن هذا الدين وعن رسوله الأمين ولكن النص عام والسياق يصدد الإحسان بالمال وبالمعاملة فأولى أن نترك مفهومه عاما لأنه الأقرب إلى طبيعة السياق وحين ينتهي من عرض سوءات نفوسهم ; وسوءات سلوكهم ; ومن عرض أسبابها من الكفر بالله واليوم الآخر وصحبة الشيطان واتباعه ; ومن الجزاء المعد للمهيا لأصحاب هذه السوءات وهو العذاب المهين عندئذ يسأل في استنكار وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما أجل ماذا عليهم ما الذي يخشونه من الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق من رزق الله والله عليم بهم بما أنفقوا وبما استقر في قلوبهم من بواعث والله لا يظلم مثقال ذرة فلا خشية من الجهل بإيمانهم وإنفاقهم ولا خوف من

الظلم في جزائهم بل هناك الفضل والزيادة بمضاعفة الحسنات والزيادة من فضل الله بلا حساب إن طريق الإيمان أضمن وأكسب على كل حال وعلى كل احتمال وحتى بحساب الريح المادي والخسارة المادية فإن الإيمان في هذه الصورة يبدو هو الأضمن وهو الأربح فماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله إنهم لا ينفقون من شيء خلقوه لأنفسهم خلقا ; إنما هو رزق الله لهم ومع ذلك يضاعف لهم الحسنات ; ويزيدهم من فضله وهم من رزقه ينفقون ويعطون فياله من كرم وباله من فيض وباله من صفقة لا يقعد عنها إلا جاهل خسران ثم يختم الأوامر والنواهي والتخصيص والترغيب بمشهد من مشاهد القيامة ; يجسم موقفهم فيه ويرسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة متحركة على طريقة القرآن في مشاهد القيامة فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً إنه يمهد لمشهد القيامة بأن الله لا يظلم مثقال ذرة وإذن فهو العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه قيد شعره وأنه يضاعف الحسنات ويؤتي فضلا عنها أجرا من لدنه عظيما فهي الرحمة إذن لمن يستحقون الرحمة ; والفضل المطلق لمن كانوا يرجون الفضل بالإيمان والعمل فأما هؤلاء هؤلاء الذين لم يقدموا إيمانا ولم يقدموا عملا هؤلاء الذين لم يقدموا إلا الكفر وسوء العمل فكيف يكون حالهم يومذاك كيف يكون الحال إذا جئنا من كل أمة بشهيد هو نبيها الذي يشهد عليها وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وعندئذ يرتسم المشهد شاخصا ساحة العرض الواسعة وكل أمة حاضرة وعلى كل أمة شهيد بأعمالها وهؤلاء الكافرون المختالون الفخورون الباخلون المبخلون الكاتمون لفضل الله المرءون الذين لم يبتغوا وجه الله هؤلاء هم نكاد نراهم من خلال التعبير واقفين في الساحة وقد انتدب الرسول ص للشهادة هؤلاء هم بكل ما أضمرنا وأظهروا بكل ما كفروا وما أنكروا بكل ما اختالوا وما افتخروا بكل ما بخلوا وبخلوا بكل ما رءوا وتظاهروا هؤلاء هم في حضرة الخالق الذي كفروا به الرازق الذي كتموا فضله وبخلوا بالإنفاق مما أعطاهم في اليوم الآخر الذي لم يؤمنوا به في مواجهة الرسول الذي عصوه فكيف إنها المهانة والخزي والخجل والندامة مع الاعتراف حيث لا جدوى من الإنكار والسياق القرآني لا يصف هذا من الظاهر إنما يرسم صورة نفسية تتضح بهذا كله ; وترتسم حواليتها تلك الظلال كلها ظلال الخزي والمهانة والخجل والندامة يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً ومن خلال اللمسات المعبرة في الصورة الحية نحس بكل تلك المعاني وبكل تلك الانفعالات وهي تتحرك في هذه النفوس نحس بها عميقة حية مؤثرة كما لا نحس من خلال أي تعبير آخر وصفي أو تحليلي وتلك طريقة القرآن في مشاهد القيامة وفي غيرها من مواضع التعبير بالتصوير

الدرس الثاني من أحكام الصلاة والوضوء والغسل

وقد بدأ الدرس بالأمر بعبادة الله والنهي عن إشراك شيء به والصلاة أمس الشعائر بمعنى العبادة وفي الآية التالية بيان لبعض أحكامها وأحكام

الطهارة الممهدة لها يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا إنها حلقة في سلسلة التربية الربانية للجماعة المسلمة التي التقطها المنهج الإسلامي من سفح الجاهلية وكانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصلية الشاملة ; وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضا الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني في أوج جاهليته ; وللمجتمع الفارسي أيضا وكذلك هي اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوربي والمجتمع الأمريكي في أوج جاهليته والشأن أيضا كذلك في جاهلية المجتمع الإفريقي المتخلفة من الجاهلية الأولى في السويد وهي أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة كانت كل عائلة في النصف الأول من القرن الماضي تعد الخمر الخاصة بها وكان متوسط ما يستهلكه الفرد حوالي عشرين لترا وأحست الحكومة خطورة هذه الحال وما ينشره من إدمان ; فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمر وتحديد الاستهلاك الفردي ومنع شرب الخمر في المحال العامة ولكنها عادت فخفت هذه القيود منذ أعوام قليلة فأبيح شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام ثم أبيحت الخمر في عدد محدود من المحال العامة حتى منتصف الليل فقط وبعد ذلك يباح شرب النبيذ والبيرة فحسب وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف أما في أمريكا فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانونا في سنة سمي قانون الجفاف من باب التهكم عليه لأنه يمنع الري بالخمر وقد ظل هذا القانون قائما مدة أربعة عشر عاما حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر ويقدر أن ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونا من الدولارات وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاما لا يقل عن مليون جنيه وقد أعدم فيها نفس ; وسجن كذلك ر نفسا وبلغت الغرامات مليون جنيه وصادرت من الأملاك ما يبلغ مليون وأربعة بلايين جنيه وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي بوضع آيات من القرآن وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية وفي علاج المجتمع الإنساني بين منهج الله ومنهج الجاهلية قديما وحديثا على السواء ولكي ندرك تغلغل هذه الظاهرة في المجتمع الجاهلي يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلي ; حيث نجد الخمر عنصرا أساسيا من عناصر المادة الأدبية ; كما أنه عنصر أساسي من عناصر الحياة كلها لقد بلغ من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفة لبيع الخمر يقول لبيد قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها ويقول عمرو بن قميئة إذا أسحب الربط والمروط إلى أدني تجاري وأنفض اللما ووصف مجالس الشراب والمفاخرة بها تزحم الشعر الجاهلي وتطبعه طابعا ظاهرا يقول امرؤ القيس وأصبحت ودعت الصبا غير % أنني أراقب خلات من العيش أربعا فمنهن قولي للندامى تفرقوا % يداجون نشاجا من الخمر مترعا ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا % يبادرن سربا أمنا أن يفزعا

الخ ويقول طرفة بن العبد فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى % وجدك لم أحفل متى قام عودي فمنهن سبقي العاذلات بشرية % كميتم متى ما تعل بالماء تزيد وما زال تشرابي الخمر ولذتي % وبذلي وإنفاقي طريقي وتالدي إلى أن تحامنتي العشيرة كلها % وأفردت أفراد البعير المعبد ويقول الأعشى فقد أشرب الراح قد تعلمين % يوم المقام ويوم الطعن وأشرب بالريف حتى يقال % قد طال بالريف ما قد دجن ويقول المنخل البشكري ولقد شربت من المدامة % بالصغير وبالكبير فإذا سكرت فإنني % رب الخورنق والسدير وإذا صحوت فإنني % رب الشويهة والبعير وغير هذا كثير في الشعر الجاهلي ورواية الحوادث التي صاحبت مراحل تحريم الخمر في المجتمع المسلم والرجال الذين كانوا أبطال هذه الحوادث وفيهم عمر وعلي وحمزة وعبدالرحمن بن عوف وأمثال هذا الطراز من الرجال تشي بمدى تغلغل هذه الظاهرة في الجاهلية العربية وتكفي عن الوصف المطول المفصل يقول عمر رضي الله عنه في قصة إسلامه في رواية كنت صاحب خمر في الجاهلية فقلت لو أذهب إلى فلان الخمار فأشرب وظل عمر يشرب الخمر في الإسلام حتى إذا نزلت آية يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما قال اللهم بين لنا بيانا شافيا في الخمر واستمر حتى إذا نزلت هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون قال اللهم بين لنا بيانا شافيا في الخمر حتى إذا نزلت آية التحريم الصريحة إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون قال انتهينا انتهينا وانتهى وفي سبب نزول هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ترد روايتان يشترك في أحدهما علي وعبد الرحمن بن عوف من المهاجرين وسعد بن معاذ من الأنصار روى ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود بإسناده عن مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال نزلت في أربع آيات صنع رجل من الأنصار طعاما فدعا أناسا من المهاجرين وأناسا من الأنصار فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ثم افتخرنا فرفع رجل لحي بغير عظم الفك فغرز بها أنف سعد فكان سعد مغرور الأنف وذلك قبل تحريم الخمر فنزلت يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى والحديث بطوله عند مسلم من رواية شعبة وروى ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن عبدالله الدشتكي أبو جعفر عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلانا قال فقرا قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا نحتاج إلى مزيد من الأمثلة والروايات ; لندلل على تغلغل ظاهرة الخمر في المجتمع الجاهلي فهي كانت والميسر الظاهرتين البارزتين ; المتداخلتين في تقاليد هذا المجتمع فماذا صنع المنهج الرباني لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة ماذا صنع لمكافحة هذه الآفة التي لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واع أبدا ماذا صنع ليوقف في وجه عادة أصلية قديمة تتعلق بها تقاليد اجتماعية ; كما تتعلق بها مصالح اقتصادية لقد عالج المنهج الرباني هذا كله بوضع آيات من

القرآن ; وعلى مراحل وفي رفق وتؤدة وكسب المعركة دون حرب ودون تضحيات ودون إراقة دماء والذي أريق فقط هو دنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت في أفواه الشاربين حين سمعوا آية التحريم فمجوها من أفواههم ولم يلعوها كما سيجيء في مكة حيث لم يكن للإسلام دولة ولا سلطان إلا سلطان القرآن وردت في القرآن المكي تلميحة سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر تدرك من ثنايا العبارة وهي مجرد إشارة جاء في سورة النحل ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا فوضع السكر وهو الشراب المسكر الذي كانوا يتخذونه من ثمرات النخيل والأعناب وفي مقابل الرزق الحسن ملمحا بهذا التقابل إلى أن السكر شيء والرزق الحسن شيء آخر وكانت مجرد لمسة من بعيد ; للضمير المسلم الوليد ولكن عادة الشراب أو تقليد الشراب بمعنى أدق فقد كان أعمق من عادة فردية كان تقليدا اجتماعيا له جذور اقتصادية كان أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة وفي المدينة حيث قامت للإسلام دولة وكان له سلطان لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان إنما كان أولا سلطان القرآن وبدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر وفي خبرة بالنفس البشرية والأوضاع الاجتماعية بدأ بآية البقرة ردا على أسئلة تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما وكانت هي الطريقة الأولى ذات الصوت المسموع في الحس الإسلامي وفي الضمير الإسلامي وفي المنطق الفقهي الإسلامي فمدار الحل والحرمة أو الكراهية على رجحان الإثم أو رجحان الخير في أمر من الأمور وإذا كان إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما فهذا مفرق الطريق ولكن الأمر كان أعمق من هذا وقال عمر رضي الله عنه اللهم بين لنا بيانا شافيا في الخمر عمر وهذا وحده يكفي لبيان عمق هذا التقليد في نفس العربي ثم حدثت أحداث كالتي روينها ونزلت هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون وأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل لقد كانت هذه هي المرحلة الوسيطة بين التنفير من الخمر لأن إثمها أكبر من نفعها وبين التحريم البات لأنها رجس من عمل الشيطان وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة هي قطع عادة الشراب أو كسر الإدمان وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار وبينها فترات لا تكفي للشراب الذي يرضي المدمنين ثم الإفاقة من السكر الغليظ حتى يعملوا ما يقولون فضلا على أن للشراب كذلك أوقاتا ومواعيد خاصة من الصبوح والغبوق صباحا ومساء وهذا تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة ومع ذلك فقد قال عمر رضي الله عنه وهو عمر اللهم بين لنا بيانا شافيا في الخمر ثم مضى الزمن ووقعت الأحداث وجاء الوعد المناسب وفق ترتيب المنهج للضربة الحاسمة فنزلت الآيات في المائدة إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون وانتهى المسلمون كافة وأريق زقاق الخمر وكسرت دنانها في كل مكان بمجرد سماع الأمر ومج الذين كان في أفواههم جرعات من الخمر ما في أفواههم حين سمعوا

ولم يلعبوها وهي في أفواههم وهم شاربون لقد انتصر القرآن وأفلح المنهج وفرض سلطانه دون أن يستخدم السلطان ولكن كيف كان هذا كيف تمت هذه المعجزة التي لا نظير لها في تاريخ البشر ; ولا مثل لها في تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية في أي مكان ولا في أي زمان لقد تمت المعجزة لأن المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته وبحضور الله سبحانه فيها حضورا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان أخذها جملة لا تفارق وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغا تملؤه بنشوة الخمر وخيالات السكر وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء في الهواء ملأ فراغها باهتمامات منها نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها من تيه الجاهلية الأجرد وهجيرها المتلطي وظلامها الدامس وعبوديتها المذلة وضيقتها الخانق إلى رياض الإسلام البديعة وظلاله الندية ونوره الوضيء وحرته الكريمة وسعته التي تشمل الدنيا والآخرة وملأ فراغها وهذا هو الأهم بالإيمان بهذا الإحساس الندي الرضي الجميل البهيج فلم تعد في حاجة إلى نشوة الخمر تحلق بها في خيالات كاذبة وسمادير وهي ترف بالإيمان المشع إلى الملاء الأعلى الوضيء وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله وتذوق طعم هذا القرب فتمج طعم الخمر ونشوتها ; وترفض خمارها وصداعها ; وتستقذر لوثتها وخمودها في النهاية إنه استنفذ الفطرة من ركام الجاهلية ; وفتحها بمفتاحها الذي لا تفتح بغيره ; وتمشى في حناياها وأوصالها ; وفي مسالكها ودروبها ينشر النور والحياة والنظافة والطهر واليقظة والهمة والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير والخلافة في الأرض على أصولها التي قررها العليم الخبير وعلى عهد الله وشرطه وعلى هدى ونور إن الخمر كالميسر كبقية الملاهي كالجنون بما يسمونه الألعاب الرياضية والإسراف في الاهتمام بمشاهدها كالجنون بالسرعة كالجنون بالسينما كالجنون بالمودات والتقاليع كالجنون بمصارعة الثيران كالجنون ببقية التفاهات التي تغشى حياة القطعان البشرية في الجاهلية الحديثة اليوم جاهلية الحضارة الصناعية إن هذه كلها ليست إلا تعبيراً عن الخواء الروحي من الإيمان أولاً ومن الاهتمامات الكبيرة التي تستنفد الطاقة ثانياً وليست إلا إعلاناً عن إفلاس هذه الحضارة في إشباع الطاقات الفطرية بطريقة سوية ذلك الخواء وهذا الإفلاس هما اللذان يقودان إلى الخمر والميسر لملء الفراغ كما يقودان إلى كل أنواع الجنون التي ذكرنا وهما بذاتهما اللذان يقودان إلى الجنون المعروف وإلى المرض النفسي والعصبي وإلى الشذوذ إنها لم تكن كلمات هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة إنما كان منهج منهج هذه الكلمات متنه وأصله منهج من صنع رب الناس لا من صنع الناس وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج لا تؤدي إلى كثير إنه ليست المسألة أن يقال كلام فالكلام كثير وقد يكتب فلان من الفلاسفة أو فلان من الشعراء أو فلان من المفكرين أو فلان من السلاطين قد يكتب كلاماً منمقاً جميلاً يبدو أنه يؤلف منهجاً أو مذهباً أو فلسفة الخ ولكن ضمائر الناس تتلقاه بلا سلطان لأنه ما أنزل الله به من سلطان فمصدر الكلمة هو الذي يمنحها السلطان وذلك فوق ما في طبيعة المنهج البشري ذاته من ضعف ومن هوى ومن جهل ومن قصور فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج غير منهج العليم الخبير وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي

شرعها الحكيم البصير وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير متى متى ينتهون عن هذا الغرور وعود من هذا الاستطراد إلى الآية الكريمة يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا كما منعت الآية الذين آمنوا أن يقربوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون كذلك منعتهم من الصلاة وهم جنب إلا عابري سبيل حتى يغتسلوا وتختلف الأقوال في المقصود من عابري سبيل كما تختلف في معنى قرب الصلاة المنهي عنه فقول إن المقصود هو عدم قرب المساجد أو المكث فيها لمن كان جنباً حتى يغتسل إلا أن يكون عابراً بالمسجد مجرد عبور وقد كان جماعة من الصحابة أبواب بيوتهم تفتح في مسجد الرسول ص وهو طريقهم من وإلى هذه البيوت فرخص لهم في المرور وهم جنب لا بالمكث في المسجد ولا الصلاة بطبيعة الحال إلا بعد الاغتسال وقول إن المقصود هو الصلاة ذاتها والنهي عن أدائها للجنب إلا بعد الاغتسال ما لم يكن مسافراً فيحل له عندئذ أن يقصد المسجد وأن يصلي بلا اغتسال ولكن بالتميم الذي يسد مسد الغسل عندئذ كما يسد مسد الوضوء والقول الأول يبدو وأظهر وأوجه لأن الحالة الثانية حالة السفر ذكرت في الآية نفسها بعد ذلك فتفسير عابري سبيل بالمسافرين ينشئ تكراراً للحكم في الآية الواحدة لا ضرورة له وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً فهذا النص يشمل حالة المسافر عندما يصيبه حدث أكبر فيكون جنباً في حاجة إلى الغسل أو حدث أصغر فيكون في حاجة إلى الوضوء لأداء الصلاة والنص يسويه في هذه الحالة بمن كان مريضاً فألم به حدث أكبر أو أصغر أو بمن جاء من الغائط والغائط مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه فكفى عن الفعل بالمجيء من مكان الفعل فأصابه حدث أصغر يقتضي الوضوء أو بمن لامس النساء وفي لامستم النساء أقوال كذلك قول إنه كناية عن الجماع فهو يستوجب الغسل وقول إنه يعني حقيقة اللمس لمس أي جزء من جسم الرجل لجسم المرأة وهو يستوجب الوضوء في بعض المذاهب ولا يستوجب في بعضها بتفصيلات تطلب في كتب الفروع نذكر منها إجمالاً اللمس يوجب الوضوء إطلاقاً ب اللمس يوجب الوضوء إذا كان اللمس ممن تثير الشهوة في نفسه باللمس وإذا كانت الملموسة ممن تثير الشهوة باللمس ج اللمس يوجب الوضوء إذا أحس اللمس نفسه حسب تقديره في كل حالة أن اللمسة أثارت في نفسه حركة اللمس لا يوجب الوضوء إطلاقاً ولا العناق ولا التقبيل للزوجة ولكل قول سنده من أفعال أو من أقوال الرسول ص على طريقة الاختلافات الفقهية في الفروع والذي نرجحه في معنى أو لامستم النساء أنه كناية عن الفعل الذي يستوجب الغسل وبذلك نستغني هنا عن كل الخلافات في مسألة الوضوء وفي جميع هذه الحالات المذكورة سواء كانت الحالة تستوجب الغسل أو تستوجب الوضوء للصلاة حين لا يوجد الماء وكذلك حين يوجد ولكن استعماله يكون ضاراً أو غير مقدور عليه يغني عن الغسل والوضوء التيمم وقد جاء اسمه من نص الآية فتيمموا صعيداً طيباً أي فاقصدوا صعيداً طيباً طاهراً والصعيد كل ما كان من جنس الأرض من تراب أو حجر أو حائط ولو كان التراب مما على ظهر الدابة أو في الفراش من ذرات التراب المتطاير متى كان هناك تراب يتطاير عند ضرب اليدين به وطريقة التيمم إما خبطة

واحدة بالكفين على الصعيد الطاهر ثم نفضهما ثم مسح الوجه ثم مسح اليدين إلى المرفقين بهما وإما خبطتان خبطة يمسح بها الوجه وخبطة يمسح بها الذراعان ولا داعي هنا لذكر الخلافات الفقهية الدقيقة فيما وراء هذا فهذا الدين يسر وفي شرعية التيمم يتجلى معنى التيسير واضحا إن الله كان عفوا غفورا وهو التعقيب الموحى بالتيسير وبالعطف على الضعف وبالمسامحة في القصور والمغفرة في التقصير تعقيب حول حكمة الوضوء والتيمم وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الآية وعن هذا الدرس نقف أمام بضع لمسات في هذه الآية القصيرة نقف أمام حكمة التيمم نحاول استيضاح ما يبسرنا لنا الله من حكمتهما إن بعض الباحثين في حكمة التشريعات والعبادات الإسلامية يندفعون أحيانا في تعليل هذه الأحكام بصورة توحى بأنهم استقصوا هذه الحكمة ; فلم يعد وراء ما استقصوه شيء وهذا منهج غير سليم في مواجهة النصوص القرآنية والأحكام التشريعية ما لم يكن قد نص على حكمتهما نصا وأولى أن نقول دائما إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم وأنه قد تكون دائما هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا في استجلائها وبذلك نضع عقلا البشري في مكانه أمام النصوص والأحكام الإلهية بدون إفراط ولا تفريط أقول هذا لأن بعضنا ومنهم المخلصون يحبون أن يقدموا النصوص والأحكام الإسلامية للناس ومعها حكمة محددة مستقاة مما عرفه البشر من واقعهم أو مما كشف عنه العلم الحديث وهذا حسن ولكن في حدود هي الحدود التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة وكثيرا ما ذكر عن حكمة الوضوء قبل الصلاة أنها النظافة وقد يكون هذا المعنى مقصودا في الوضوء ولكن الجزم بأنه هو وهو دون غيره هو المنهج غير السليم وغير المأمون أيضا فقد جاء وقت قال بعض المماحيكين لا حاجة بنا إلى هذه الطريقة البدائية فالنظافة الآن موفورة والناس يجعلونها في برنامج حياتهم اليومي فإذا كانت هذه هي حكمة الوضوء فلا داعي للوضوء إذن للصلاة بل لا داعي للصلاة أيضا وكثيرا ما ذكر عن حكمة الصلاة تارة أنها حركات رياضية تشغل الجسم كله وتارة بأنها تعويد على النظام أولا في مواقيتها وثانيا في حركاتها وثالثا في نظام الصفوف والإمامة الخ وتارة أنها الاتصال بالله في الدعاء والقراءة وهذا وذاك وذلك قد يكون مقصودا ولكن الجزم بأن هذا أو ذاك أو ذلك هو حكمة الصلاة يتجاوز المنهج السليم والحد المأمون وقد جاء حين من الدهر قال بعضهم فيه إنه لا حاجة بنا إلى حركات الصلاة الرياضية فالتدريبات الرياضية المتنوعة كفيلا بهذا بعد أن أصبحت الرياضة فنا من الفنون وقال بعضهم ولا حاجة بنا إلى الصلاة لتعود النظام فعندنا الجندية مجال النظام الأكبر وفيها غناء وقال بعضهم لا حاجة لتحتيم شكل هذه الصلاة بالاتصال بالله يمكن أن يتم في خلوة ونجوة بعيدا عن حركات الجوارح التي قد تعطل الاستشراق الروحي وهكذا إذا رحنا نجدد حكمة كل عبادة وحكمة كل حكم ونعلله تعليلا وفق العقل البشري أو وفق العلم الحديث ثم نجزم بأن هذا هو المقصود فإننا نبعد كثيرا عن المنهج السليم في مواجهة نصوص الله وأحكامه كما نبعد كذلك عن الحد المأمون ونفتح الباب دائما للمماحيكات فوق ما تحتملها تعليلاتنا من خطأ جسيم وبخاصة حين نربطها بالعلم والعلم قلب لا يثبت على حال وهو كل يوم في تصحيح وتعديل وهنا في موضوعنا الحاضر موضوع التيمم يبدو أن حكمة الوضوء أو الغسل ليست هي مجرد النظافة وإلا فإن البديل من أحدهما أو من كليهما

لا يحقق هذه الحكمة فلا بد إذن من حكمة أخرى للوضوء أو الغسل تكون متحققة كذلك في التيمم ولا نريد نحن أن نقع في الغلطة نفسها فنجزم ولكننا نقول فقط إنها ربما كانت هي الاستعداد النفسي للقاء الله بعمل ما يفصل بين شواغل الحياة اليومية العادية وبين اللقاء العظيم الكريم ومن ثم يقوم التيمم في هذا الجانب مكان الغسل أو مكان الوضوء ويبقى وراء هذا علم الله الكامل الشامل اللطيف ; بدخائل النفوس ومنحنياتها ودروبها التي لا يعلمها إلا اللطيف الخبير ويبقى أن نتعلم نحن شيئاً من الأدب مع الجليل العظيم العلي الكبير ونقف مرة أخرى أمام حرص المنهج الرباني على الصلاة ; وعلى إقامتها في وجه جميع الأعذار والمعوقات وتذليل هذه المعوقات والتيسير البادي في إحلال التيمم محل الوضوء ومحل الغسل أو محلها معاً عند تعذر وجود الماء ; أو عند التضرر بالماء أو عند الحاجة إلى الماء القليل للشرب وضروريات الحياة وكذلك عند السفر حتى مع وجود الماء في أقوال إن هذا كله يدل بالاضافة إلى ما سيأتي في السورة من بيان كيفية الصلاة عند الخوف في ميدان القتال على حرص شديد من المنهج الرباني على الصلاة بحيث لا ينقطع المسلم عنها لسبب من الأسباب ويبدو ذلك كذلك في المرض حيث تؤدي الصلاة من قعود أو من اضطجاع أو من نوم وتؤدي بحركات من جفني العين عندما يشق تحريك الجسم والأطراف إنها هذه الصلة بين العبد والرب الصلة التي لا يحب الله للعبد أن ينقطع عنها لأنه سبحانه يعلم ضرورتها لهذا العبد فالله سبحانه غني عن العالمين ولا يناله من عبادة العباد شيء إلا صلاحهم هم وإلا ما يجدون في الصلاة والاتصال بالله من العون على تكاليفهم والإسترواح لقلوبهم والاطمئنان لأرواحهم والإشراق في كيانهم ; والشعور بأنهم في كنف الله وقربه ورعايته بالطريقة التي تصلح لفطرتهم والله أعلم بفطرتهم هذه وبما يصلح لها وما يصلحها وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير ونقف كذلك أمام بعض التعبيرات الرائقة في هذا النص القصير ذلك حين يعبر عن قضاء الحاجة في الغائط بقوله أو جاء أحد منكم من الغائط فلا يقول إذا عملتم كذا وكذا بل يكتفي بالعودة من هذا المكان كناية عما تم فيه ومع هذا لا يسند الفعل إلى المخاطبين فلا يقول أو جئتم من الغائط بل يقول أو جاء أحد منكم من الغائط زيادة في أدب الخطاب ولطف الكناية ليكون هذا الأدب نموذجاً للبشر حين يتخاطبون وحين يعبر عما يكون بين الرجل والمرأة بقوله أو لامستم النساء والتعبير باللامسة أرق وأحشم وأرقى واللامسة قد تكون مقدمة للفعل أو تعبيراً عنه وعلى أية حال فهو أدب يضربه الله للناس في الحديث عن مثل هذه الشؤون عندما لا يكون هناك مقتض للتعبير المكشوف وحين يعبر عن الصعيد الطاهر بأنه الصعيد الطيب ليشير إلى أن الطاهر طيب وأن النجس خبيث وهو إحياء لطيف المدخل إلى النفوس وسبحان خالق النفوس العليم بهذه النفوس

الوحدة الخامسة معركة الجماعة المسلمة في مواجهة
البيئة المحيطة بها

مقدمة الوحدة

الدرس الأول من تحريفات اليهود وعداوتهم للمسلمين

الدرس الثاني تهديد اليهود إن لم يؤمنوا وبيان حدود المغفرة
الدرس الثالث تعجب من تزكية اليهود لأنفسهم ودفعهم بالكذب
الدرس الرابع من صفات اليهود الذميمة وأفعالهم المرذولة
الدرس السادس القاعدة الشاملة للجزء

مقدمة الوحدة

جوانب تفوق المجتمع المسلم على الجاهلية ابتداء من هذا الدرس في السورة تبدأ المعركة التي يخوضها القرآن بالجماعة المسلمة في مواجهة الجاهلية المحيطة بها واليهود من أهل الكتاب خاصة تلك المعركة التي شهدنا مواقعها ومجالاتها في سورتي البقرة وآل عمران من قبل وهي هي والمعسكرات المعادية هي هي كذلك المعسكرات التي تحدثنا عنها في تقديم سورة البقرة وفي تقديم سورة آل عمران وفي تقديم هذه السورة كذلك ابتداء من هذا الدرس تبدأ المعركة الخارجية معركة الجماعة المسلمة مع المعسكرات المعادية من حولها ولكن هذا في الحقيقة ليس بدء المعركة فكل ما سبق في السورة من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والأخلاقية ; ومحو الملامح الجاهلية في المجتمع المسلم الذي التقطه المنهج الرباني من سفح الجاهلية وتخطيط وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة في هذا المجتمع كل ذلك لم يكن بعيدا عن المعركة الخارجية مع أعداء الجماعة المسلمة في المدينة خاصة ; وفي الجزيرة عامة إنما كان التمهيد الحقيقي لها والاستعداد الحقيقي لمواجهتها كانت تلك معركة البناء بناء هذا المجتمع الجديد على أسس المنهج الإسلامي الجديد ; كي يستطيع أن يواجه المجتمعات المعادية من حوله ويتفوق عليها وكما رأينا في سورتي البقرة وآل عمران العناية تتجه أولا إلى بناء هذا المجتمع من داخله بناء عقيدته وتصوراته وأخلاقه ومشاعره وتشريعاته وأوضاعه إلى جانب تعليم الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها ووسائلهم وتحذيرها من كيدهم ومكرهم وتوجيهها إلى المعركة معهم بقلوب مطمئنة وعيون مفتوحة وإرادات محشودة ومعرفة بطبيعة المعركة وطبيعة الأعداء كذلك نجد الأمر هنا في هذه السورة سواء بسواء لقد كان القرآن فيها جميعا يخوض المعركة بالجماعة المسلمة في كل جبهة كان يخوضها في الضمائر والمشاعر حيث ينشئ فيها عقيدة جديدة ومعرفة بربها جديدة وتصورا للوجود جديدا ويقوم فيها موازين جديدة وينشئ فيها قيما جديدة ; ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية ; ويمحو ملامح الجاهلية في النفس والمجتمع ; وينشئ ويثبت ملامح الإسلام الوضيئة الجميلة ثم يقودها في المعركة مع أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج اليهود والمنافقين والمشركين وهي على أتم استعداد للقائم والتفوق عليهم ; بمتانة بنائها الداخلي الجديد الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي والتنظيمي سواء ولقد كان التفوق الحقيقي للمجتمع المسلم على المجتمعات الجاهلية من حوله بما فيها مجتمع اليهود القائم في قلب المدينة هو تفوقه في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي والتنظيمي بفضل المنهج القرآني الرباني قبل أن يكون تفوقا عسكريا أو اقتصاديا أو ماديا

على العموم بل هو لم يكن قط تفوقا عسكريا واقتصاديا ماديا فقد كان أعداء المعسكر الإسلامي دائما أكثر عددا وأقوى عدة وأغنى مالا وأوفر مقدرات مادية على العموم سواء في داخل الجزيرة العربية أو في خارجها في زمن الفتوحات الكبرى بعد ذلك ولكن التفوق الحقيقي كان في ذلك البناء الروحي والخلقي والاجتماعي ومن ثم السياسي والقيادي الذي أسسه الإسلام بمنهجة الرباني المتفرد وبهذا التفوق الساحق على الجاهلية في بنائها الروحي والخلقي والاجتماعي ومن ثم السياسي والقيادي اجتاحت الإسلام الجاهلية اجتاحتها أولا في الجزيرة العربية واجتاحتها ثانيا في الإمبراطوريتين العظيمتين الممتدتين حوله إمبراطوريتي كسرى وقيصر ثم بعد ذلك في جوانب الأرض الأخرى سواء كان معه جيش وسيف أم كان معه مصحف وأذان ولولا هذا التفوق الساحق ما وقعت تلك الخارقة التي لم يعرف لها التاريخ نظيرا حتى في الاكتساحات العسكرية التاريخية الشهيرة كزحف التتار في التاريخ القديم وزحف الجيوش الهتلرية في التاريخ الحديث ذلك أنه لم يكن اكتساحا عسكريا فحسب ولكنه كان اكتساحا عقديا ثقافيا حضاريا كذلك يتجلى فيه التفوق الساحق الذي يطوي من غير إكراه عقائد الشعوب ولغاتها وتقاليدها وعاداتها الأمر الذي لا نظير له على الإطلاق في أي اكتساح عسكري آخر قديما أو حديثا لقد كان تفوقاً إنسانياً كاملاً تفوقاً في كل خصائص الانسانية ومقوماتها كان ميلادا آخر للإنسان ميلاد إنسان جديد غير الذي تعرفه الأرض على وجه اليقين والتأكيد ومن ثم صيغ البلاد التي غمرها هذا المد بصيغته ; وترك عليها طابعه الخاص ; وطغى هذا المد على رواسب الحضارات التي عاشت عشرات القرون من قبل في بعض البلاد كالحضارة الفرعونية في مصر وحضارة البابليين والآشوريين في العراق وحضارة الفينيقيين والسريان في الشام لأنه كان أعمق جذورا في الفطرة البشرية ; وأوسع مجالا في النفس الإنسانية وأضخم قواعد وأشمل اتجاهات في حياة بني الإنسان من كل تلك الحضارات وغلبة اللغة الإسلامية واستقرارها في هذه البلاد ظاهرة عجيبة لم تستوف ما تستحقه من البحث والدراسة والتأمل وهي في نظري أعجب من غلبة العقيدة واستقرارها إذ إن اللغة من العمق في الكينونة البشرية ومن التشابك مع الحياة الاجتماعية بحيث يعد تغييرها على هذا النحو معجزة كاملة وليس الأمر في هذا هو أمر اللغة العربية فاللغة العربية كانت قائمة ; ولكنها لم تصنع هذه المعجزة في أي مكان على ظهر الأرض قبل الإسلام ومن ثم سميتها اللغة الإسلامية فالقوة الجديدة التي تولدت في اللغة العربية وأظهرت هذه المعجزة على يديها كانت هي الإسلام قطعاً وكذلك اتجهت العبقريات الكامنة في البلاد المفتوحة المفتوحة للحرية والنور والطلاقة اتجهت إلى التعبير عن ذاتها لا بلغاتها الأصلية ولكن باللغة الجديدة لغة هذا الدين اللغة الإسلامية وأنتجت بهذه اللغة في كل حقل من حقول الثقافة نتاجا تبدو فيه الأصالة ; ولا يلوح عليه الاحتباس من معاناة التعبير في لغة غريبة غير اللغة الأم لقد أصبحت اللغة الإسلامية هي اللغة الأم فعلا لهذه العبقريات ذلك أن الرصيد الذي حملته هذه اللغة كان من الضخامة أولا ; ومن ملاصقة الفطرة ثانيا ; بحيث كان أقرب إلى النفوس وأعمق فيها من ثقافتها القديمة ومن لغاتها القديمة أيضا لقد كان هذا الرصيد هو رصيد العقيدة والتصور ; ورصيد البناء الروحي والعقلي والخلقي والاجتماعي الذي أنشأ المنهج الإسلامي في فترة وجيزة وكان

من الضخامة والعمق والصلوق بالفطرة بحيث أمد اللغة لغة الإسلام بسُلطان لا يقاوم كما أمد الجيوش جيوش الإسلام بسُلطان لا يقاوم كذلك وبغير هذا التفسير يصعب أن نعلل تلك الظاهرة التاريخية الفريدة وعلى أية حال فهذا موضوع يطول شرحه فحسبنا منه هذه اللمحة في سياق الظلال منذ هذا الدرس في هذه السورة تبدأ المعركة مع المعسكرات المعادية المتربصة بالجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة ففي هذا الدرس تعجب من حال اليهود وتصرفاتهم في مواجهة الدين الجديد والجماعة التي تمثله وفي الدرس الذي يليه بيان لوظيفة الجماعة المسلمة وطبيعة منهجها وحد الإسلام وشرط الإيمان الذي يتميز به منهجها وحياتها ونظامها وفي الدرس الذي يليه دعوة لهذه الجماعة للذود عن منهجها ووضعها ووجودها ; وكشف للمنافقين المندسين فيها ; وبيان لطبيعة الموت والحياة وقدر الله الذي يجري بهما ; وهو جزء من تربية هذه الجماعة وإعدادها لوظيفتها وللمعركة مع أعدائها وفي الدرس الذي يليه مزيد من الحديث عن المنافقين ; وتحذير للجماعة المسلمة من الانقسام في شأنهم أو الدفاع عن تصرفاتهم ثم تفصيل للإجراءات التي تواجه بها الجماعة المسلمة شتى المعسكرات من حولها أي لقواعد قانون المعاملات الدولية وفي الدرس الذي يليه نجد نموذجاً لرفعه الإسلام في معاملته ليهودي فرد في المجتمع الإسلامي والدرس الذي يليه جولة مع الشرك والمشركين وتوهين للأسس التي يقوم عليها المجتمع المشرك في الجزيرة ويتوسط هذه المعركة لمحة من التنظيم الداخلي ترتبط بأوائل السورة في شأن الأسرة ثم يجيء الدرس الأخير في هذا الجزء خاصاً بالنفاق والمنافقين ; يهبط بهم إلى الدرك الأسفل من النار وهذه الإشارات الخاطفة تبين لنا طبيعة مجالات المعركة وجوانبها المتعددة في الداخل والخارج وطبيعة التوافق والتكامل بين المعركة الداخلية والمعركة الخارجية في حياة المجتمع الإسلامي الأول وهي بذاتها معركة الأمة المسلمة اليوم وغداً في أساسها وحقيقتها

الدرس الأول من تحريفات اليهود وعداوتهم للمسلمين

ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً إنه التعجب الأول من سلسلة التعجيبات الكثيرة من موقف أهل الكتاب من اليهود يوجه الخطاب فيه إلى الرسول ص أو إلى كل من يرى هذا الموقف العجيب المستنكر ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل لقد كان من شأن أن يؤتوا نصيباً من الكتاب الهداية فقد أتاهم الله التوراة على يدي موسى عليه السلام لتكون هداية لهم من ضلالتهم الأولى ولكنهم يدعون هذا النصيب يدعون الهداية ويشترون الضلالة والتعبير بالشراء يعني القصد والنية في المبادلة ففي أيديهم الهدى ولكنهم يتركونه ويأخذون الضلالة فكأنما هي

صفة عن علم وعن قصد وعمد لا عن جهل أو خطأ أو سهو وهو أمر عجيب مستنكر يستحق التعجب منه والاستنكار ولكنهم لا يقفون عند هذا الأمر العجيب المستنكر بل هم يريدون أن يضلوا المهتدين يريدون أن يضلوا المسلمين بشتى الوسائل وشتى الطرق التي سبق ذكرها في سورتي البقرة وآل عمران ; والتي سيجيء طرف منها في هذه السورة كذلك فهم لا يكتفون بضلال أنفسهم الذي يشترونه ; بل يحاولون طمس معالم الهدى من حولهم ; حتى لا يكون هناك هدى ولا مهتدون وفي هذه اللمسة الأولى والثانية تنبيه للمسلمين وتحذير ; من الاعيب اليهود وتديبرهم وباله من تديبر وإثارة كذلك لنفوس المسلمين ضد الذين يريدون لهم الضلالة بعد الهدى وقد كان المسلمون يعتزون بهذا الهدى ; ويعادون من يحاول ردهم عنه إلى جاهليتهم التي عرفوها وعرفوا الإسلام فكرهوها وأحبوا الإسلام وكرهوا كل من يحاول ردهم إليها في قليل أو كثير وكان القرآن يخاطبهم هكذا عن علم من الله بما في صدورهم من هذا الأمر الكبير ومن ثم يعقب على إبراز هذه المحاولة من اليهود بالتصريح بأن هؤلاء أعداء للمسلمين ويتطمعن الجماعة المسلمة إلى ولاية الله ونصره إزاء تلك المحاولة والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا وهكذا يصرح العداة ويستعلن بين الجماعة المسلمة واليهود في المدينة وتتحدد الخطوط وقد كان التعجب من أهل الكتاب عامة وكان المفهوم أن المعنيين هم يهود المدينة ولكن السياق لا يكتفي بهذا المفهوم بل يمضي فيعين اليهود ثم يصف حالهم وتصرفاتهم وسوء أدبهم مع الرسول ص في هذه الفترة التي يبدو أنها كانت في أوائل سنوات الهجرة قبل أن تخضع شوكتهم في المدينة من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ; ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين لقد بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع الله عز وجل أن يحرفوا الكلام عن المقصود به والأرجح أن ذلك يعني تأويلهم لعبارات التوراة بغير المقصود منها وذلك كي ينفوا ما فيها من دلائل على الرسالة الأخيرة ; ومن أحكام كذلك وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير ; وتدل وحدتها في الكتابين على المصدر الواحد ; وتبعاً لهذا على صحة رسالة النبي ص وتحريف الكلم عن المقصود به ليوافق الأهواء ظاهرة ملحوظة في كل رجال دين ينحرفون عن دينهم ويتخذونه حرفة وصناعة يوافقون بها أهواء ذوي السلطان في كل زمان ; وأهواء الجماهير التي تريد التقلت من الدين واليهود أبرع من يصنع ذلك وإن كان في زماننا هذا من محترفي دين المسلمين من ينافسون في هذه الخصلة اليهود ثم بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع رسول الله ص أن يقولوا له سمعنا يا محمد ما تقول ولكننا عصينا فلا نؤمن ولا نتبع ولا نطيع مما يدل على أن هذه الآيات نزلت في وقت مبكر حيث كانت لليهود هذه الجرأة على مواجهة النبي ص ثم يضيفون إلى التبجح سوء الأدب والخلق والالتواء أيضا إذ يقولون للرسول ص واسمع غير مسمع وراعنا ففي ظاهر اللفظ أنهم يقولون اسمع غير مأمور بالسمع وهي صيغة تأدب وراعنا أي انظر إلينا نظرة رعاية لحالنا أو نظرة اهتمام لوضعنا بما أنهم أهل كتاب فلا ينبغي أن يدعوا إلى الإسلام كالمشركين أما في اللي الذي يلوونه فهم يقصدون اسمع لا سمعت ولا كنت سامعا أخزاهم الله وراعنا يميلونها إلى وصف الرعونة وهكذا تبجح وسوء أدب والتواء ومداهنة وتحريف للكلم عن مواضعه وعن معانيه إنها يهود وبعد أن يحكي القرآن

هذا عنهم ; يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب ; والأدب الجدير بمن أوتوا نصيبا منه ويطمعهم بعد ذلك كله في الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله لو ثابوا إلى الطريق القويم وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم وأنها هكذا كانت وهكذا تكون ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً فهم لا يواجهون الحق بهذه الصراحة وهذه النصاعة وهذه الاستقامة ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحة التي لا تتواءم فيها سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان هذا خيرا لهم وأقوم لطبيعتهم وأنفسهم وحالهم ولكن واقع الأمر أنهم بسبب كفرهم مطرودون من هداية الله فلا يؤمن منهم إلا القليل وصدق قول الله فلم يدخل في الإسلام في تاريخه الطويل إلا القليل من اليهود ممن قسم الله لهم الخير وأراد لهم الهدى ; باجتهدهم للخير وسعيهم للهدى أما كتلة اليهود فقد ظلت طوال أربعة عشر قرناً حرباً على الإسلام والمسلمين منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة إلى اللحظة الحاضرة وكيدهم للإسلام كان هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع العنيد الذي لا يكف المنوع الأشكال والألوان والفنون منذ ذلك الحين وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله بما في ذلك كيد الصليبية العالمية والاستعمار بثنتي أشكاله إلا كان من ورائه اليهود أو كان لليهود فيه نصيب

الدرس الثاني تهديد اليهود إن لم يؤمنوا وبيان حدود المغفرة

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب اليهود دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم ; وتهديداً لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم ودمغاً لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخاص الذي عليه دينهم والله لا يغفر أن يشرك به وفي الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة ; وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً إنه نداء لهم بالصفة التي كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين ; وبالسبب الذي كان من شأنه أن يكونوا أول المسلمين يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم فهم أوتوا الكتاب فليس غريباً عليهم هذا الهدى والله الذي آتاهم الكتاب هو الذي يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقاً لما معهم فليس غريباً عليهم كذلك وهو مصدق لما معهم ولو كان الإيمان بالبينة أو بالأسباب الظاهرة لآمنت يهود أول من آمن ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح وكانت لها أحقاد وعناد وكانت هي بطبيعتها منحرفة صلبة الرقبة كما تعبر عنهم التوراة بأنهم شعب صلب الرقبة ومن ثم لم تؤمن ومن ثم يجيئها التهديد العنيف القاسي من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً وطمس الوجوه إزالة معالمها المميزة لآدميتها ; وردّها على أدبارها دفعها لأن تمشي القهقري وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادي ; الذي يفقدهم آدميتهم ويردهم يمشون

على أديبارهم ; ويكون كذلك اللعن الذي أصاب أصحاب السبت وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت وهو محرم عليهم في شريعتهم هو مسخهم بالفعل قرده وخنازير كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم قبل أن يؤتيتهم الله الكتاب والكفر بعد الإيمان والهدى بعد الضلال طمس للوجوه والبصائر وارتداد على الأديبار دونه كل ارتداد وسواء كان هذا هو المقصود أو ذاك فهو التهديد الرعب العنيف ; الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة ; كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد كعب الأخبار فأسلم أخرج ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا عمرو بن واقد عن يونس بن جليس عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني قال كان أبو مسلم الخليلي معلم كعب وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ص قال فبعثه إليه ينظر أهو هو قال كعب فركبت حتى أتيت المدينة فإذا تال يقرأ القرآن يقول يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أديبارها فبادرت الماء فاغتسلت وإني لأمس وجهي مخافة أن أطمس ثم أسلمت والتعقيب على هذا التهديد وكان أمر الله مفعولاً فيه توكيد للتهديد يناسب كذلك طبيعة اليهود ثم يجيء تعقيب يتضمن تهديداً آخر في الآخرة تهديداً بعدم المغفرة لجريمة الشرك مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب إن الله لا يغفر أن يشرك به ; ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك ; ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد ولا يذكر هنا القول أو الفعل الذي يعده عليهم شركاً وقد ورد في مواضع أخرى تفصيل لهذا فقد روى القرآن عنهم قولهم عزيز ابن الله كقول النصارى المسيح ابن الله وهو شرك لا شك فيه كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وهم لم يكونوا يعبدون الأخبار والرهبان إنما كانوا فقط يقرون لهم بحق التشريع حق التحليل والتحريم الحق الخاص بالله والذي هو من خصائص الألوهية ومن ثم اعتبرهم القرآن مشركين ولهذا الاعتبار قيمة خاصة في التصور الإسلامي الصحيح لحد الإسلام وشرط الإيمان كما سيجيء في سياق السورة بالتفصيل وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم في الجزيرة حافلة بالوثنيات منحرفة عن التوحيد والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركاً به لم يرجع في الدنيا عن شركه إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون مقطوعو الصلة بالله رب العالمين وما تشرك النفس بالله وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية إنما تفعله وقد فسدت فساداً لا رجعة فيه وتلفت فطرتها التي برأها الله عليها وارتدت أسفل سافلين وتهايت بذاتها لحياة الجحيم أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر والظلم العظيم الوقح الجاهر أما ما وراء ذلك من الذنوب والكبائر فإن الله يغفره لمن يشاء فهو داخل في حدود المغفرة بتوبة أو من غير توبة كما تقول بعض الروايات الماثورة الواردة ما دام العبد يشعر بالله ; ويرجو مغفرته ; ويستيقن أنه قادر على أن يغفر له ; وأن عفوه لا

يقصر عن ذنبه وهذا منتهى الأمد في تصوير الرحمة التي لا تنفذ ولا تحد ;
والمغفرة التي لا يوصد لها باب ; ولا يقف عليها بواب أخرج البخارى ومسلم
كلاهما عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن عبد العزيز بن رفيع عن زيد
بن وهب عن أبى ذر قال خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله ص يمشي
وحده وليس معه إنسان قال فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد قال
فجعلت أمشي في ظل القمر فالتفت فرأني فقال < من هذا > فقلت أبو
ذر جعلني الله فداك قال < يا أبا ذر تعال > قال فمشيت معه ساعة فقال
لي < إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرا فيجعل
بيته عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا > قال فمشيت
معه ساعة فقال لي < اجلس ها هنا > فأجلسني في قاع حوله حجارة فقال
لي < اجلس ها هنا حتى أرجع إليك > قال فانطلق في الحرة حتى لا أراه
فليث عنى حتى إذا طال الليث ثم إنى سمعته وهو مقبل يقول < وإن زنى
وإن سرق > قال فلما جاء لم أصبر حتى قلت يا نبي الله جعلني الله فداك
من تكلمه في جانب الحرة فإني سمعت أحدا يرجع إليك قال < ذلك جبريل
عرض لي جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا
دخل الجنة قلت أيا جبريل وإن سرق وإن زنى قال نعم قلت وإن سرق وإن

الخمير

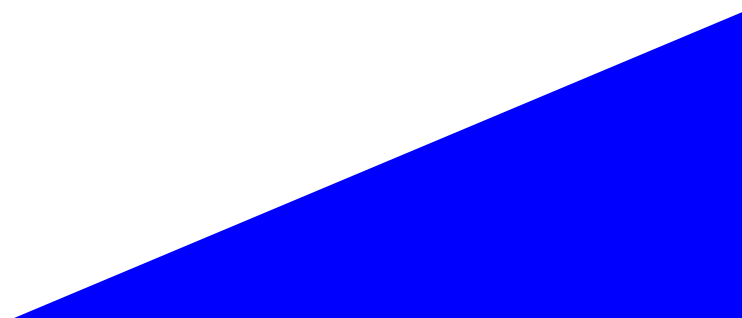
شرب

وإن

نعم

قال

زنى



حاتم بإسناده عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ص > ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئاً إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبها وإن شاء غفر لها إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء < وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عمر قال كنا أصحاب النبي ص لا نشك في قاتل النفس وأكل مال اليتيم وقاذف المحصنات وشاهد الزور حتى نزلت إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فأمسك أصحاب النبي ص عن الشهادة وروى الطبراني بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ص قال > قال الله عز وجل من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئاً < وفي هذا الحديث الأخير لمحة كاشفة فالمهم هو شعور القلب بالله على حقيقته سبحانه ومن وراء هذا الشعور الخير والرجاء والخوف والحياء فإذا وقع الذنب فمن ورائه هذه

الدرس الثالث تعجب من تزكية اليهود لأنفسهم ودفعهم بالكذب

ثم يمضي القرآن وهو يخوض المعركة بالجماعة المسلمة مع اليهود في المدينة يعجب من أمر هؤلاء الخلق ؛ الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار ؛ ويشنون على أنفسهم ؛ ويزكونها ؛ بينما هم يحرفون الكلم عن مواضعه ويتناولون على الله ورسوله كما سبق وبينما هم يؤمنون بالجبوت والطاغوت كما سيجيء كاذبين على الله في تزكيتهم لأنفسهم وفي زعمهم أنهم مقربون إليه مهما عملوا من السوء ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً ودعوى اليهود أنهم شعب الله المختار هي دعواهم من قديم وقد اختارهم الله فعلاً لحمل الأمانة وأداء الرسالة وفضلهم على العالمين في ذلك الأوان ؛ وأهلك لهم فرعون وملأه وأورثهم الأرض المقدسة ولكنهم هم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله ؛ وعتوا في الأرض عتوا كبيراً واجترحوا السيئات التي تصح منها الأرض وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله وحرّموا عليهم ما أحله لهم واتبعوهم ؛ ولم ينكروا عليهم حق الألوهية هذا الذي ادعوه عملياً بهذا التحريم والتحليل وقد بدل هؤلاء الأحبار في شريعة الله ليرضوا ذوي السلطان والشرفاء ؛ وليملقوا كذلك رغبات الجماهير وأهواءهم وبذلك اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله وأكلوا الربا ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابة الذي أنزله عليهم وعلّ الرغم من ذلك كله وغيره كثير فقد ظلوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا إياماً معدودة وأنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله إلا من كان هوداً كان المسألة مسألة قرابة ونسب ومحابة بينهم وبين الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب ؛ إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح والاستقامة على منهج الله فمن أخل بهذا فقد غضب الله عليه ويشتد غضبه إذا كان قد أتى الضالين الهدى فانحرفوا عنه وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم ويحسبون أنهم من أمة محمد ص وأن الله لا بد ناصرهم ومخرج لهم اليهود من أرضهم بينما هم ينسلخون انسلخاً كاملاً من دين الله الذي هو منهجه للحياة ؛ فينبذونه من حياتهم ؛ ولا يتحامون إلى كتاب الله لا في

أقضيتهم ولا في اقتصادهم ولا في اجتماعهم ولا في آدابهم ولا في تقاليدهم وكل ما لهم من الإسلام أسماء المسلمين وأنهم ولدوا في أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم ويقومون فيها دين الله ويحكمون منهجه في الحياة والله يعجب رسوله ص من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم وأمر المسلمين المعاصرين أعجب وأشد إثارة للتعجب والتعجب إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم ; ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله إنما الله هو الذي يزكي من يشاء فهو أعلم بالقلوب والأعمال ولن يظلم الناس شيئا وإذا هم تركوا هذا التقدير لله سبحانه واتجهوا إلى العمل لا إلى الادعاء فلئن عملوا وهم ساكتون متواضعون في حياء من الله وبدون تزكية ولا ادعاء فلن يغبنوا عند الله ; ولن ينسى لهم عمل ; ولن يخس لهم حق والله سبحانه يشهد على اليهود أنهم إذ يزكون أنفسهم ويدعون أن الله راض عنهم يفترون عليه الكذب ويشنع بفعلتهم هذه ويوجه الأنظار إلى بشاعتها انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا وما أرى أننا الذين ندعي الإسلام لأننا نحمل أسماء المسلمين ونعيش في أرض كان يسكنها المسلمون بينما نحن لا نجعل الإسلام في شيء من منهجنا في الحياة ما أحسبنا ونحن ندعي الإسلام فنشوه الإسلام بصورتنا وواقعنا ; ونؤدي ضده شهادة منفرة منه ثم ونحن ندعي أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ص بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طردا ما أحسبنا إلا في مثل هذا الموضع الذي يعجب الله سبحانه منه رسوله ص ويدمغ أصحابه بافتراء الكذب على الله وارتكاب هذا الإثم المبين والعياذ بالله إن دين الله منهج حياة وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود الذين يعجب الله من حالهم ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم فالقاعدة هي القاعدة والحال هي الحال وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محابة

الدرس الرابع من صفات اليهود الذميمة وأفعالهم المرذولة

ويمضي السياق في التعجب من أمر أولئك الذين يزكون أنفسهم بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكام التي لا تستند إلى شرع الله وليس لها ضابط منه يعصمها من الطغيان الجبوت والطاغوت وبينما هم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته ويحمل عليهم بعد التعجب من أمرهم وذكر هذه المخازي عنهم حملة عنيفة ; ويرذلهم ترذيلًا شديدًا ; ويظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل ; والأسباب الحقيقية التي تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم عن دين إبراهيم الذي يفخرون بالانتساب إليه وينتهي هذه الحملة بتهديدهم بجهنم وكفى بجهنم سعيرًا ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ; وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن

به ومنهم من صد عنه ; وكفى بجهنم سعيًا لقد كان الذين أوتوا نصيبا من الكتاب أولى الناس أن يتبعوا الكتاب ; وأن يكفروا بالشرك الذي يعتنقه من لم يأتهم من الله هدى ; وأن يحكموا كتاب الله في حياتهم فلا يتبعوا الطاغوت وهو كل شرع لم يأذن به الله وكل حكم ليس له من شريعة الله سند ولكن اليهود الذين كانوا يزكون أنفسهم ويتباهون بأنهم أحباء الله كانوا في الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأخبار يشرعون لهم ما لم يأذن به الله وكانوا يؤمنون بالطاغوت ; وهو هذا الحكم الذي يقوم على غير شريعة الله وهو طاغوت لما فيه من طغيان بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية وهي الحакمية وعدم انضباطه بحدود من شرع الله تلزمه العدل والحق فهو طغيان وهو طاغوت ; والمؤمنون به والمتبعون له مشركون أو كافرون يعجب الله من أمرهم وقد أوتوا نصيبا من الكتاب فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجيت والطاغوت موقفهم في صف المشركين الكفار ضد المؤمنين الذين آتاهم الله الكتاب أيضا ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا قال ابن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وعطفان وبنی قريظة حبي بن أخطب وسلام بن الحقيق وأبو رافع والربيع بن الحقيق وأبو عامر ووحوح بن عامر وهودة بن قيس فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بني وائل وكان سائرهم من بني النضير فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أخبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد فسألوهم فقالوا دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه فأنزل الله عز وجل ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب إلى قوله عز وجل وآتيناهم ملكا عظيما وهذا لعن لهم وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب ; حتى حفر النبي ص وأصحابه حول المدينة الخندق وكفى الله شرهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا وكان عجيبا أن يقول اليهود إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه وإن المشركين أهدى سبيلا من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله ص ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود إنه موقفهم دائما من الحق والباطل ومن أهل الحق وأهل الباطل إنهم ذوو أطماع لا تنتهي وذوو أهواء لا تعتدل وذوو أحقاد لا تزول وهم لا يجدون عند الحق وأهله عوناً لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم إنما يجدون العون والنصرة دائما عند الباطل وأهله ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق ; ولأهل الباطل ضد أهل الحق هذه حال دائمة سببها كذلك قائم وكان طبيعيا منهم ومنطقيا أن يقولوا عن الذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا وهم يقولونها اليوم وغدا إنهم يشوهون بوسائل الدعاية والإعلام التي في أيديهم كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض ; ويعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها بالضبط كما كانوا يعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها ولكنهم أحيانا لخبثهم ولتمرسهم بالحيل الماكرة ولملابسات العصر الحديث قد لا يثنون ثناء مكشوفاً على الباطل وأهله بل يكتفون بتشويه الحق وأهله ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه

ذلك أن ثنائهم المكشوف في هذا الزمان أصبح متهما وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين الذين يعملون لحسابهم في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان بل لقد يبلغ بهم المكر والحدق أحيانا أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم الذين يسحقون لهم الحق وأهله ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام ليعيدوا الشبهة تماما عن أخلص حلفائهم الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة ولكنهم لا يكفون أبدا عن تشويه الإسلام وأهله لأن حقدهم على الإسلام وعلى كل شبح من بعيد لأى بعث إسلامي أضخم من أن يداروه ولو للخداع والتمويه إنها جيلة واحدة وخطة واحدة وغاية واحدة هي التي من أجلها يجبههم الله باللعة والطرده وفقدان النصير والذي يفقد نصرة الله فما له من ناصر وما له من معين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ولقد يهولنا اليوم أن تجد دول الغرب كلها نصيرا لليهود فنسأل وأين وعد الله بأنه لعنهم وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيرا ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس ليس هو الدول ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ إنما الناصر الحق هو الله القاهر فوق عباده ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ والله ناصر من ينصره ولينصرن الله من ينصره والله معين من يؤمن به حق الإيمان ويتبع منهجه حق الاتباع ; ويتحاكم إلى منهجه في رضى وفي تسليم ولقد كان الله سبحانه يخاطب بهذا الكلام أمة مؤمنة به متبعة لمنهجه محتكمة إلى شريعته وكان يهون من شأن عدوها اليهود وناصرهم وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم اليهود لا نصير لهم وقد حقق الله لهم وعده الذى لا يناله إلا المؤمنون حقا والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم فلا يهولتنا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين فليست هذه هي النصرة ولكن كذلك لا يخدعنا هذا وإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين ويوم يكونون مسلمين وليحاول المسلمون أن يجربوا مرة واحدة أن يكونوا مسلمين ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير أو أن ينفعهم هذا النصير وبعد التعجب من أمرهم وموقفهم وقولهم ; وإعلان اللعنة عليهم والخذلان يأخذ في استنكار موقفهم من الرسول ص والمسلمين ; وغيظهم من أن يمن الله عليهم هذه المنة منة الدين والنصر والتمكين وحسدهم لهم على ما أعطاهم الله من فضله وهم لم يعطوهم من عندهم شيئا ويكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم ; واستكثار أى عطاء يناله غيرهم ; مع أن الله قد أفاض عليهم وعلى آبائهم فلم يعلمهم هذا الفيض السماحة ; ولم يمنعهم من الحسد والكنود أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما يا عجا إنهم لا يطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده فهل هم شركاؤه سبحانه هل لهم نصيب في ملكه الذي يمنح منه ويفيض ولو كان لهم نصيب لضعفوا بكَزازتهم وشحهم أن يعطوا الناس نقيرا والنقيير النقرة تكون في ظهر النواة وهذه لا تسمح كزازة يهود وآثرتها البغيضة أن تعطيا للناس لو كان لها في الملك نصيب والحمد لله أن ليس لها في الملك نصيب وإلا لهلك الناس جميعا وهم لا يعطون حتى النقيير أم لعله حسد حسد رسول الله ص والمسلمين على ما آتاهم الله من فضله من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة

أخرى ووهب لهم ميلادا جديدا وجعل لهم وجودا إنسانيا متميزا ; ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين ; كما وهبهم النظافة والطهر مع العز والتمكين وإنه فعلا للحسد من يهود مع تفويت أطماعها في السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين يوم أن لم يكن لهم دين ولكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والتمكين في الأرض وهم غارقون في فضل الله من عهد إبراهيم الذي آتاه الله وآله الكتاب والحكمة وهي النبوة وآتاهم الملك كذلك والسيادة وهم لم يرعوا الفضل ولم يحتفظوا بالنعمة ولم يصونوا العهد القديم بل كان منهم فريق من غير المؤمنين ومن يؤت هذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه إنه لمن ألام الحسد أن يحسد ذو النعمة الموهوب لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة فهذا هو الشر الأصيل العميق شر يهود المتميز الفريد ومن ثم يكون التهديد بالسعير هو الجزاء المقابل لهذا الشر النكير وكفى بجهنم سعيرا

الدرس السادس القاعدة الشاملة للجزاء

وعندما يبلغ السياق هذا المقطع من ذكر الإيمان والصدود عن الإيمان في آل إبراهيم يعقب القاعدة الشاملة للجزاء جزاء المكذبين وجزاء المؤمنين هؤلاء وهؤلاء أجمعين في كل دين وفي كل حين ; ويعرض هذا الجزاء في صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة الرعبية إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إنه مشهد لا يكاد ينتهي مشهد شاخص متكرر يشخص له الخيال ولا ينصرف عنه إنه الهول ولل هول جاذبية أسرة قاهرة والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد كلما ويرسمه كذلك عنيفا مفرعا بشطر جميلة كلما نضجت جلودهم ويرسمه عجيبا خارقا للمألوف بتكملة الجملة بدلناهم جلودا غيرها ويجمل الهول الرهيب المفزع العنيف كله في جملة شرطية واحدة لا تزيد ذلك جزاء الكفر وقد تهيأت أسباب الإيمان وهو مقصود وهو جزاء وفاق ليذوقوا العذاب ذلك أن الله قادر على الجزاء حكيم في توقيعة إن الله كان عزيزا حكيما وفي مقابل هذا السعير المتأجج وفي مقابل الجلود الناضجة المشوية المعذبة كلما نضجت بدلت ليعود الاحتراق من جديد ويعود الألم من جديد في مقابل هذا المشهد المكروب الملهوف نجد الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات ندية تجري من تحتها الأنهار ونجد في المشهد ثباتا وخلودا مطمئنا أكيدا خالدين فيها أبداً ونجد في الجنات والخلد الدائم أزواجا مطهرة لهم فيها أزواج مطهرة ونجد روح الضلال الندية ; يرف على مشهد النعيم وندخلهم ظلا ظليلا تقابل كامل في

الجزء وفي المشاهد وفي الصور وفي الإيقاع على طريقة القرآن في
مشاهد القيامة ذات الإحياء القوي النافذ العميق

الوحدة السادسة نظام الأمة الأساسي وشرط الإيمان وحد الإسلام

مقدمة الوحدة

الدرس الأول واجب الأمة رد الأمانة والحكم بالعدل
الدرس الثاني الميزان طاعة الله ورسوله ورد الأمر إلى الله
ورسوله

الدرس الثالث التحاكم إلى الطاعات
الدرس الرابع بسر التكليف الشرعية وثواب الملتزم بها
الدرس الخامس الصالحون مع الصالحين في الجنة

مقدمة الوحدة

إنشاء القرآن للأمة المسلمة هذا الدرس يتناول موضوعاً خطيراً الموضوع الأساسي في حياة الأمة المسلمة إنه يتناول بيان شرط الإيمان وحده ; متمثلاً في النظام الأساسي لهذه الأمة ومن الموضوع في ذاته ومن طريقه ارتباطه وامتزاجه بالنظام الأساسي للأمة يستمد خطورته وخطره إن القرآن وهو ينشئ هذه الأمة وينشئها وهو يخرجها إلى الوجود إخراجاً كما قال الله تعالى في التعبير القرآني الدقيق كنتم خير أمة أخرجت للناس إن القرآن وهو ينشئ هذه الأمة من حيث لم تكن ; وينشئها لتصبح أمة فريدة في تاريخ البشر خير أمة أخرجت للناس ويجب أن نؤكد هذه الحقيقة ونوضحها قبل المضي في الحديث حقيقة إنشاء القرآن لهذه الأمة وتنشئتها معا فقد كانت على التحقيق إنشاءً وتنشئةً كانت ميلاداً جديداً للأمة ; بل ميلاداً جديداً للإنسان في صورة جديدة ولم تكن مرحلة في طريق النشأة ; ولا خطوة في سبيل التطور ولا حتى وثبة من وثبات النهضة إنما كانت على وجه التحديد نشأة وميلاداً للأمة العربية وللإنسان كله وحين ننظر إلى الشعر الجاهلي والنتف الأخرى من المأثورات الجاهلية وهو ديوان العرب الذي تضمن أعلى وأخلد ما كان للعرب من نظرة للحياة والوجود والكون والإنسان والخلق والسلوك ; كما تضمن معالم حياتهم ومكنون مشاعرهم ومجموع تصوراتهم ; ولباب ثقافتهم وحضارتهم ; وكيونتهم كلها باختصار حين ننظر إلى مجموعة الثقافات والتصورات والقيم التي يتضمنها هذا الديوان ; في ظل القرآن ; وما تضمنه من نظرة للوجود والحياة وللكون والإنسان ; ومن قيم في الحياة الإنسانية ; ومن نظام للمجتمع ; ومن تصور لغاية الوجود الإنساني ومن تنظيم واقعي يقوم على أساس هذا التصور ثم

ننظر إلى واقع العرب قبل الإسلام وبعده في ظل تلك التصورات الجاهلية التي تتمثل في ديوانها ثم في ظل هذه التصورات القرآنية التي تمثل المنهج الرباني حين ننظر إلى الديوان المأثور والحياة الواقعية في ظل القرآن وواقع الحياة الإسلامية يتبين لنا على وجه التأكيد والتحديد أنها كانت نشأة ولم تكن خطوة ولا مرحلة ولا وثبة كانت إخراجاً من صنع الله ; كتعبير القرآن الدقيق وكانت أعجب نشأة ; وأغرب إخراج فيهي المرة الأولى والأخيرة فيما نعلم التي تنبثق فيها أمة من بين دفني كتاب و تخرج فيها حياة من خلال الكلمات ولكن لا عجب فهذه الكلمات كلمات الله ومن أراد المجادلة والمماحلة فليقل لنا أين كانت هذه الأمة قبل أن يخرجها الله بكلماته ; وقيل أن ينشئها الله بقرآنه إننا نعرف أنها كانت في الجزيرة العربية ولكن أين كانت في الوجود الإنساني أين كانت في سجل الحضارة البشرية أين كانت في التاريخ العالمي أين كانت تجلس على المائدة العالمية الإنسانية وماذا كانت تقدم على هذه المائدة فيعرف باسمها ويحمل طابعها لقد نشأت هذه الأمة نشأتها بهذا الدين ; ونشئت تنشئتها بهذا المنهج القويم ; وقادت نفسها وقادت البشرية بعد ذلك بكتاب الله الذي في يدها وبمنهجه الذي طبع حياتها لا بشيء آخر وأمامنا التاريخ وقد صدقها الله وعده وهو يقول للعرب لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون فبسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الأمة في الأرض ; وكان لها دورها في التاريخ ; وكان لها وجود إنساني ابتداءً وحضارة عالمية ثانياً ذلك بينما يريد جماعة من الحمقى أن يرفضوا نعمة الله هذه على الأمة العربية ; ويجحدوا فضل الله في أن جعل كلمته الأخيرة لأهل الأرض قاطبة في العرب ولسانهم ومن ثم جعل لهم وجوداً وذكرًا وتاريخاً وحضارة يريدون أن يخلعوا هذا الرداء الذي ألبسهم الله إياه ; وأن يمزقوا هذه الراية التي قادتهم إلى الذكر والمجد بل إلى الوجود يوم أخرج الله منهم الأمة المسلمة نقول إن القرآن حين كان ينشئ هذه الأمة و ينشئها ويخطط ويثبت ملامح الإسلام الجديدة في الجماعة المسلمة التي التقطها من سفح الجاهلية ويطمس ويمحو ملامح الجاهلية في حياتها ونفوسها ورواسبها وينظم مجتمعها أو يقيمه ابتداءً على أساس الميلاد الجديد وحين كان يخوض بالجماعة المسلمة المعركة ; في مواجهة الجاهلية الراسية في نفوسها وأوضاعها من مخلفات البيئة التي التقطها المنهج الرباني منها ; وفي مواجهة الجاهلية الرابضة فيها ومن حولها ممثلة في يهود المدينة ومناقبيها ومشركي مكة وما حولها والمعركتان موصولتان في الزمان والمكان حين كان القرآن يصنع ذلك كله كان يبدأ فيقيم للجماعة المسلمة تصورها الصحيح ببيان شرط الإيمان وحد الإسلام ; ويربط بهذا التصور في هذه النقطة بالذات نظامها الأساسي الذي يميز وجودها من وجود الجاهلية حولها ; ويفردها بخصائص الأمة التي أخرجت للناس لتبين للناس وتقودهم إلى الله نظامها الرباني وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسي قائماً ومنبثقاً من التصور الإسلامي لشرط الإيمان وحد الإسلام إنه يتولى تحديد الجهة التي تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها ; والطريقة التي تتلقى بها ; والمنهج الذي تفهم به ما تتلقى وترد إليه ما يجد من مشكلات وأقضية لم يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها ; والسلطة التي تطيعها وعلّة طاعتها ومصدر سلطانها ويقول إن هذا هو شرط الإيمان وحده الإسلام وعندئذ يلتقي النظام الأساسي لهذه الأمة ; بالعميقة التي تؤمن بها في وحدة لا

تتجزأ ؛ ولا تفترق عناصرها وهذا هو الموضوع الخطير الذي يجلوه هذا
الدرس جلاء دقيقا كاملا وهذه هي القضية التي تبدو بعد مطالعة هذا
الدرس بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل مسلم فيها إنه يقول للأمة
المسلمة إن الرسل أرسلت لتطاع بإذن الله لا لمجرد الإبلاغ والإقناع وما
أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ويقول لها إن الناس لا يؤمنون ابتداء
إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله ؛ ممثلا في حياة الرسول ص في أحكام
الرسول وبقايا بعده في مصدره القرآن والسنة بالبداية ؛ ولا يكفي أن
يتحاكموا إليه ليحسبوا مؤمنين بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين
فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام
ويقول لها إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت أي إلى غير شريعة
الله لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من
قبله فهو زعم كاذب يكذبه أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ألم تر
إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن
يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم
ضلالا بعيدا ويقول لها إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل
الله والتحاكم إلى رسول الله وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى
الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ويقول لها إن منهجها الإيمان
ونظامها الأساسي أن تطيع الله عز وجل في هذا القرآن وأن تطيع رسول
الله ص في سنته وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الإيمان
وحد الإسلام معكم يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي
الأمر منكم ويقول لها إن المرجع فيما تختلف فيه وجهات النظر في
المسائل الطارئة المتجددة والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية إن
المرجع هو الله ورسوله أي شريعة الله وسنة رسوله فإن تنازعتم في
شيء فردوه إلى الله والرسول وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمنا على ما
يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك أبد الدهر في حياة الأمة
المسلمة وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي الذي لا تكون مؤمنة إلا به
ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك ورد
المسائل التي تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله شرط
الإيمان وحد الإسلام شرطا واضحا ونصا صريحا إن كنتم تؤمنون بالله
واليوم الآخر ولا ننس ما سبق بيانه عند قوله تعالى إن الله لا يغفر أن
يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء من أن اليهود وصموا بالشرك بالله
لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم أربابا من دون الله لا لأنهم عبدوهم ولكن لأنهم
قبلوا منهم التحليل والتحرير ؛ ومنحوهم حق الحاكمية والتشريع ابتداء من
عند أنفسهم فجعلوا بذلك مشركين الشرك الذي يغفر الله كل ما عداه
حتى الكبائر > وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر < فرد الأمر كله إلى
إفراد الله سبحانه بالألوهية ومن ثم إفراده بالحاكمية فهي أخص خصائص
الألوهية وداخل هذا النطاق يبقى المسلم مسلما ويبقى المؤمن مؤمنا
ويطمع أن يغفر له ذنوبه ومنها كبائره أما خارج هذا النطاق فهو الشرك
الذي لا يغفره الله أبدا إذ هو شرط الإيمان وحد الإسلام إن كنتم تؤمنون
بالله واليوم الآخر هذا هو الموضوع الخطير الذي يتناوله هذا الدرس
بالإضافة إلى بيان وظيفة الأمة المسلمة في الأرض من إقرار مبادئ
العدل والخلق على أساس منهج الله القويم السليم إن الله يأمركم أن

تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله
نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا وقد ألممنا به إجمالا فنأخذ في
مواجهة النصوص تفصيلا

الدرس الأول واجب الأمة رد الأمانة والحكم بالعدل

إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ; وإذا حكمتم بين الناس أن
تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا هذه هي
تكاليف الجماعة المسلمة ; وهذا هو خلقها أداء الأمانات إلى أهلها والحكم
بين الناس بالعدل على منهج الله وتعليمه والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى
الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان ; والتي أبت السماوات والأرض
والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان أمانة الهداية والمعرفة
والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه فهذه أمانة الفطرة الإنسانية
خاصة فكل ما عدا الإنسان ألهمه ربه الإيمان به والاهتداء إليه ومعرفته
وعبادته وطاعته وألزمه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ولا إرادة ولا
اتجاه والإنسان وحده هو الذي وكل إلى فطرته وإلى عقله وإلى معرفته
وإلى إرادته وإلى اتجاهه وإلى جهده الذي يبذله للوصول إلى الله يعون من
الله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها
أول ما يؤدي من الأمانات ومن هذه الأمانة الكبرى تنبثق سائر الأمانات
التي يأمر الله أن تؤدي ومن هذه الأمانات أمانة الشهادة لهذا الدين
الشهادة له في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له ترجمة
حية في شعورها وسلوكها حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس
فيقولوا ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه ; وهو يصوغ نفوس أصحابه
على هذا المثال من الخلق والكمال فتكون هذه شهادة لهذا الدين في
النفس يتأثر بها الآخرون والشهادة له بدعوة الناس إليه وبيان فضله ومزيته
بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية فما يكفي أن يؤدي
المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك
وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان وهي إحدى الأمانات ثم
الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض ; منهجا للجماعة المؤمنة ;
ومنهجا للبشرية جميعا المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة وبكل ما
تملك الجماعة من وسيلة فأقرار هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى
الأمانات ; بعد الإيمان الذاتي ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا
جماعة ومن ثم ف < الجهاد ماض إلى يوم القيامة > على هذا الأساس أداء
لإحدى الأمانات ومن هذه الأمانات الداخلة في ثنايا ما سبق أمانة التعامل
مع الناس ; ورد أماناتهم إليهم أمانة المعاملات والودائع المادية وأمانة
النصيحة للراعي وللرعية وأمانة القيام على الأطفال الناشئة وأمانة
المحافظة على حرمة الجماعة وأموالها وثغراتها وسائر ما يجلوه المنهج
الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالي الحياة على وجه الإجمال
فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدي ; ويحملها النص هذا الإجمال فاما
الحكم بالعدل بين الناس فالنص يطلقه هكذا عدلا شاملا بين الناس جميعا
لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب ولا عدلا مع أهل الكتاب دون

سائر الناس وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه إنساناً فهذه الصفة صفة الناس هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعاً مؤمنين وكفاراً وأعداء وسوداً وبيضاً عرباً وعجماً والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل متى حكمت في أمرهم هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط في هذه الصورة إلا على يد الإسلام وإلا في حكم المسلمين وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية والذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة ; فلم تذوق له طعماً قط في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتاح للناس جميعاً لأنهم ناس لا لآية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه الناس وذلك هو أساس الحكم في الإسلام ; كما أن الأمانة بكل مدلولاتها هي أساس الحياة في المجتمع الإسلامي والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ; والحكم بين الناس بالعدل ; هو التذكير بأنه من وعظ الله سبحانه وتوجيهه ونعم ما يعظ الله به ويوجه إن الله نعماً يعظكم به ونقف لحظة أمام التعبير من ناحية أسلوب الأداء فيه فالأصل في تركيب الجملة إنه نعم ما يعظكم الله به ولكن التعبير يقدم لفظ الجلالة فيجعله اسم إن ويجعل نعم ما نعماً ومتعلقاتها في مكان خبر إن بعد حذف الخبر ذلك ليوحى بشدة الصلة بين الله سبحانه وهذا الذي يعظهم به ثم إنها لم تكن عظة إنما كانت أمراً ولكن التعبير يسميه عظة لأن العظة أبلغ إلى القلب وأسرع إلى الوجدان وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة الحياء ثم يجيء التعقيب الأخير في الآية ; يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه إن الله كان سميعاً بصيراً والتناسق بين المأمور به من التكليف ; وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ; وبين كون الله سبحانه سميعاً بصيراً مناسبة واضحة ولطيفة معاً فالله يسمع ويبصر قضايا العدل وقضايا الأمانة والعدل كذلك في حاجة إلى الاستماع البصير وإلى حسن التقدير وإلى مراعاة الملابس والظواهر وإلى التعمق فيما وراء الملابس والظواهر وأخيراً فإن الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور

الدرس الثاني الميزان طاعة الله ورسوله ورد الأمر إلى الله ورسوله

وبعد فالأمانة والعدل ما مقياسهما ما منهج تصورهما وتحديدتهما وتنفيذهما في كل مجال في الحياة وفي كل نشاط للحياة أترك مدلول الأمانة والعدل ; ووسائل تطبيقها وتحقيقهما إلى عرف الناس واصطلاحهم وإلى ما تحكم به عقولهم أو أهواؤهم إن للعقل البشري وزنه وقيمه بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان هذا حق ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات متأثراً بشتى المؤثرات ليس هناك ما يسمى العقل البشري كمدلول مطلق إنما هناك عقلي وعقلك وعقل فلان وعقل هذه المجموعة من البشر في مكان ما وفي زمان ما وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى ; تميل بها من هنا وتميل بها من هناك ولا يد من ميزان ثابت ترجع إليه هذه العقول الكثيرة ; فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها ومدى الشطط والغلو أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات وقيمة العقل البشري هنا هو

أنه الأداة المهيأة للإنسان ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان الميزان الثابت الذي لا يميل مع الهوى ولا يتأثر بشتى المؤثرات ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها فتختل جميع القيم ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم والله يضع هذا الميزان للبشر للأمانة والعدل ولسائر القيم وسائر الأحكام وسائر أوجه النشاط في كل حقل من حقول الحياة يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ; وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً وفي هذا النص القصير يبين الله سبحانه شرط الإيمان وحد الإسلام في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة ; وقاعدة الحكم ومصدر السلطان وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده ; والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصاً من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال ; مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام ليكون هنالك الميزان الثابت الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام إن الحاكمية لله وحده في حياة البشر ما جل منها وما دق وما كبر منها وما صغر والله قد سن شريعة أودعها قرآنه وأرسل بها رسولا يبينها للناس ولا ينطق عن الهوى فسنته ص من ثم شريعة من شريعة الله والله واجب الطاعة ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة فشريعته واجبة التنفيذ وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداءً وأن يطيعوا الرسول بما له من هذه الصفة صفة الرسالة من الله فطاعته إذن من طاعة الله الذي أرسله بهذه الشريعة وبيانها للناس في سنته وسنته وقضاؤه على هذا جزء من الشريعة واجب النفاذ والإيمان يتعلق وجوداً وعدمًا بهذه الطاعة وهذا التنفيذ بنص القرآن إن كنم تؤمنون بالله واليوم الآخر فأما أولو الأمر ; فالنص يعين من هم وأولي الأمر منكم أي من المؤمنين الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية من طاعة الله وطاعة الرسول ; وإفراد الله سبحانه بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداءً ; والتلقي منه وحده فيما نص عليه والرجوع إليه أيضاً فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء مما لم يرد فيه نص ; لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه والنص يجعل طاعة الله أصلاً ; وطاعة رسوله أصلاً كذلك بما أنه مرسل منه ويجعل طاعة أولي الأمر منكم تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم كما كررها عند ذكر الرسول ص ليقدر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله بعد أن قرر أنهم منكم بقيد الإيمان وشرطه وطاعة أولي الأمر منكم بعد هذه التقريرات كلها في حدود المعروف المشروع من الله والذي لم يرد نص بحرمة ; ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مبادئ شريعته عند الاختلاف فيه والسنة تقرر حدود هذه الطاعة على وجه الجزم واليقين في الصحيحين من حديث الأعمش > إنما الطاعة في المعروف < وفيهما من حديث يحيى القطان > السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة < وأخرج مسلم من حديث أم الحصين > ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا < بهذا يجعل الإسلام كل فرد أميناً على شريعة الله وسنة رسوله أميناً على إيمانه وهو ودينه أميناً على نفسه وعقله أميناً على مصيره في الدنيا والآخرة ولا يجعله بهيمة في القطيع ; تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع فالمنهج

واضح وحدود الطاعة واضحة والشريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد ولا تتفرق ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون ذلك فيما ورد فيه نص صريح فأما الذي لم يرد فيه نص وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات ولا يكون فيه نص قاطع أو لا يكون فيه نص على الإطلاق مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام فإنه لم يترك كذلك تيهها ولم يترك بلا ميزان ولم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع ووضع هذا النص القصير منهج الاجتهاد كله وحدده بحدوده ; وأقام الأصل الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضا فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمنا فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته وهذه ليست قائمة ولا فوضي ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول وهناك في هذا الدين مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح تغطي كل جوانب الحياة الأساسية وتضع لها سياجا خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر تلك الطاعة لله والطاعة للرسول ولأولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة الله وسنة الرسول ورد ما يتنازع فيه إلى الله والرسول هذه وتلك شرط الإيمان بالله واليوم الآخر كما أنها مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر فلا يوجد الإيمان ابتداء وهذا الشرط مفقود ولا يوجد الإيمان ثم يتخلف عنه أثره الأكيد وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي يقدمها مرة أخرى في صورة العظة والترغيب والتحبيب ; على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب ذلك خير وأحسن تأويلا ذلك خير لكم وأحسن مالا خير في الدنيا وخير في الآخرة وأحسن مالا في الدنيا وأحسن مالا في الآخرة كذلك فليست المسألة أن اتباع هذا المنهج يؤدي إلى رضا الله وثواب الآخرة وهو أمر هائل عظيم ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحسن مال الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة أن هذا المنهج معناه أن يستمتع الإنسان بمزايا منهج يضعه له الله الصانع الحكيم العليم البصير الخبير منهج بريء من جهل الإنسان وهوى الإنسان وضعف الإنسان وشهوة الإنسان منهج لا محاباة فيه لفرد ولا لطبقة ولا لشعب ولا لجنس ولا لجيل من البشر على جيل لأن الله رب الجميع ولا تخالجه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا شهوة المحاباة لفرد أو طبقة أو شعب أو جنس أو جيل ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الإنسان الذي يعلم حقيقة فطرته والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها ; ووسائل خطابها وإصلاحها فلا يخطب سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا في تيه التجارب بحثا عن منهج يوافق ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية حين يخطبون هم في التيه بلا دليل وحسبهم أن يجربوا في ميدان الإبداع المادي ما يشاءون فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشري وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج ; ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون الذي يعيش فيه الإنسان فهو يضمن للإنسان منهجا تتلاءم قواعده مع نواميس الكون ; فلا يروح يعارك هذه النواميس بل يروح يتعرف إليها ويصادقها وينتفع بها والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه ومنهج من مزاياه أنه في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه يكرمه

ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل في المنهج مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة ثم الاجتهاد في رد ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادئ العامة للدين ذلك إلى المجال الأصيل الذي يحكمه العقل البشري ويعلن فيه سيادته الكاملة ميدان البحث العلمي في الكون ; والإبداع المادي فيه ذلك خير وأحسن تأويلاً وصدق الله العظيم

الدرس الثالث التحاكم إلى الطاغوت

وحين ينتهي السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية في شرط الإيمان وحد الإسلام وفي النظام الأساسي للأمم المسلمة وفي منهج تشريعها وأصوله يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة ; ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مؤمنون وهم ينقضون شرط الإيمان وحد الإسلام إذ يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به يلتفت إليهم ليعجب من أمرهم ويستنكر وليحذرهم وأمثالهم من إرادة الشيطان بهم الضلال ويصف حالهم حين يدعون إلى ما أنزل الله وإلى الرسول فيصدون ويعتبر هذا الصدود نفاقاً كما اعتبر إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت خروجاً من الإيمان بل وعدم دخول فيه ابتداءً كما يصف معاذيرهم الواهية الكاذبة في اتباع هذه الخطة المستنكرة حين تجر عليهم الوبال والنكال ومع هذا كله فهو يوجه رسول الله ص إلى النصح لهم وموعظتهم ويختم المقطع كله ببيان ما أراده الله سبحانه من إرسال الرسل وهو أن يطاعوا ثم بنص صريح جازم في شرط الإيمان وحد الإسلام مرة أخرى ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ; ويسلموا تسليماً إن هذا التصوير لهذه المجموعة التي تصفها النصوص يوحى بأن هذا كان في أوائل العهد بالهجرة يوم كان للنفاق صولة ; وكان لليهود الذين يتبادلون التعاون مع المنافقين قوة وهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله إلى الطاغوت قد يكونون جماعة من المنافقين كما صرح بوصفهم في الآية الثانية من هذه المجموعة وقد يكونون جماعة من اليهود الذين كانوا يدعون حين تجد لهم قضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها التوراة أحياناً وإلى حكم الرسول أحياناً كما وقع في بعض القضايا فيرفضون ويتحاكمون إلى العرف الجاهلي الذي كان سائداً ولكننا نرجح الفرض الأول لقوله فيهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك واليهود لم يكونوا يسلمون أو يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول إنما كان المنافقون

هم الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله كما هو مقتضى العقيدة الإسلامية من الإيمان بالرسول كلهم وهذا لم يكن يقع إلا في السنوات الأولى للهجرة قيل أن تخضد شوكة اليهود في بني قريظة وفي خيبر وقبل أن يتضاءل شأن المنافقين بانتهاء شأن اليهود في المدينة على أية حال نحن نجد في هذه المجموعة من الآيات تحديدا كاملا دقيقا حاسما لشرط الإيمان وحد الإسلام ونجد شهادة من الله بعدم إيمان الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به كما نجد قسما من الله سبحانه بذاته العلية أنهم لا يدخلون في الإيمان ; ولا يحسبون مؤمنين حتى يحكموا الرسول ص في أقضيتهم ثم يطيعوا حكمه وينفذوا قضاءه طاعة الرضى وتنفيذ الارتياح القلبي ; الذي هو التسليم لا عجزا واضطرارا ولكن طمأنينة وارتضاء ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضللا بعيدا ألم تر إلى هذا العجب العاجب قوم يزعمون الإيمان ثم يهدمون هذا الزعم في أن قوم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر وإلى منهج آخر وإلى حكم آخر يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذي لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ولا ضابط له ولا ميزان مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ومن ثم فهو طاغوت طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضا وهم لا يفعلون هذا عن جهل ولا عن ظن إنما هم يعلمون يقينا ويعرفون تماما أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه وقد أمروا أن يكفروا به فليس في الأمر جهالة ولا ظن بل هو العمد والقصد ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم زعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك إنما هو الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب ويريد الشيطان أن يضلهم ضللا بعيدا فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت هذا هو الدافع يكشفه لهم لعلمهم يتنبهون فيرجعوا ويكشفه للجماعة المسلمة لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك ويمضي السياق في وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله إلى الرسول وما أنزل من قبله ذلك الذي يزعمون أنهم آمنوا به وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا يا سبحان الله إن النفاق يابى إلا أن يكشف نفسه ويابى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري وإلا ما كان نفاقا إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به وإلى من آمن به فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل وبالرسول وما أنزل إليه ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ; كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية ويكشف عن النفاق وينبىء عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله سبحانه أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودا ثم يعرض مظهرها من مظاهر النفاق في سلوكهم ; حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ; أو بسبب ميلهم إلى

التحاكم إلى الطاغوت ومعاذيرهم عند ذلك وهي معاذير النفاق فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة يومذاك حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء في الوسط المسلم فما يطبق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناسا يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل وبالرسول وما أنزل إليه ; ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله ; أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان وكل ما له من الإيمان زعم كزعم هؤلاء ; وكل ما له من الإسلام دعوى وأسماء أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم ; نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل ; ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت ; في قضية من قضاياهم أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم لعلمهم يتفكرون ويهتدون وأياما ما كان سبب المصيبة ; فالنص القرآني يسأل مستنكرا فكيف يكون الحال حينئذ كيف يعودون إلى الرسول ص يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا إنها حال مخزية حين يعودون شاعرين بما فعلوا غير قادرين على مواجهة الرسول ص بحقيقة دوافعهم وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية إلا رغبة في الإحسان والتوفيق وهي دائما دعوى كل من يحدد عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة إنها حجة الذين يزعمون الإيمان وهم غير مؤمنين وحجة المنافقين الملتوين هي هي دائما وفي كل حين والله سبحانه يكشف عنهم هذا الرداء المستعار ويخبر رسوله ص أنه يعلم حقيقة ما تنطوي عليه جوانحهم ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق والإنصاح لهم بالكف عن هذا الالتواء أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا أولئك الذين يخفون حقيقة نواياهم وبواعثهم ; ويحتجون بهذه الحجج ويعتذرون بهذه المعاذير والله يعلم خبايا الضمائر ومكونات الصدور ولكن السياسة التي كانت متبعة في ذلك الوقت مع المنافقين كانت هي الإغضاء عنهم وأخذهم بالرفق وأطراد الموعظة والتعليم والتعبير العجيب وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا تعبير مصور كأنما القول يودع مباشرة في الأنفس ويستقر مباشرة في القلوب وهو يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الإحتكام إلى الطاغوت ; ومن الصدود عن الرسول ص حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول فالتوبة بابها مفتوح والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد ; واستغفارهم الله من الذنب واستغفار الرسول لهم فيه القبول ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية وهي أن الله قد أرسل رسوله ليصاغوا بأذنه لا ليخالف عن أمرهم ولا ليكونوا مجرد وعاظ ومجرد مرشدين وما أرسلنا من رسول إلا ليصاغ بأذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا وهذه حقيقة لها وزنها إن الرسول ليس مجرد واعظ يلقي كلمته ويمضي لتذهب في الهواء بلا سلطان كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل ; أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول الدين إن الدين منهج حياة منهج

حياة واقعية بتشكيلاتها وتنظيماتها وأوضاعها وقيمها وأخلاقها وآدابها وعباداتها وشعائرها كذلك وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان سلطان يحقق المنهج وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ والله أرسل رسوله ليطاعوا بإذنه وفي حدود شرعه في تحقيق منهج الدين منهج الله الذي أراده لتصريف هذه الحياة وما من رسول إلا أرسله الله ليطاع بإذن الله فتكون طاعته طاعة لله ولم يرسل الرسول لمجرد التأثير الوجداني والشعائر التعبدية فهذا وهم في فهم الدين لا يستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسول وهي إقامة منهج معين للحياة في واقع الحياة وإلا فما أهون دنيا كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظا لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ويمضي يستهتر بها المستهترون ويبتذلها المبتذلون ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان دعوة وبلاغاً ونظاماً وحكماً وخلافة بعد ذلك عن رسول الله ص تقوم بقوة الشريعة والنظام على تنفيذ الشريعة والنظام لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول وليست هنالك صورة أخرى يقال لها الإسلام أو يقال لها الدين إلا أن تكون طاعة للرسول محققة في وضع وفي تنظيم ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف ; ويبقى أصلها الثابت وحقيقتها التي لا توجد غيرها استسلام لمنهج الله وتحقيق لمنهج رسول الله وتحاكم إلى شريعة الله وطاعة للرسول فيما بلغ عن الله وإفراد لله سبحانه بالألوهية شهادة أن لا إله إلا الله ومن ثم إفراده بالحاكمية التي تجعل التشريع ابتداءً حقاً لله لا يشاركه فيه سواه وعدم احتكام إلى الطاغوت في كثير ولا قليل والرجوع إلى الله والرسول فيما لم يرد فيه نص من القضايا المستجدة والأحوال الطارئة ; حين تختلف فيه العقول وأمام الذين ظلموا أنفسهم بميلهم عن هذا المنهج الفرصة التي دعا الله المنافقين إليها على عهد رسول الله ص ورغبتهم فيها ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً والله تواب في كل وقت على من يتوب والله رحيم في كل وقت على من يؤوب وهو سبحانه يصف نفسه بصفته ويعد العائدين إليه المستغفرين من الذنب قبول التوبة وإفاضة الرحمة والذين يتناولهم هذا النص ابتداءً كان لديهم فرصة استغفار الرسول ص وقد انقضت فرصتها وبقي باب الله مفتوحاً لا يغلق ووعدته قائماً لا ينقض فمن أراد فليقدم ومن عزم فليتقدم وأخيراً يجيء ذلك الإيقاع الحاسم الجازم إذ يقسم الله سبحانه بذاته العلية أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله ص في أمره كله ثم يمضي راضياً بحكمه مسلماً بقضائه ليس في صدره حرج منه ولا في نفسه تلجلج في قبوله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحد الإسلام يقرره الله سبحانه بنفسه ويقسم عليه بذاته فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام ولا تأويل لمؤول اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام وهي أن هذا القول مرهون بزمان وموقوف على طائفة من الناس وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئاً ; ولا يفقه من التعبير القرآني قليلاً ولا كثيراً فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام ; جاءت في صورة قسم مؤكد ; مطلقة من كل قيد وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله ص هو تحكيم شخصه إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته ص وذلك قول أشد المرتدين ارتداداً على

عهد أبى بكر رضى الله عنه وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله في حكم الزكاة ; وعدم قبول حكم رسول الله فيها بعد الوفاة وإذا كان يكفي لإثبات الإسلام أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله فانه لا يكفي في الإيمان هذا ما لم يصحبه الرضى النفسى والقبول القلبي وإسلام القلب والجنان في اطمئنان هذا هو الإسلام وهذا هو الإيمان فلتنظر نفس أين هي من الإسلام ; وأين هي من الإيمان قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان

الدرس الرابع يسر التكاليف الشرعية وثواب الملتزم بها

وبعد أن يقرر أن لا إيمان قبل تحكيم رسول الله ص وقبل الرضى والتسليم بقضائه يعود ليقول إن هذا المنهج الذي يدعون إليه ; وهذه الشريعة التي يقال لهم تحاكموا إليها لا لسواها وهذا القضاء الذي يتحتم عليهم قبوله والرضاء به إنه منهج ميسر وشريعة سمحة وقضاء رحيم إنه لا يكلفهم شيئاً فوق طاقتهم ; ولا يكلفهم عنتاً يشق عليهم ; ولا يكلفهم التضحية بعزيز عليهم فالله يعلم ضعف الإنسان ; وبرحم هذا الضعف والله يعلم أنهم لو كلفوا تكاليف شاقة ما أداها إلا قليل منهم وهو لا يريد لهم العنت ولا يريد لهم أن يقعوا في المعصية ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق وما يدعو الكثيرين منهم للتقصير والمعصية ولو أنهم استجابوا للتكاليف اليسيرة التي كتبها الله عليهم ; واستمعوا للموعظة التي يعظهم الله بها ; لنالوا خيراً عظيماً في الدنيا والآخرة ; ولأعانهم الله بالهدى كما يعين كل من يجاهد للهدى بالعزم والقصد والعمل والإرادة في حدود الطاقة ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً ; وإذن لا يتناهم من لدنا أجراً عظيماً ; ولهديناهم صراطاً مستقيماً إن هذا المنهج ميسر لينهض به كل ذي فطرة سوية إنه لا يحتاج للعزائم الخارقة الفائقة التي لا توجد عادة إلا في القلة من البشر وهذا الدين لم يجيء لهذه القلة القليلة إنه جاء للناس جميعاً والناس معادن وألوان وطبقات من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف وهذا الدين يسر لهم جميعاً أن يؤدوا الطاعات المطلوبة فيه وأن يكفوا عن المعاصي التي نهى عنها وقتل النفس والخروج من الديار مثلان للتكاليف الشاقة التي لو كتبت عليهم ما فعلها إلا قليل منهم وهي لم تكتب لأنه ليس المراد من التكاليف أن يعجز عنها عامة الناس ; وأن ينكل عنها عامة الناس بل المراد أن يؤديها الجميع وأن يقدر عليها الجميع وأن يشمل موكب الإيمان كل النفوس السوية العادية ; وأن ينتظم المجتمع المسلم طبقات النفوس وطبقات الهمم وطبقات الاستعدادات ; وأن ينميها جميعاً ويرقيها في أثناء سير الموكب الحافل الشامل العريض قال ابن جريح حدثنا المثنى إسحاق أبو الأزهر عن إسماعيل عن أبى إسحاق السبيعي قال لما نزلت ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم الآية قال رجل لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي ص فقال > إن من أمّتي لرجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي < وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن مصعب بن ثابت عن عمه عامر بن عبدالله بن الزبير قال لما

نزلت ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم قال رسول الله ص > لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم < وفي رواية له بإسناده عن شريح بن عبيد قال لما تلا رسول الله ص هذه الآية ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم الآية أشار رسول الله ص بيده إلى عبد الله ابن رواحة فقال > لو أن الله كتب هذا لكان هذا من أولئك القليل < وكان رسول الله ص يعرف رجاله معرفة وثيقة عميقة دقيقة ; ويعرف من خصائص كل منهم ما لا يعرفه كل منهم عن نفسه وفي السيرة من هذا الكثير من الشواهد على خبرة الرسول ص بكل واحد من رجاله ; وخبرته كذلك بالرجال والقبائل التي كانت تحاربه خبرة القائد البصير بكل ما حوله ومن حوله في دقة عجيبة لم تدرس بعد الدراسة الواجبة وليس هذا موضوعنا ولكن موضوعنا أن رسول الله ص كان يعرف أن في أمته من ينهض بالتكاليف الشاقة لو كتبت عليهم ولكنه كان يعرف كذلك أن الدين لم يجيء لهذه القلة الممتازة في البشرية كلها وكان الله سبحانه يعلم طبيعة هذا الإنسان الذي خلقه ; وحدود طاقته ; فلم يكتب على الناس في الدين الذي جاء للبشر أجمعين إلا ما هو ميسر للجميع ; حين تصح العزيمة وتعتدل الفطرة وينوي العبد الطاعة ولا يستهتر ولا يستهين وتقرير هذه الحقيقة ذو أهمية خاصة ; في مواجهة الدعوات الهدامة ; التي تدعو الإنسان إلى الانحلال والحيوانية والتلبط في الوحل كالود بحجة أن هذا هو واقع الإنسان وطبيعته وفطرته وحدود طاقته وأن الدين دعوة مثالية لم تجيء لتحقيق في واقع الأرض ; وإذا نهض بتكاليفها فرد فإن مائة لا يطيقون هذه دعوى كاذبة أولا ; وخادعة ثانيا ; وجاهلة ثالثا لأنها لا تفهم الإنسان ولا تعلم منه ما يعلمه خالقه الذي فرض عليه تكاليف الدين ; وهو يعلم سبحانه أنها داخله في مقدور الإنسان العادي لأن الدين لم يجيء للقلائل الممتازين وإن هي إلا العزيمة عزيمة الفرد العادي وإخلاص النية والبدء في الطريق وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين ولو أنهم فعلوا ما يوعدون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لآتيناهم من لدنا اجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما فمجرد البدء يتبعه العون من الله ويتبعه التثبيت على المضي في الطريق ويتبعه الأجر العظيم وتتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم وصدق الله العظيم فما يخدع الله سبحانه وتعالى عباده ; ولا يعدهم وعدا لا يفي لهم به ; ولا يحدثهم إلا حديث الصدق ومن أصدق من الله حديثا في الوقت ذاته ليس اليسر في هذا المنهج هو الترخص ليس هو تجميع الرخص كلها في هذا الدين وجعلها منهج الحياة فهذا الدين عزائم ورخص والعزائم هي الأصل والرخص للملابسات الطارئة وبعض المخلصين حسني النية الذين يريدون دعوة الناس إلي هذا الدين يعمدون إلى الرخص فيجمعونها ويقدمونها للناس على أنها هي هذا الدين ويقولون لهم انظروا كم هو ميسر هذا الدين وبعض الذين يتملقون شهوات السلطان أو شهوات الجماهير يبحثون عن منافذ لهذه الشهوات من خلال الأحكام والنصوص ; ويجعلون هذه المنافذ هي الدين وهذا الدين ليس هذا وليس ذاك إنما هو بجملته برخصه وعزائمه ميسر للناس يقدر عليه الفرد العادي حين يعزم ويبلغ فيه تمام كماله الذاتي في حدود بشريته كما يبلغ تمام كماله الذاتي في الحديقة الواحدة العنب والخوخ والكمثرى والتوت والتين والقناء ولا تكون كلها ذات طعم واحد ولا يقال عن أحدها إنه غير ناضج حين يبلغ نضجه الذاتي إذا كان طعمه أقل مرتبة من النوع الآخر في حديقة هذا الدين ينبت

البقل والقناء ; وينبت الزيتون والرمان وينبت التفاح والبرقوق وينبت العنب والتين وينضج كله ; مختلفة طعمومه ورتبه ولكنه كله ينضج ويبلغ كماله المقدر له إنها زرعة الله في حقل الله برعاية الله وتيسير الله

الدرس الخامس الصالحون مع الصالحين في الجنة

وفي نهاية هذه الجولة ونهاية هذا الدرس يعود السياق إلى الترغيب ; وإستجاشة القلوب ; والتلويح للأرواح بالمتاع الحبيب متاع الصحة في الآخرة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً إنها لللمسة التي تستجيش مشاعر كل قلب فيه ذرة من خير ; وفيه بذرة من صلاح وفيه أثاره من التطلع إلى مقام كريم في صحبة كريمة في جوار الله الكريم وهذه الصحبة لهذا الرهط العلوي إنما هي من فضل الله فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم ويحسن هنا أن نعيش لحظات مع صحابة رسول الله ص وهم يتشوقون إلى صحبته في الآخرة ; وفيهم من يبلغ به الوجد ألا يمسه نفسه عند تصور فراقه وهو ص بين ظهرانهم فتتزل هذه الآية فتندى هذا الوجد ; وتبل هذه اللفظة الوجد النبيل واللفظة الشفيفة قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب السقمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ص وهو محزون فقال له النبي ص < يا فلان ما لي أراك محزوناً > فقال يا نبي الله شيء فكرت فيه فقال < ما هو > قال نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك فلم يرد عليه النبي ص شيئاً فاتاه جبريل بهذه الآية ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين الآية فبعث النبي ص فيشره وقد رواه أبو بكر بن مردويه مرفوعاً بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت جاء رجل إلي النبي ص فقال يا رسول الله إنك أحب إلي من نفسي وأحب إلي من أهلي وأحب إلي من ولدي وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك فلم يرد عليه النبي ص حتى نزلت ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وفي صحيح مسلم من حديث عقل بن زياد عن الأوزاعي عن يحيى بن كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال كنت أبيت عند رسول الله ص فأتيته بوضوءه وحاجته فقال لي < سل > فقلت يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة فقال < أو غير ذلك > قلت هو ذاك قال < فأعني على نفسك بكثرة السجود > وفي صحيح البخاري من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ص سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال < المرء مع من أحب > قال أنس فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث لقد كان الأمر يشغل قلوبهم وأرواحهم أمر الصحبة في الآخرة وقد

ذاقوا طعم الصعبة في الدنيا وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم وفي الحديث الأخير أمل وطمأنينة ونور

الوحدة السابعة توجيهات تربوية جهادية

مقدمة الوحدة

الدرس الأول توجيهات جهادية والحذر من المثبطين

الدرس الثاني حث على القتال وترغيب فيه

الدرس الثالث التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن

الدرس الرابع التصور الحقيقي لفرض الجهاد

الدرس الخامس

مقدمة الدرس تحقيق الفئة المقصودة بالآيات

الدرس الخامس حكمة عدم فرض الجهاد في مكة

الدرس السادس تصحيح نظرة بعضهم للخير والشر

الدرس السابع ظاهرة التناقض وعدم الاختلاف في القرآن

الكريم

الدرس الثامن النهي عن إشاعة الأخبار والتوجيه لحسن التعامل

معها

الدرس التاسع تحريض المؤمنين على القتال

الدرس العاشر قاعدة عامة في الشفاعة

مقدمة الوحدة

منهج القرآن في التعامل مع الضعف البشري نرجح أن تكون مجموعة هذه الآيات الواردة في هذا الدرس نزلت في وقت مبكر ربما كان ذلك بعد غزوة أحد وقبل الخندق فصورة الصف المسلم التي تبدو من خلال هذه الآيات توحى بهذا توحى بوجود جماعات متنوعة في داخل الصف لم تنضج بعد ; أو لم تؤمن إنما هي تناقض وتوحي بأن الصف كان في حاجة إلى جهود ضخمة من التربية والتوجيه ومن الاستنهاض والتشجيع لينهض بالمهمة الضخمة الملقاة على عاتق الجماعة المسلمة ; والارتفاع إلى مستوى هذه المهمة سواء في التصورات الاعتقادية ; أو في خوض المعركة مع المعسكرات المعادية وهذا الذي نقرره لا يطعن في الحقيقة الأخرى حقيقة أنه كان في هذا الصف من النماذج المسلمة من استوى على القمة السامقة ; وصعد المرتقى إلى هذه القمة ووصل ولكننا إنما نتحدث عن الصف المسلم ككل وكبناء مختلط ولكنه غير متجانس ; وهو في هذه الحالة يحتاج إلى الجهد الجاهد لتسويته وتنسيقه ; مما هو ظاهر في هذه التوجيهات القرآنية الكثيرة والتدقيق في الملامح التي تبدو من خلال هذه التوجيهات يجعلنا نعيش مع الجماعة المسلمة في صورتها البشرية التي كثيرا ما ننساها ونرى فيها مواضع الضعف ومواضع القوة ونرى كيف كان

القرآن يخوض المعركة مع الضعف البشري ومع رواسب الجاهلية ومع المعسكرات المعادية في وقت واحد ونرى منهج القرآن في التربية وهو يعمل في النفوس الحية في عالم الواقع ونرى طرفا من الجهد الموصول الذي بذله هذا المنهج حتى انتهى بهذه المجموعة المختلفة الدرجات المتخلفة السمات الملتقطة ابتداء من سفح الجاهلية إلى ذلك التناسق والتكامل والارتفاع الذي نشهده في أواخر أيام الرسول ص بقدر ما تسمح به الفطرة البشرية كذلك وهذا يفيدنا كثيرا يفيدنا في إدراك طبيعة النفس البشرية وما تحمله من استعدادات الضعف واستعدادات القوة متمثلة في خير الجماعات الجماعة التي رباها رسول الله ص بالمنهج القرآني ويفيدنا في إدراك طبيعة المنهج القرآني في التربية ; وكيف كان يأخذ هذه النفوس ; وكيف كان يتلطف لها ; وكيف كان ينسق الصف الذي يحتوي على نماذج شتى من مستويات شتى حيث نراه وهو يعمل في عالم الواقع على الطبيعة ويفيدنا في أن نقيس حالنا وحال المجموعات البشرية ; على واقع النفس البشرية ممثلة في تلك الجماعة المختارة كي لا نياس من أنفسنا حين نطلع على مواضع الضعف فنترك العلاج والمحاولة وكي لا تبقى الجماعة الأولى على كل فضلها مجرد حلم طائر في خيالنا لا مطمع لنا في محاولة السير على خطاها من السفح الهابط في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة وكل هذه ذخيرة حين نخرج بها من الحياة في ظلال القرآن يكون قد جنينا خيرا كثيرا إن شاء الله إن من خلال هذه المجموعة من آيات هذا الدرس يبدو لنا أنه كان في الصف المسلم يومذاك أ من يبطن عن نفسه عن الجهاد في سبيل الله ومن يبطن غيرهم ثم يحسبها غنيمة إذا لم يخرج فسلم على حين أصابت المسلمين مصيبة كما يعدها خسارة إذا لم يخرج فغنم المسلمون لأنه لم يكن له سهم في الغنيمة وبذلك يشتري الدنيا بالآخرة ب وكان فيه من المهاجرين أنفسهم وممن كانت تأخذهم الحماسة للقتال ودفع العدوان وهم في مكة مكفوفون عن القتال من يأخذهم الجزع حينما كتب عليهم القتال في المدينة ; ويتمنى لو أن الله أمهلهم إلى أجل ولم يكتب عليهم القتال الآن ج ومن كان يرجع الحسنة حين تصيبه إلى الله ; ويرجع السيئة حين تصيبه إلى النبي ص لا لشدة إيمانه بالله طبعاً ; ولكن لتجريح القيادة والتطير بها د ومن كان يقول طاعة في حضرة الرسول ص فإذا خرج بيت هو ومن لف لفه غير الذي يقول ه ومن كان يتناول الشائعات فيذيع بها في الصف ; محدثا بها ما يحدثه من البلبلة قبل أن تثبت منها من القيادة التي يتبعها و ومن كان يشك في أن مصدر هذه الأوامر والتوجيهات كلها هو الله سبحانه ويظن أن بعضها من عند النبي ص لا مما أوحى له به ز ومن كان يدافع عن بعض المنافقين كما سيأتي في مطلع الدرس التالي حتى لتتقسم الجماعة المسلمة في أمرهم فئتين مما يوحى بعدم التناسق في التصور الإيماني وفي التنظيم القيادي من ناحية عدم فهم المجموع لوظيفة القيادة وعلاقتهم بها في مثل هذه الشؤون وقد يكون هؤلاء جميعا مجموعة واحدة من المنافقين ; أو مجموعتين المنافقين وضعاف الإيمان الذين لم تنضج شخصيتهم الإيمانية ولو كان بعضهم من المهاجرين ولكن وجود تلك المجموعة أو هاتين المجموعتين في الصف المسلم وهو يواجه العداوات المحيطة به في المدينة من اليهود وفي مكة من المشركين وفي الجزيرة العربية كلها من المتربصين من شأنه أن يحدث خلخلة في الصف ; تحتاج إلى تربية طويلة

وإلى جهاد طويل ونحن نرى في هذا الدرس نماذج من هذا الجهاد ومن هذه التربية وعلاجا لكل خبيثة في النفس أو في الصف في دقة وفي عمق وفي صبر كذلك يتمثل في صبر النبي ص قائد هذا الصف الذي يتولى تربيته بالمنهج القرآني أ نرى الأمر بالحدز فلا يخرج المجاهدون المؤمنون فرادي للسرايا أو المهام الجهادية بل يخرجون ثبات أي سرايا أو فصائل أو يخرجون جميعا في جيش متكامل لأن الأرض حولهم ملغمة والعداوات حولهم شتى والكمين قد يكون كامنا بينهم من المنافقين أو ممن يؤوبهم المنافقون واليهود من عيون الأعداء المتربصين ب ونرى تصويرا منفرا للمبطلين يبدو فيه سقوط الهمة ; وحب المنفعة القريبة ; والتلون من حال إلى حال حسب اختلاف الأحوال وكذلك نرى التعجب من حال أولئك الذين كانوا شديدي التحمس في مكة للقتال فلما كتب عليهم في المدينة عراهم الجزع ج ونرى وعد الله لمن يقاتلون في سبيل الله بالأجر العظيم وإحدى الحسينيين ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيماً د ونرى تصوير القرآن لشرف القصد وارتفاع الهدف ونبل الغاية في القتال الذي يدفعهم إليه في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً ه كما نرى تصوير القرآن لأحقية الغاية التي يجاهد لها الذين آمنوا وقوة السند ; إلى جانب بطلان غاية الذين كفروا وضعف سندهم فيها الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً و ونرى معالجة المنهج القرآني للتصورات الفاسدة التي تنشأ عنها المشاعر الفاسدة والسلوك الضعيف وذلك بتصحيح هذه التصورات الاعتقادية مرة في بيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ومرة في تقرير حتمية الموت و نفاذ المقدر فيه ; مهما يتخذ المرء من الاحتياط ومهما ينكل عن الجهاد أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ومرة في تقرير حقيقة قدر الله وعمل الإنسان وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما ل هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ز ونرى القرآن يؤكد حقيقة الصلة بين الله سبحانه ورسوله ص وأن طاعته من طاعته ويقرر أن هذا القرآن كله من عنده ; ويدعوهم إلى تدبر الوحدة الكاملة فيه الدالة على وحدة مصدره من يطع الرسول فقد أطاع الله أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ح ثم نراه بعد أن يصف حال المرجفين بالأنبياء يوجههم إلى الطريق الأسلم المتفق مع قاعدة التنظيم القيادي للجماعة ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ط ويحذرهم من عاقبة هذا الطريق وهو يذكرهم فضل الله عليهم في هدايتهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ونستطيع أن ندرك مدى الخللة التي كانت تنشئها هذه الظواهر في الجماعة المسلمة ; والتي كانت تحتاج إلي مثل هذا الجهد الموصول المنوع الأساليب حين نسمع الله سبحانه يأمر نبيه ص بأن يجاهد ولو كان وحيدا وأن يحرض المؤمنين على القتال فيكون مسئولا عن نفسه فحسب والله يتولى المعركة فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين

عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً وفي هذا الأسلوب ما فيه من استجاشة القلوب واستشارة الهمم ; بقدر ما فيه من استجاشة الأمل في النصر والثقة ببأس الله وقوته لقد كان القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة في ميادين كثيرة وكان أولها ميدان النفس ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية والضعف البشري حتى ولو لم يكن صادراً عن نفاق أو انحراف وكان يسوسها بمنهج الرباني لتصل إلى مرتبة القوة ثم إلى مرتبة التناسق في الصف المسلم وهذه غاية أبعد وأطول أمداً فالجماعة حين يوجد فيها الأقوياء كل القوة لا يعنىها هذا إذا وجدت اللينات المخلخلة في الصف بكثرة ولا بد من التناسق مع اختلاف المستويات وهي تواجه المعارك الكبيرة والآن نأخذ في مواجهة النصوص مواجهة تفصيلية

الدرس الأول توجيهات جهادية والحذر من المشبطين

يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما إنها الوصية للذين آمنوا الوصية من القيادة العليا التي ترسم لهم المنهج وتبين لهم الطريق وإن الإنسان ليعجب وهو يراجع القرآن الكريم ; فيجد هذا الكتاب يرسم للمسلمين بصفة عامة طبعاً الخطة العامة للمعركة وهي ما يعرف باسم استراتيجية المعركة ففي الآية الأخرى يقول للذين آمنوا يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة فيرسم الخطة العامة للحركة الإسلامية وفي هذه الآية يقول للذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً وهي تبين ناحية من الخطة التنفيذية أو ما يسمى التاكثيك وفي سورة الأنفال جوانب كذلك في الآيات فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون الآيات وهكذا نجد هذا الكتاب لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ; ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة ويعرض لكل ما تتعرض له

حياة الناس من ملابس واقعية ومن ثم يطلب بحق الوصاية التامة على



يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج وتحت تصرفه وتوجيهه وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر منهاجاً للحياة الشخصية وللشعائر والعبادات والأخلاق والآداب مستمداً من كتاب الله ومنهاجاً للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية مستمداً من كتاب أحد آخر ; أو من تفكير بشري على الإطلاق إن مهمة التفكير البشري أن تستنبط من كتاب الله ومنهاجاً أحكاماً تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة وأقضيتها المتطورة بالطريقة التي رسمها الله في الدرس السابق من هذه السورة ولا شيء وراء ذلك وإلا فلا إيمان أصلاً ولا إسلام لا إيمان ابتداءً ولا إسلام لأن الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد في الإيمان ولم يعترفوا بعد بأركان الإسلام وفي أولها شهادة أن لا إله إلا الله التي ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله وأن لا مشرع إلا الله وها هو ذا كتاب الله يرسم للمسلمين جانباً من الخطة التنفيذية للمعركة ; المناسبة لموقفهم حينذاك ولوجودهم بين العداوات الكثيرة في الخارج والمنافقين وحلفائهم اليهود في الداخل وهو يحذرهم ابتداءً يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم خذوا حذرهم من عدوكم جميعاً وبخاصة المندسين في الصفوف من المبطلين الذين سيرد ذكرهم في الآية فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ثبات جميعاً ثبات أي مجموعة والمقصود لا تخرجوا للجهاد فرادى ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة أو الجيش كله حسب طبيعة المعركة ذلك أن الأحاد قد يتصيدهم الإعداء المبتوثون في كل مكان وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبئين في قلب المعسكر الإسلامي وهم كانوا كذلك ممثلين في المنافقين وفي اليهود في قلب المدينة وأن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعى الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً انفروا جماعات نظامية أو انفروا جميعاً ولا ينفر بعضكم ويتناقل بعضكم كما هو واقع وخذوا حذرهم لا من العدو الخارجي وحده ; ولكن كذلك من المعوقين المبطلين المخذلين ; سواء كانوا يبطلون أنفسهم أي يقعدون متناقلين أو يبطلون غيرهم معهم ; وهو الذي يقع عادة من المخذلين المثبطين ولفظة ليبطئن مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر ; وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها حتى يأتي على آخرها وهو يشدها شداً ; وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتناقل في جرسها وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة وكذلك يشي تركيب الجملة كلها وإن منكم لمن ليبطئن بأن هؤلاء المبطلين وهم معدودون من المسلمين منكم يزاولون عملية التبطئة كاملة وبصرون عليها إصراراً ويجتهدون فيها اجتهاداً وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات في الجملة مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة وشدة أثرها في الصف المسلم ; وشدة ما يلقاه منها ومن ثم يسلط السياق الأضواء الكاشفة عليهم وعلى دخيلة نفوسهم ; ويرسم حقيقتهم المنفرة على طريقة القرآن التصويرية العجيبة فما هم أولاء بكل بواعثهم وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم ها هم أولاء مكشوفين للأعين كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر يكشف النوايا والسرائر ; ويكشف البواعث والدوافع ها هم أولاء كما كانوا على عهد الرسول ص وكما يكونون في كل زمان وكل مكان ها هم أولاء ضعافاً

منافقين ملتوين ; صغار الاهتمامات أيضا لا يعرفون غاية أعلى من صالحهم الشخصي المباشر ولا أفقا أعلى من ذواتهم المحدودة الصغيرة فهم يديرون الدنيا كلها على محور واحد وهم هم هذا المحور الذي لا ينسونه لحظة إنهم يبطنون ويتكأون ولا يصارحون ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال وتصورهم للربح والخسارة هو التصور الذي يليق بالمنافقين الضعاف الصغار يتخلفون عن المعركة فإن أصابت المجاهدين محنة وابتلوا الابتلاء الذي يصيب المجاهدين في بعض الأحيان فرح المتخلفون ; وحسبوا أن فرارهم من الجهاد ونجاتهم من الابتلاء نعمة فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدًا إنهم لا يخجلون وهم يعدون هذه النجاة مع التخلف نعمة أن ينسبها لله الذي خالفوا عن أمره ففقدوا والنجاة في هذه الملابس لا تكون من نعمة الله أبدا فنعمة الله لا تنال بالمخالفة ولو كان ظاهرها نجاة إنها نعمة ولكن عند الذين لا يتعاملون مع الله عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه في الحياة نعمة عند من لا يتطلعون إلى آفاق أعلى من مواطىء الأقدام في هذه الأرض كالنمال نعمة عند من لا يحسون أن البلاء في سبيل الله وفي الجهاد لتحقيق منهج الله وإعلاء كلمة الله هو فضل واختيار من الله يختص به من يشاء من عباده ; ليرفعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري ويطلقهم من إسار الأرض يستشرفون حياة رفيعة يملكونها ولا تملكهم وليؤهلهم بهذا الانطلاق وذلك الارتفاع للقرب منه في الآخرة في منازل الشهداء إن الناس كلهم يموتون ولكن الشهداء في سبيل الله هم وحدهم الذين يستشهدون وهذا فضل من الله عظيم فأما إذا كانت الأخرى فانتصر المجاهدون ; الذين خرجوا مستعدين لقبول كل ما يأتيهم به الله ونالهم فضل من الله بالنصر والغنيمة ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء في معركة رابحة رابحة بحسب مفهومهم القريب الصغير للربح والخسارة ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كان لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيماً إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب هي التي يقولون عنها فوزا عظيماً والمؤمن لا يكره الفوز بالإياب والغنيمة ; بل مطلوب منه أن يرجوه من الله والمؤمن لا يتمنى وقوع البلاء بل مطلوب منه أن يسأل الله العافية ولكن التصور الكلي للمؤمن غير هذا التصور الذي يرسمه التعبير القرآني لهذه الفئة رسماً مستنكراً منفراً إن المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية ولكنه إذا ندب للجهاد خرج غير متناقل خرج يسأل الله إحدى الحسنين النصر أو الشهادة وكلاهما فضل من الله ; وكلهما فوز عظيم فيقسم له الله الشهادة فإذا هو راض بما قسم الله ; أو فرح بمقام الشهادة عند الله ويقسم له الله الغنيمة والإياب فيشكر الله على فضله ويفرح بنصر الله لا لمجرد النجاة وهذا هو الأفق الذي أراد الله أن يرفع المسلمين إليه ; وهو يرسم لهم هذه الصورة المنفرة لذلك الفريق منهم وهو يكشف لهم عن المندسين في الصف من المعوقين ليأخذوا منهم حذرهم ; كما يأخذون حذرهم من أعدائهم ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة في ذلك الزمان يرتسم نموذج إنساني متكرر في بني الإنسان في كل زمان ومكان في هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن ثم تبقى هذه الحقيقة تتملاها الجماعة المسلمة أبدا وهي أن الصف قد يوجد فيه أمثال هؤلاء فلا يبئس من نفسه

ولكن يأخذ حذره ويمضي ويحاول بالتربية والتوجيه والجهد أن يكمل النقص ويعالج الضعف وينسق الخطى والمشاعر والحركات

الدرس الثاني حث على القتال وترغيب فيه

ثم يمضي السياق يحاول أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطلين المثقلين بالطين وأن يوقظ في حسهم التطلع إلى ما هو خير وأبقى الآخرة وأن يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة وبعدهم على ذلك فضل الله في الحالتين وإحدى الحسينيين النصر أو الشهادة فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيماً فليقاتل في سبيل الله فالإسلام لا يعرف قتالا إلا في هذا السبيل لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ; ولا للاستيلاء على السكان لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات والأسواق للمنتجات ; أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات إنه لا يقاتل لمجد شخص ولا لمجد بيت ولا لمجد طبقة ولا لمجد دولة ولا لمجد أمة ولا لمجد جنس إنما يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في الأرض ولتمكين منهجه من تصريف الحياة ولتمتع البشرية بخيرات هذا المنهج وعدله المطلق بين الناس مع ترك كل فرد حراً في اختيار العقيدة التي يقتنع بها في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله بقصد إعلاء كلمة الله وتمكين منهجه في الحياة ثم يقتل يكون شهيداً وينال مقام الشهداء عند الله وحين يخرج لأي هدف آخر غير هذا الهدف لا يسمى شهيداً ولا ينتظر أجره عند الله بل عند صاحب الهدف الآخر الذي خرج له والذين يصفونه حينئذ بأنه شهيد يفترون على الله الكذب ; ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس افتراء على الله فليقاتل في سبيل الله بهذا التحديد من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة ولهم حينئذ فضل من الله عظيم ; في كلتا الحالتين سواء من يقتل في سبيل الله ; ومن يغلب في سبيل الله أيضاً ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآني إلى رفع هذه النفوس ; وإلى تعليقها بالرجاء في فضل الله العظيم في كلتا الحالتين وأن يهون عليها ما تخشاه من القتل وما ترجوه من الغنيمة كذلك فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئاً إلى جانب الفضل العظيم من الله كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هي اشترت الدنيا بالآخرة ولم تشتتر الآخرة بالدنيا ولفظ يشري من ألفاظ الضد فهي غالباً بمعنى يبيع فهي خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا في معارك الأرض وأين الدنيا من الآخرة وأين غنيمة المال من فضل الله وهو يحتوي المال فيما يحتويه ويحتوي سواه

الدرس الثالث التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن

ثم يلتفت السياق إلى المسلمين يلتفت من أسلوب الحكاية والتصوير عن أولئك المبطلين ; إلى أسلوب الخطاب للجماعة المسلمة كلها يلتفت إليها لاستجاشة مروءة النفوس وحساسية القلوب ; تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ; الذين كانوا يقاسون في مكة ما يقاسون على أيدي المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم ; وهم يتطلعون إلى الخلاص ويدعون الله أن يجعل لهم مخرجا من دار الظلم والعدوان يلتفت هذه الالتفاتة ليوحى إليهم بسمو المقصد وشرف الغاية ونبيل الهدف في هذا القتال الذي يدعوهم أن ينفروا إليه غير متثاقلين ولا مبطلين وذلك في أسلوب تحضيضي ; يستنكر البطاء والقعود وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا وكيف تقعدون عن القتال في سبيل الله ; واستنفاد هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان هؤلاء الذين ترتسم صورهم في مشهد مثير لحمية المسلم وكرامة المؤمن ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة ; لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم والفتنة في دينهم والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفوس والعرض لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني الذي تتبعه كرامة النفس والعرض وحق المال والأرض ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف مشهد مؤثر مثير لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد وهو وحده يكفي لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات وهو أسلوب عميق الوقع بعيد الغور في مسارب الشعور والإحساس ولا بد من لفتة هنا إلى التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن إن هذه القرية الظالم أهلها التي يعدها الإسلام في موضعها ذاك دار حرب يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها هي مكة ووطن المهاجرين الذين يدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها ويدعو المسلمون المستضعفين هذه الدعوة الحادة للخروج منه إن كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام حين لم تقم فيها شريعة الله ومنهجه ; وحين فتن فيها المؤمنون عن دينهم وعذبوا في عقيدتهم بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم دار حرب دار حرب هم لا يدافعون عنها وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها لإنقاذ إخوانهم المسلمين منها إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تقام شريعة الله فيه ; وأرضه التي يدافع عنها هي دار الإسلام التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجا للحياة وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير إسلامي تنضح به الجاهليات ولا يعرفه الإسلام

الدرس الرابع التصور الحقيقي لفرض الجهاد

ثم لمسة نفسية أخرى لاستنهاض الهمم واستجاشة العزائم وإنارة الطريق وتحديد القيم والغايات والأهداف التي يعمل لها كل فريق الذين آمنوا

يقاتلون في سبيل الله ؛ والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا وفي لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق وفي لحظة ترتسم الأهداف وتتضح الخطوط وينقسم الناس إلى فريقين اثنين ؛ تحت رايتين متميزتين الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ؛ لتحقيق منهجه وإقرار شريعته وإقامة العدل بين الناس باسم الله لا تحت أي عنوان آخر اعترافا بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت لتحقيق مناهج شتى غير منهج الله وإقرار شرائع شتى غير شريعة الله وإقامة قيم شتى غير التي أذن بها الله ونصب موازين شتى غير ميزان الله ويقف الذين آمنوا مستندين الى ولاية الله وحمائته ورعايته ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم وشتى مناهجهم وشتى شرائعهم وشتى طرائقهم وشتى قيمهم وشتى موازينهم فكلهم أولياء الشيطان وبأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ؛ ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة مسندين ظهورهم إلى ركن شديد مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله ليس لأنفسهم منها نصيب ولا لذواتهم منها حظ وليست لقومهم ولا لجنسهم ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء إنما هي لله وحده ولمنهجه وشريعته وأنهم يواجهون قوما أهل باطل ؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية وكل مناهج البشر جاهلية على شريعة منهج الله ؛ ولتغليب شرائع البشر الجاهلية وكل شرائع البشر جاهلية على الله ؛ ولتغليب ظلم البشر وكل حكم للبشر من دون الله ظلم على عدل الله الذي هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس كذلك يخوضون المعركة وهم يوقنون أن الله وليهم فيها وأنهم يواجهون قوما الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف إن كيد الشيطان كان ضعيفا ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين وتحدد نهايتها قبل أن يدخلوها وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة فهو واثق من النتيجة أم بقي حتى غلب ورأى بعينه النصر ؛ فهو واثق من الأجر العظيم من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل الله في حياة الجماعة المسلمة الأولى ؛ والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال ؛ فهي كثيرة مشهورة ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب في أقصر فترة عرفت في التاريخ ؛ فقد كان هذا التصور جانبا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة على المعسكرات المعادية ذلك التفوق الذي أشرنا إليه من قبل في هذا الجزء وبناء هذا التصور ذاته كان طرفا من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال ؛ ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين ؛ فأمسوا مهزومين وها نحن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتشيبته فلم يكن الأمر هينا ولم يكن مجرد كلمة تقال ولكنه كان جهدا موصولا لمعالجة شح النفس وحرصها على الحياة بأي ثمن وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة وفي الدرس بقية من هذا العلاج وذلك الجهد الموصول

الدرس الخامس مقدمة الدرس تحقيق الفئة المقصودة بالآيات

إن السياق يمضي بعد هذا إلى التعجيب من أمر طائفة أو أكثر من المسلمين قيل إن بعضهم من المهاجرين الذين كانت تشتد بهم الحماسة وهم في مكة يلقون الأذى والاضطهاد ليؤذن لهم في قتال المشركين حيث لم يكن مأذونا لهم بعد في قتال للحكمة التي يعلمها الله ; والتي قد نصيب طرفا من معرفتها فيما سنذكره بعد فلما كتب عليهم القتال بعد أن قامت للإسلام دولة في المدينة وعلم الله أن في هذا الإذن خيرا لهم وللبشرية إذا هم كما يصورهم القرآن يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ممن إذا أصابهم الحسنة قالوا هذه من عند الله وإن أصابتهم السيئة قالوا للرسول ص هذه من عندك وممن يقولون طاعة حتى إذا خرجوا من عند الرسول ص بيت طائفة منهم غير الذي تقول وممن إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به يمضي السياق ليعجب من شأن هؤلاء في الأسلوب القرآني ; الذي يصور حالة النفس كما لو كانت مشهدا يرى ويحس ويصح لهم ولغيرهم سوء التصور والإدراك لحقائق الموت والحياة والأجل والقدر والخير والشر والنفع والضرر والكسب والخسارة والموازن والقيم ; ويبين لهم حقائقها في أسلوب يصور الحقائق في صورتها الموحية المؤثرة ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا من يطع الرسول فقد أطاع الله ; من تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيفا أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا هؤلاء الذين تتحدث عنهم هذه المجموعات الأربع من الآيات ; قد يكونون هم أنفسهم الذين تحدث عنهم مجموعة سابقة في هذا الدرس وإن منكم لمن ليطئن الآيات ويكون الحديث كله عن تلك الطائفة من المنافقين ; التي تصدر منها هذه الأعمال وهذه الأقوال كلها وقد كدنا نرجح هذا الرأي ; لأن ملامح النفاق واضحة فيما تصفه هذه المجموعات كلها وصدور هذه الأعمال وهذا الأقوال عن طوائف المنافقين في الصف المسلم أمر أقرب إلى طبيعتهم وإلى سوابقهم كذلك وطبيعة السياق القرآني شديدة الالتحام بين الآيات جميعا ولكن المجموعة الأولى من هذه

المجموعات التي تتحدث عن الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال الآيات هي التي جعلتنا نتردد في اعتبار الآيات كلها حديثا عن المنافقين وإن بدت فيها صفات المنافقين وبدت فيها لحمة السياق واستطراده وجعلتنا نميل إلى اعتبار هذه المجموعة واردة في طائفة من المهاجرين ضعاف الإيمان غير منافقين والضعف قريب الملامح من النفاق وأن كل مجموعة أخرى من هذه المجموعات الأربع ربما كانت تصف طائفة بعينها من طوائف المنافقين المندسين في الصف المسلم وربما كلها وصفا للمنافقين عامة ; وهي تعدد ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال والسبب في وقوفنا هذا الموقف أمام آيات المجموعة الأولى ; وطننا أنها تصف طائفة من المهاجرين الضعاف الإيمان ; أو الذين لم ينضج بعد تصورهم الإيمان ; ولم تتضح معالم الاعتقاد في قلوبهم وعقولهم السبب هو أن المهاجرين هم الذين كان بعضهم تأخذه الحماسة والاندفاع لدفع أذى المشركين وهم في مكة في وقت لم يكن مأذونا لهم في القتال فقيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وحتى لو أخذنا في الاعتبار ما عرضه أصحاب بيعة العقبة الثانية الاثنان والسبعون على النبي ص من ميلهم على أهل منى أي قتلهم لو أمرهم الرسول ص ورده عليهم > إننا لم نؤمر بقتال < فإن هذا لا يجعلنا ندمج هذه المجموعة من السابقين من الأنصار أصحاب بيعة العقبة في المنافقين الذين تتحدث عنهم بقية الآيات ولا في الضعاف الذين تصفهم المجموعة الأولى فإنه لم يعرف عن هؤلاء الصفة نفاق ولا ضعف ; رضي الله عنهم جميعا فأقرب الاحتمالات هو أن تكون هذه المجموعة واردة في بعض من المهاجرين الذين ضعفت نفوسهم وقد أمنوا في المدينة وذهب عنهم الأذى عن تكاليف القتال وألا تكون بقية الأوصاف واردة فيهم بل في المنافقين لأنه يصعب علينا مهما عرفنا من ظواهر الضعف البشري أن نسم أي مهاجر من هؤلاء السابقين بسمة رد السيئة إلى الرسول ص دون الحسنة أو قول الطاعة وتبويت غيرها وإن كنا لا نستبعد أن توجد فيهم صفة الإذاعة بالأمر من الأمن أو الخوف لأن هذه قد تدل على عدم الدربة على النظام ولا تدل على النفاق والحق أننا نجد أنفسنا أمام هذه الآيات كلها في موقف لا نملك الجزم فيه بشيء والروايات الواردة عنها ليس فيها جزم كذلك بشيء حتى في آيات المجموعة الأولى التي ورد أنها في طائفة من المهاجرين ; كما ورد أنها في طائفة من المنافقين ومن ثم نأخذ بالأحوط ; في تبرئة المهاجرين من سمات التبتئة والانخلاع مما يصيب المؤمنين من الخير والشر التي وردت في الآيات السابقة ومن سمة إسناد السيئة للرسول ص دون الحسنة ورد هذه وحدها إلى الله ومن سمة تبويت غير الطاعة وإن كانت تجزئة سياق الآيات على هذا النحو ليست سهلة على من يتابع السياق القرآني ويدرك بطول الصحة طريقة التعبير القرآنية والله المعين

الدرس الخامس حكمة عدم فرض الجهاد في مكة

ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية

وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة يعجب الله سبحانه من أمر هؤلاء الناس ; الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال ويستعجلونه وهم في مكة يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين حين لم يكن مأذونا لهم في القتال للحكمة التي يريدتها الله فلما أن جاء الوقت المناسب الذي قدرة الله ; وتهيأت الظروف المناسبة وكتب عليهم القتال في سبيل الله إذا فريق منهم شديد الجزع شديد الفرع حتى ليخشى الناس الذين أمروا بقتالهم وهم ناس من البشر كخشية الله ; القهار الجبار الذي لا يعذب عباده أحد ولا يوثق وثاقه أحد أو أشد خشية وإذا هم يقولون في حسرة وخوف وجزع ربنا لم كتبت علينا القتال وهو سؤال غريب من مؤمن وهو دلالة على عدم وضوح تصوره لتكاليف هذا الدين ; ولوظيفة هذا الدين أيضا ويتبعون ذلك التساؤل بأمنية حسيرة مسكينة لولا أخرتنا إلى أجل قريب وأمهلنا بعض الوقت قبل ملاقة هذا التكليف الثقيل المخيف إن أشد الناس حماسة واندفاعا وتهورا قد يكونون هم أشد الناس جزعا وانهيارا وهزيمة عندما يجد الجد وتقع الواقعة بل إن هذه قد تكون القاعدة ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبا ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكليف لا عن شجاعة واحتمال وإصرار كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة ; فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا وأشق مما تصوروا فكانوا أول الصف جزعا ونكولا وانهيارا على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ; ويعدون للأمر عدته ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته والمتهورون المندفعون المستحمسون يحسبونهم إذا ذاك ضعافا ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالا ; وأي الفريقين أبعد نظرا كذلك وأغلب الظن أن هذا الفريق الذي تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف الذي يلذعه الأذى في مكة فلا يطيقه ; ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة فيندفع يطلب من الرسول ص أن يأذن له بدفع الأذى أو حفظ الكرامة والرسول ص يتبع في هذا أمر ربه بالتريث والانتظار والتربية والإعداد وارتقاب الأمر في الوقت المقدر المناسب فلما أن أمن هذا الفريق في المدينة ; ولم يعد هناك أذى ولا إذلال وبعد لسع الحوادث عن الذوات والأشخاص ; لم يعد يرى للقتال مبررا ; أو على الأقل لم يعد يرى للمسارعة به ضرورة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب وقد يكون هذا الفريق مؤمنا فعلا بدليل اتجاههم إلى الله في ضراعة وأسى وهذه الصورة ينبغي أن تكون في حسابنا بالإيمان الذي لم ينضج بعد ; والتصوير الذي لم تتضح معالمه ; ولم يتبين صاحبه وظيفه هذا الدين في الأرض وأنها أكبر من حماية الأشخاص وحماية الأقاليم وحماية الأوطان إذ أنها في صميمها إقرار منهج الله في الأرض وإقامة نظامه العادل في ربوع العالم ; وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله ; ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع

للدعوة في أي مكان على سطح الأرض ; ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه إذا هو اختاره بكامل حريته بأي لون من ألوان الفتنة ومنها أن يطارد في رزقه أو في نشاطه حيث هو وهذه كلها مهام خارجة عن وقوع أذى على أشخاص بعينهم أو عدم وقوعه وإذن فلم يكن الأمن في المدينة حتى على فرض وجوده كاملا غير مهدد لينتهي مهمة المسلمين هناك ; وينهى عن الجهاد الإيمان الذي لم ينضج بعد ليبلغ بالنفس إلى إخراج ذاتها من الأمر ; والاستماع فقط إلى أمر الله واعتباره هو العلة والمعلول والسبب والمسبب والكلمة الأخيرة سواء عرف المكلف حكمتها أم لم تتضح له والتصور الذي لم تتضح معالمه بعد ليعرف المؤمن مهمة هذا الدين في الأرض ; ومهمته هو المؤمن بوصفه قدرا من قدر الله ينفذ به الله ما يشاؤه في هذه الحياة لا جرم ينشأ عنه مثل هذا الموقف الذي يصوره السياق القرآني هذا التصوير ; ويعجب منه هذا التعجب وينفر منه هذا التنفير فأما لماذا لم يأذن الله للمسلمين في مكة بالانتصار من الظلم ; والرد على العدوان ; ودفع الأذى بالقوة وكثيرون منهم كان يملك هذا ; فلم يكن ضعيفا ولا مستضعفا ولم يكن عاجزا عن رد الصاع صاعين مهما يكن المسلمون في ذلك الوقت قلة أما حكمة هذا والأمر بالكف عن القتال وأقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصبر والاحتمال حتى وبعض المسلمين يلقي من الأذى والعذاب ما لا يطاق وبعضهم يتجاوز العذاب طاقته ; فيفتن عن دينه وبعضهم لا يحتمل الاستمرار في العذاب فيموت تحت وطأته أما حكمة هذا فلسنا في حل من الجزم بها لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة ; ونفرض على أوامره أسبابا وعللا قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية أو قد تكون ولكن وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها ويعلم سبحانه أن فيها الخير والمصلحة وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف أو أي حكم في شريعة الله لم يبين الله سببه محددًا جازما حاسما فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف ; أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف مما يدركه عقله ويحسن فيه فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال ولا يجزم مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله بأن ما رآه هو حكمة ; هو الحكمة التي أرادها الله نصا وليس وراءها شيء وليس من دونها شيء فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله ومقتضى ما بين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف في الطبيعة والحقيقة وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب على أنه مجرد احتمال وندع ما وراءه لله لا نفرض على أمره أسبابا وعللا لا يعلمها إلا هو ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح إنها أسباب اجتهادية تخطى ء وتصيب وتنقص وتزيد ولا نبغي بها إلا مجرد تدبر أحكام الله وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان أربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ; في بيئة معينة لقوم معينين وسط ظروف معينة ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محورا لحياة في نظره ودافع الحركة في حياته وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ; فلا يندفع لأول مؤثر كما هي طبيعته ولا يهتاج لأول مهيج ليتم الاعتدال في طبيعته

وحركته وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظما له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ; ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره مهما يكن مخالفا لمألوفه وعاداته وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي لإنشاء المجتمع المسلم الخاضع لقيادة موجهة ; المترقي المتحضر غير الهمجي أو القبلي ب وربما كان ذلك أيضا لأن الدعوة السلمية أشد أثرا وأنفذ في مثل بيئة قريش ; ذات العنجهية والشرف ; والتي قد يدفعها القتال معها في مثل هذه الفترة إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثرات العرب المعروفة التي أثارت حرب داحس والغبراء وحرب البسوس أعواما طويلة تفانت فيها قبائل برمتها وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام فلا تهدأ بعد ذلك أبدا ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية وهو في مبدئه فلا تذكر أبدا ج وربما كان ذلك أيضا اجتنابا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد يعذبونه هم ويفتنونه ويؤذونهم ومعنى الإذن بالقتال في مثل هذه البيئة أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال هذا هو الإسلام ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال فقد كانت دعاية قريش في الموسم في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة إن محمدا يفرق بين الوالد وولده ; فوق تفريقه لقومه وعشيرته فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد والمولى بقتل الولي في كل بيت وكل محلة وربما كان ذلك أيضا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم ; هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قادته ألم يكن عمر ابن الخطاب من بين هؤلاء ه وربما كان ذلك أيضا لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عاداتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى ولا يتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر وهو رجل كريم يهاجر ويخرج من مكة ورأى في ذلك عارا على العرب وعرض عليه جواره وحمايته وأخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة بينما في بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التي مردت على الذل قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزاء والسخرية والاحتقار من البيئة ; وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي و وربما كان ذلك أيضا لقلّة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة أو بلغت أخبارها متناثرة ; حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ويبقى الشرك وتنمحي الجماعة المسلمة ولم يقم في الأرض للإسلام نظام ولا وجد له كيان واقعي وهو دين جاء ليكون منهج حياة وليكون نظاما واقعيا عمليا للحياة في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها والأمر بالقتال ودفع الأذى لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائما وقتها ومحققا هذا الأمر الأساسي هو وجود الدعوة وجودها في شخص الداعية ص وشخصه في حماية سيوف بني هاشم فلا تمتد إليه يد إلا

وهي مهددة بالقطع والنظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشم إذا هي امتدت يدها إلى محمد ص فكان شخص الداعية من ثم محميا حماية كافية وكان الداعية يبلغ دعوته إذن في حماية سيوف بني هاشم ومقتضيات النظام القبلي ولا يكتمها ولا يخفيها ولا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها في ندوات قريش في الكعبة ومن فوق جبل الصفا ; وفي اجتماعات عامة ولا يجرؤ أحد على سد فمه ; ولا يجرؤ أحد على خطفة وسجنه أو قتله ولا يجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلاما بعينه يقوله ; يعلن فيه بعض حقيقة دينه ; ويسكت عن بعضها وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب ألتهم وعيبيها لم يكف وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم في جهنم لم يسكت وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا أي أن يجاملهم فيجاملوه ; بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته لم يدهن وعلى الجملة كان للدعوة وجودها الكامل في شخص رسول الله ص محروسا بسيوف بني هاشم وفي إبلاغه لدعوة ربه كاملة في كل مكان وفي كل صورة ومن ثم لم تكن هنالك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة والتغاضي عن كل هذه الاعتبارات البيئية التي هي في مجموعها مساندة للدعوة ومساعدة في مثل هذه البيئة هذه الاعتبارات كلها فيما نحسب كانت بعض ما اقتضت حكمة الله معه أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لتمام تربيتهم وإعدادهم ولينتفع بكل إمكانيات الخطة في هذه البيئة ; وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة في الوقت المناسب وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها فلا يكون لذواتهم فيها حظ لتكون خالصة لله وفي سبيل الله والدعوة لها وجودها وهي قائمة ومؤداة ومحمية ومحروسة وأيما ما كانت حكمة الله من وراء هذه الخطة فقد كان هناك المتحمسون يبدون لهفتهم على اللحظة التي يؤذن لهم فيها بالقتال فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب وكان وجود هذه الطائفة في الصف المسلم ينشئ في حالة من الخلخلة وينشئ في حالة من عدم التناسق بين هذه الطائفة الجزوع الهلوع وبين الرجال المؤمنين ذوي القلوب الثابتة المطمئنة ; المستقبلية لتكاليف الجهاد على كل ما فيها من مشقة بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضا ولكن في موضعها المناسب فالحماسة في تنفيذ الأمر حين يصدر هي الحماسة الحقيقية أما الحماسة قبل الأمر فقد تكون مجرد اندفاع وتهور ; يتبخر عند مواجهة الخطر وكان القرآن يعالج هذه الحالة بمنهجه الرباني قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا وإنما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة إنهم يخشون الموت ويريدون الحياة ويتمنون في حسرة مسكينة لو كان الله قد أمهلهم بعض الوقت ; ومد لهم شيئا في المتاع بالحياة والقرآن يعالج هذه المشاعر في منابها ; ويجلو غيش التصور لحقيقة الموت والأجل قل متاع الدنيا قليل متاع الدنيا كله والدنيا كلها فما بال أيام أو أسابيع أو شهور أو سنين ما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها في حملته قليلا ما الذي يملكون تحقيقه من المتاع في أيام أو أسابيع أو شهور أو سنين ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل والآخرة خير لمن اتقى فالدنيا أولا ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة إنها مرحلة ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع فضلا على أن المتاع فيها طويل كثير فهي خير خير

لمن اتقى وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف في موضعها التقوى لله فهو الذي يتقى وهو الذي يخشى وليس الناس الذين سبق أن قال إنهم يخشونهم كخشية الله أو أشد خشية والذي يتقى الله لا يتقى الناس والذي يعمر قلبه الخوف من الله لا يخاف أحدا فماذا يملك له إذا كان الله لا يريد ولا تظلمون فتبلا فلا غبن ولا ضير ولا بخس ; إذا فاتهم شيء من متاع الدنيا فهناك الآخرة وهناك الجزاء الأوفى ; الذي لا يبقى معه ظلم ولا بخس في الحساب الختامي للدنيا والآخرة جميعا ولكن بعض الناس قد تهفو نفسه مع هذا كله إلى أيام تطول به في هذه الأرض حتى وهو يؤمن بالآخرة وهو ينتظر جزاءها الخير وبخاصة حين يكون في المرحلة الإيمانية التي كانت فيها هذه الطائفة هنا تجيء لللمسة الأخرى لللمسة التي تصحح التصور عن حقيقة الموت والحياة والأجل والقدر ; وعلاقة هذا كله بتكليف القتال الذي جزعوا له هذا الجزع وخشوا الناس فيه هذه الخشية أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة فالموت حتم في مواعده المقدر ولا علاقة له بالحرب والسلام ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن ; ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن مواعده هذا أمر وذاك أمر ; ولا علاقة بينهما إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد وليست هنالك علاقة أخرى ولا معنى إذن لتمني تأجيل القتال ولا معنى إذن لخشية الناس في قتال أو في غير قتال وبهذه اللمسة الثانية يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في خاطر عن هذا الأمر ; وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية فقد سبق أن أمرهم الله بأخذ الحذر وفي مواضع أخرى أمرهم بالاحتياط في صلاة الخوف وفي سور أخرى أمرهم باستكمال العدة والأهبة ولكن هذا كله شيء وتعليق الموت والأجل به شيء آخر إن أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع وله حكمته الظاهرة والخفية ووراءه تدبير الله وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين الموت والأجل المضروب رغم كل استعداد واحتياط أمر آخر يجب أن يطاع ; وله حكمته الظاهرة والخفية ووراءه تدبير الله توازن واعتدال وإمام بجميع الأطراف وتناسق بين جميع الأطراف هذا هو الإسلام وهذا هو منهج التربية الإسلامي للأفراد والجماعات

الدرس السادس تصحيح نظرة بعضهم للخير والشر

وبهذا ربما ينتهي الحديث عن تلك الطائفة من المهاجرين ويبدأ الحديث عن طائفة أخرى من الطوائف المنبثة في المجتمع الإسلامي والتي يتألف منها الصف المسلم ومن سواها هذا وإن كان السياق لا انقطاع فيه ولا فصل ولا وقفة تنبئ بان الحديث الآتي عن طائفة أخرى وأن الحديث عن هذه الطائفة قد انتهى ولكننا نمضي مع الاعتبارات التي أسلفناها وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القول لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من

حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا إن الذين يقولون هذا القول وينسبون ما يصيبهم من الخير إلى الله وما يصيبهم من الضر إلى النبي ص يحتمل فيهم وجوه الوجه الأول أنهم يتطيرون بالنبي ص فيظنون حاشاه شؤما عليهم يأتيهم السوء من قبله فإن أجدبت السنة ولم تنسل الماشية أو إذا أصيبوا في موقعة ; تطيروا بالرسول ص فاما حين يصيبهم الخير فينسبون هذا إلى الله الوجه الثاني أنهم يريدون عامدين تجريح قيادة الرسول ص تخلصا من التكاليف التي يأمرهم بها وقد يكون تكليف القتال منها أو أحصها فبدلا من أن يقولوا إنهم ضعاف يخشون مواجهة القتال يتخذون ذلك الطريق الملتوي الآخر ويقولون إن الخير يأتيهم من الله وإن السوء لا يجيئهم إلا من قبل الرسول ص ومن أوامره وهم يعنون بالخير أو السوء النفع أو الضر القريب الظاهر والوجه الثالث هو سوء التصور فعلا لحقيقة ما يجري لهم وللناس في هذه الحياة وعلاقته بمشيئة الله وطبيعة أوامر النبي ص لهم ; وحقيقة صلة الرسول بالله سبحانه وتعالى وهذا الوجه الثالث إذا صح ربما يكون قابلا لأن يوسم به ذلك الفريق من المهاجرين الذين كان سوء تصورهم لحقيقة الموت والأجل يجعلهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ويقولون ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب غير أننا ما نزال نميل إلى اعتبار المتحدث عنهم هنا طائفة أخرى تجتمع فيها تلك الأوجه كلها أو بعضها وهذا الوجه الثالث منها إن القضية التي تتناولها هذه الآيات هي جانب من قضية كبيرة القضية المعروفة في تاريخ الجدل والفلسفة في العالم كله باسم قضية القضاء والقدر أو الجبر والاختيار وقد وردت في أثناء حكاية ذلك الفريق من الناس ; ثم في الرد عليهم وتصحيح تصورهم والقرآن يتناولها ببساطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض فلنعرضها كما وردت وكما رد عليها القرآن الكريم وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا إن الله هو الفاعل الأول والفاعل الواحد لكل ما يقع في الكون وما يقع للناس وما يقع من الناس فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا ولكن تحقق الفعل أي فعل لا يكون إلا بإرادة من الله وقدر فنسبة إنشاء الحسنة أو إنشاء السيئة وإيقاعها بهم للرسول ص وهو بشر منهم مخلوق مثلهم نسبة غير حقيقية ; تدل على عدم فقههم لشيء ما في هذا الموضوع إن الإنسان قد يتجه ويحاول تحقيق الخير ; بالوسائل التي أرشد الله إلى أنها تحقق الخير ولكن تحقق الخير فعلا يتم بإرادة الله وقدره لأنه ليست هناك قدرة غير قدرة الله تنشئ الأشياء والأحداث وتحقق ما يقع في هذا الكون من وقائع وإذن يكون تحقق الخير بوسائله التي اتخذها الإنسان وباتجاه الإنسان وجهه عملا من أعمال القدرة الإلهية وإن الإنسان قد يتجه إلى تحقيق السوء أو يفعل ما من شأنه إيقاع السوء ولكن وقوع السوء فعلا ووجوده أصلا لا يتم إلا بقدرة الله وقدر الله لأنه ليس هناك قدرة منشئة للأشياء والأحداث في هذا الكون غير قوة الله وفي الحالتين يكون وجود الحدث وتحققه من عند الله وهذا ما تقرره الآية الأولى أما الآية الثانية ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك فإنها تقرر حقيقة أخرى ليست داخلية ولا متداخلة مع مجال الحقيقة الأولى إنها في واد آخر والنظرة فيها من زاوية أخرى إن الله سبحانه قد سن منها

وشرع طريقا ودل على الخير وحذر من الشر فحين يتبع الإنسان هذا المنهج ويسير في هذا الطريق ويحاول الخير ويحذر الشر فإن الله يعينه على الهدى كما قال والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ويظفر الإنسان بالحسنة ولا يهتم أن تكون من الطواهر التي يحسبها الناس من الخارج كسبا إنما هي الحسنة فعلا في ميزان الله تعالى وتكون من عند الله لأن الله هو الذي سن المنهج وشرع الطريق ودل على الخير وحذر من الشر وحين لا يتبع الإنسان منهج الله الذي سنه ولا يسلك طريقه الذي شرعه ولا يحاول الخير الذي دله عليه ولا يحذر الشر الذي حذره منه حينئذ تصيبه السيئة السيئة الحقيقية سواء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معا ويكون هذا من عند نفسه لأنه هو الذي لم يتبع منهج الله وطريقه وهذا معنى غير المعنى الأول ومجال غير المجال الأول كما هو واضح فيما نحسب ولا يغير هذا من الحقيقة الأولى شيئا وهي أن تحقق الحسنة وتحقق السيئة ووقوعهما لا يتم إلا بقدره الله وقدره لأنه المنشئ لكل ما ينشأ المحدث لكل ما يحدث الخالق لكل ما يكون أيا كانت ملابسة إرادة الناس وعملهم في هذا الذي يحدث وهذا الذي يكون ثم يبين لهم حدود وظيفة الرسول ص وعمله وموقف الناس منه وموقفه من الناس ويرد الأمر كله إلى الله في النهاية وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا إن وظيفة الرسول هي أداء الرسالة لا إحداث الخير ولا إحداث السوء فهذا من أمر الله كما سلف والله شهيد على أنه أرسل النبي ص لأداء هذه الوظيفة وكفى بالله شهيدا وأمر الناس مع الرسول ص أن من أطاعه فقد أطاع الله فلا تفرقه بين الله ورسوله ولا بين قول الله وقول رسوله ومن تولى معرضا مكذبا فأمره إلى الله من ناحية حسابه وجزائه ولم يرسل الرسول ص ليجبره على الهدى ويكرهه على الدين وليس موكلا بحفظه من العصيان والضلال فهذا ليس داخلا في وظيفة الرسول ; ولا داخلا في قدرة الرسول بهذا البيان يصح تصورهم عن حقيقة ما يقع لهم فكله لا ينشأ ولا يتحقق إلا بإرادة الله وقدره وما يصيبهم من حسنة أو سيئة بأي معنى من معاني الحسنة أو السيئة سواء حسب ما يرونه هم في الظاهر أو ما هو في حقيقة الأمر والواقع فهو من عند الله لأنه لا ينشئ شيئا ولا يحدثه ولا يخلقه ويوجده إلا الله وما يصيبهم من حسنة حقيقية في ميزان الله فهو من عند الله لأنه بسبب منهجه وهدايته وما يصيبهم من سيئة حقيقية في ميزان الله فهو من عند أنفسهم لأنه بسبب تنكبهم عن منهج الله والإعراض عن هدايته والرسول وظيفته الأولى والأخيرة أنه رسول لا ينشئ ولا يحدث ولا يخلق ولا يشارك الله تعالى في خاصية الألوهية هذه وهي الخلق والإنشاء والإحداث وهو يبلغ ما جاء به من عند الله فطاعته فيما يأمر به إذن هي طاعة لله وليس هناك طريق آخر لطاعة الله غير طاعة الرسول والرسول ليس مكلفا أن يحدث الهدى للمعرضين المتولين ولا أن يحفظهم من الإعراض والتولي بعد البلاغ والبيان حقائق هكذا واضحة مريحة بينة صريحة ; تبني التصور وتريح الشعور ; وتمضي شوطا مع تعليم الله لهذه الجماعة وإعدادها لدورها الكبير الخطير



الدرس السابع ظاهرة التناسق وعدم الاختلاف في القرآن الكريم

بعد ذلك يحكي السياق عن حال طائفة أخرى في الصف المسلم أم لعلها هي طائفة المنافقين يذكر عنها فعلا جديدا وفصلا جديدا ومع الحكاية التنفير من الفعلة ; ومع التنفير التعليم والتوجيه والتنظيم كل ذلك في آيات قليلة وعبارات معدودة ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيفا أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا إن هذا الفريق من الناس إذا كان عند رسول الله ص يسمع منه القرآن وما فيه من التكليف قالوا طاعة قالوها هكذا جامعة شاملة طاعة مطلقة لا اعتراض ولا استفهام ولا استيضاح ولا استثناء ولكن ما إن يخرجوا من عند رسول الله ص حتى تبيت طائفة منهم غير الذي تقول ; وتروح في ما بينها تتأمر على عدم التنفيذ ; وعلى اتخاذ خطة للتخلص من التكليف أم لعل النص يصور حال الجماعة المسلمة كلها ; ويستثني منها هذه الطائفة ذات الشأن الخاص والتصرف الخاص ويكون المعنى أن المسلمين يقولون طاعة بجملتهم ولكن طائفة منهم وهي هذه الطائفة المنافقة إذا خرجت بيت أفرادها غير ما قالوا وهي صورة ترسم تلك الخلقة بعينها في الصف المسلم فإن هؤلاء مندسون فيه على كل حال وتصرفهم على هذا النحو يؤدي الصف ويخلخله ; والجماعة المسلمة تخوض المعركة في كل ميادينها وبكل قوتها والله سبحانه يطمئن النبي ص والمخلصين في الصف يطمئنهم بأن عينه على هذه الطائفة التي تبيت وتمكر وشعور المسلمين بأن عين الله على المبيتين الماكرين يثبت قلوبهم ويسكب فيها الطمأنينة إلى أن هذه الطائفة لن تضرهم شيئا بتأمرها وتبيتها ثم هي تهديد ووعد للمتأمرين المبيتين ; فلن يذهبوا مفلحين ولن يذهبوا ناجين والله يكتب ما يبيتون وكان الخطة التي وجه الله إليها نبيه ص في معاملة المنافقين هي أخذهم بظاهرهم لا بحقيقة نواياهم والإعراض والتغاضي عما يبدر منهم وهي خطة فتلتهم في النهاية وأضعفتهم وجعلت بقاياهم تتوارى ضعفا وخجلا وهنا طرف من هذه الخطة فأعرض عنهم ومع هذا توجيه بالإغضاء عنهم التطمين بكلاءة الله وحفظه مما يبيتون وتوكل على الله وكفى بالله وكيفا نعم وكفى بالله وكيفا لا يضار من كان وكيله ; ولا يناله تأمر ولا تبيت ولا مكيدة وكأنما كان الذي يدفع هذه الطائفة إلى أن تقول في حضرة الرسول ص مع القائلين طاعة فإذا خرجت بيتت غير الذي تقول كأنما كان هذا بسبب شكهم في مصدر ما يأمرهم به الرسول ص ووطنهم أن هذا القرآن من عنده وحين يوجد مثل هذا الشك لحظة يتوارى سلطان الأمر والتكليف جملة فهذا السلطان مستمد كله من الاعتقاد الجازم الكامل بأن هذا كلام الله وبأنه ص لا ينطق عن الهوى ومن ثم كان هذا التوكيد الشديد الجازم المكرر على هذه الحقيقة وهنا يعرض عليهم القرآن خطة هي غاية ما يبلغه المنهج الرباني من تكريم الإنسان والعقل الإنساني واحترام هذا الكائن البشري وإدراكه الذي وهبه له الخالق المنان يعرض عليهم الاحتكام في أمر القرآن إلى إدراكهم هم وتدبر عقولهم ويعين لهم منهج النظر الصحيح ; كما يعين لهم الظاهرة التي لا تخطىء إذا اتبعها ذلك المنهج وهي ظاهرة واضحة كل الوضوح في القرآن من جهة ; ويمكن للعقل البشري إدراكها من جهة أخرى ودلالاتها على أنه من عند الله دلالة لا تمارى أفلا

يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وفي هذا العرض وهذا التوجيه منتهى الإكرام للإنسان وإدراكه وشخصيته كما قلنا كما أن فيه منتهى النصفة في الاحتكام إلى هذا الإدراك في ظاهرة لا يعيها إدراكها وهي في الوقت ذاته ذات دلالة كما أسلفنا لا تمارى والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبدا ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ما يملك إدراكه في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى ومن ثم فإن كل أحد وكل جيل مخاطب بهذه الآية ومستطيع عند التدبر وفق منهج مستقيم أن يدرك من هذه الظاهرة ظاهرة عدم الاختلاف أو ظاهرة التناسق ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه وتلك الطائفة في ذلك الجيل كانت تخاطب بشيء تدركه وتملك التحقق منه بإدراكها في حدودها الخاصة تتجلى هذه الظاهرة ظاهرة عدم الاختلاف أو ظاهرة التناسق ابتداء في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح ; التوفيق والتعثر القوة والضعف التحليق والهبوط الرفرفة والثقله الإشراف والانطفاء إلى آخر الظواهر التي تتجلى معها سمات البشر وأخصها سمة التغيير والاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال يبدو ذلك في كلام البشر واضحا عندما تستعرض أعمال الأديب الواحد أو المفكر الواحد أو الفنان الواحد أو السياسي الواحد أو القائد العسكري الواحد أو أي كان في صناعته ; التي يبدو فيها الوسم البشري واضحا وهو التغيير والاختلاف هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو الثبات والتناسق هو الظاهرة الملحوظة في القرآن ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظي والأداء الأسلوبية فهناك مستوى واحد في هذا الكتاب المعجز تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التي يتناولها ولكن يتحد مستواه وأفق الكمال في الأداء بلا تغيير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى كما هو الحال في كل ما يصنع الإنسان إنه يحمل طابع الصنعة الإلهية ; وبدل على الصانع يدل على الموجود الذي لا يتغير من حال إلى حال ولا تتوالى عليه الأحوال وتتجلى ظاهرة عدم الاختلاف والتناسق المطلق الشامل الكامل بعد ذلك في ذات المنهج الذي تحمله العبارات ويؤديه الأداء منهج التربية للنفس البشرية والمجتمعات البشرية ومحتويات هذا المنهج وجوانبه الكثيرة ومنهج التنظيم للنشاط الإنساني للأفراد وللمجتمع الذي يضم الأفراد وشتى الجوانب والملابسات التي تطرأ في حياة المجتمعات البشرية على توالي الأجيال ومنهج التقويم للإدراك البشري ذاته وتناول شتى قواه وطاقاته وإعمالها معا في عملية الإدراك ومنهج التنسيق بين الكائن الإنساني بجملة في جميع مجتمعاته وأجياله ومستوياته وبين هذا الكون الذي يعيش فيه ; ثم بين دنياه وآخرته ; وما يشتجر في العلاقة بينهما من ملابسات لا تحصى في عالم كل فرد ; وفي عالم الإنسان وهو يعيش في هذا الكون بشكل عام وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة الإنسان واضحا كل الوضوح في جانب التعبير اللفظي والأداء الفني فإنه أوضح من ذلك في جانب التفكير والتنظيم والتشريع فما من نظرية بشرية وما من مذهب بشري إلا وهو يحمل الطابع البشري جزئية النظر والرؤية والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية وعدم رؤية المتناقضات في النظرية أو المذهب أو الخطة ; التي تؤدي إلى الاصطدام

بين مكوناتها إن عاجلا وإن آجلا كما تؤدي إلى إيذاء بعض الخصائص في الشخصية البشرية الواحدة التي لم يحسب حساب بعضها ; أو في مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحدة منها إلى عشرات ومئات من النقائص والاختلاف الناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود ومن الجهل البشري بما وراء اللحظة الحاضرة فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة في أية لحظة حاضرة وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل الثابت الأصول ; ثبات النواميس الكونية ; الذي يسمح بالحركة الدائمة مع ثباته كما تسمح بها النواميس الكونية وتدبر هذه الظاهرة في آفاقها هذه قد لا يتسنى لكل إدراك ولا يتسنى لكل جيل بل المؤكد أن كل إدراك سيتفاوت مع الآخر في إدراكها ; وكل جيل سيأخذ بنصيبه في إدراكها ويدع آفاقا منها للأجيال المترقية في جانب من جوانب المعرفة أو التجربة إلا أنه يتبقى من وراء كل الاختلاف البشري الكثير في إدراك هذه الظاهرة كاختلافه الكثير في كل شيء آخر بقية يلتقي عليها كل إدراك ويلتقي عليها كل جيل وهي أن هذه الصنعة شيء وصنعة البشر شيء آخر وأنه لا اختلاف في هذه الصنعة ولا تفاوت وإنما وحدة وتناسق ثم يختلف الناس بعد ذلك ما يختلفون في إدراك أبعاد وآفاق وأنواع ذلك التناسق وإلى هذا القدر الذي لا يخطئه متدبر حين يتدبر بكل الله تلك الطائفة كما بكل كل أحد وكل جماعة وكل جيل وإلى هذا القدر من الإدراك المشترك بكل إليهم الحكم على هذا القرآن ; وبناء اعتقادهم في أنه من عند الله ولا يمكن أن يكون من عند غير الله ويحسن أن نقف هنا وقفة قصيرة لتحديد مجال الإدراك البشري في هذا الأمر وفي أمر الدين كله فلا يكون هذا التكريم الذي كرمه الله للإنسان بهذا التحكيم سبيلا إلى الغرور وتجاوز الحد المأمون ; والانطلاق من السياج الحافظ من الماضي في التيه بلا دليل إن مثل هذه التوجيهات في القرآن الكريم يساء إدراكها وإدراك مداها فيذهب بها جماعة من المفكرين الإسلاميين قديما وحديثا إلى إعطاء الإدراك البشري سلطة الحكم النهائية في أمر الدين كله ويجعلون منه ندا لشرع الله بل يجعلونه هو المسيطر على شرع الله الأمر ليس كذلك الأمر أن هذه الأداة العظيمة أداة الإدراك البشري هي بلا شك موضع التكريم من الله ومن ثم بكل إليها إدراك الحقيقة الأولى حقيقة أن هذا الدين من عند الله لأن هناك ظواهر يسهل إدراكها ; وهي كافية بذاتها للدلالة دلالة هذا الإدراك البشري ذاته على أن هذا الدين من عند الله ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلما بها أصبح من منطلق هذا الإدراك ذاته أن يسلم بعد ذلك تلقائيا بكل ما ورد في هذا الدين لا يهم عندئذ أن يدرك حكمته الخفية أو لا يدركها فالحكمة متحققه حتما ما دام من عند الله ولا يهم عندئذ أن يرى المصلحة متحققة فيه في اللحظة الحاضرة فالمصلحة متحققة حتما ما دام من عند الله والعقل البشري ليس ندا لشرعية الله فضلا على أن يكون الحاكم عليها لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا في المدى المحدود ; ويستحيل أن ينظر من جميع الزوايا وإلى جميع المصالح لا في اللحظة الواحدة ولا في التاريخ كله بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة ; فلا ينبغي أن يكون الحكم فيها أو في حكم ثابت قطعي من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشري وأقصى ما يتطلب من الإدراك البشري أن يتحرى إدراك دلالة النص وانطباقه ; لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه فالمصلحة متحققة أصلا بوجود النص من قبل الله تعالى إنما يكون هذا فيما

لا نص فيه مما يجد من الأقضية ; وهذا سبق بيان المنهج فيه وهو رده إلى الله والرسول وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيقي إلى جانب الاجتهاد في فهم النص والوقوف عنده لا تحكيم العقل البشري في أن مدلوله يحمل المصلحة أو لا يحملها إن مجال العقل البشري الأكبر في معرفة نواميس الكون والإبداع في عالم المادة وهو ملك عريض يجب أن نحترم الإدراك البشري بالقدر الذي أراده الله له من التكريم في مجاله الذي يحسنه ثم لا نتجاوز به هذا المجال كي لا نمضى في التيه بلا دليل إلا دليلا يهجم على ما لا يعرف من مجاهل الطريق وهو عندئذ أخطر من المضي بلا دليل

الدرس الثامن النهي عن إشاعة الأخبار والتوجيه لحسن التعامل معها

ويمضي السياق يصور حال طائفة أخرى أو يصف فعلة أخرى لطائفة في المجتمع المسلم وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولوردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا والصورة التي يرسمها هذا النص هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي لم تألف نفوسهم النظام ; ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر ; وفي النتائج التي تترتب عليها وقد تكون قاصمة ; لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ; ولم يدركوا جدية الموقف ; وأن كلمة عابرة وقلته لسان قد تجر من العواقب على الشخص ذاته وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال ; وما لا يتدرك بعد وقوعه بحال أو ربما لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر ; وهكذا لا يعينهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك وإذاعتها حين يتلقاها لسان عن لسان سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف فكلتاها قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة فإن إشاعة أمر الأمن مثلا في معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تحدث نوعا من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة وقد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباك وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف وقد تكون كذلك القاضية وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه ; أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته أو هما معا ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعيتين في المجتمع المسلم حينذاك ; باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في الإيمان ومختلفة المستويات في الإدراك ومختلفة المستويات في الولاء وهذه الخلخلة هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرباني والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم أي لو أنهم ردوا ما يبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف إلى الرسول ص إن كان معهم أو إلى أمرائهم المؤمنين لعلم حقيقته القادرون على استنباط هذه الحقيقة ; واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة والملابسات المتراكمة فمهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم الذي يقوده أمير مؤمن بشرط

الإيمان ذاك وحده حين يبلغ إلى أذنيه خبر أن يسارع فيخبر به نبيه أو أميره لا أن ينقله وبذيعه بين زملائه ; أو بين من لا شأن لهم به لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر حتى بعد ثبوته أو عدم إذاعته وهكذا كان القرآن يربي فيغرس الإيمان والولاء للقيادة المؤمنة ; ويعلم نظام الجندية في آية واحدة بل بعض آية فصدر الآية يرسم صورة منفرة للجندي وهو يتلقى نيا الأمن أو الخوف فيحمله ويجري متنقلا مديعا له من غير تثبت ومن غير تمحيص ومن غير رجعة إلى القيادة ووسطها يعلم ذلك التعليم وأخرها يربط القلوب بالله في هذا ويذكرها بفضله ويحركها إلى الشكر على هذا الفضل ويحذرنا من اتباع الشيطان الواقف بالمرصاد ; الكفيل بإفساد القلوب لولا فضل الله ورحمته ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا آية واحدة تحمل هذه الشحنة كلها ; وتتناول القضية من أطرافها ; وتعمق السريرة والضمير ; وهي تضع التوجيه والتعليم ذلك أنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا

الدرس التاسع تحريض المؤمنين على القتال

وحيث يصل السياق إلى هذا الحد من تقويم عيوب الصف ; التي تؤثر في موقفه في الجهاد وفي الحياة ومنذ أول الدرس وهذا التقويم مطرد لهذه العيوب عندئذ ينتهي إلى قمة التحريض على القتال الذي جاء ذكره في ثنايا الدرس قمة التكليف الشخصي الذي لا يقعد الفرد عنه تبطئة ولا تخذيل ولا خلل في الصف ولا وعورة في الطريق حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ص بأن يقاتل ولو كان وحيدا فإنه لا يحمل في الجهاد إلا تبعه شخصه ص وفي الوقت ذاته يحرض المؤمنين على القتال وكذلك يوحى إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر فالله هو الذي يتولى المعركة والله أشد بأسا وأشد تنكيلا فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا ومن خلال هذه الآية بالإضافة إلى ما قبلها تبرز لنا ملامح كثيرة في الجماعة المسلمة يومذاك كما تبرز لنا ملامح كثيرة في النفس البشرية في كل حين أ يبرز لنا مدى الخلطة في الصف المسلم ; وعمق آثار التبطئة والتعويق والتثبيط فيه ; حتى لتكون وسيلة الاستنهاض والاستجاشة هي تكليف النبي ص أن يقاتل في سبيل الله ولو كان وحده ليس عليه إلا نفسه ; مع تحريض المؤمنين غير متوقف مضيه في الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم ولو أن عدم استجابتهم جملة أمر لا يكون ولكن وضع المسألة هذا الوضع يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو ; واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة فوق ما يحمله النص طبعا من حقيقة أساسية ثابتة في التصور الإسلامي وهي أن كل فرد لا يكلف إلا نفسه ب كما يبرز لنا مدى المخاوف والمتاعب في التعرض لقتال المشركين يومذاك حتى ليكون أقصى ما يعلق الله به رجاء المؤمنين أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا ; فيكون المسلمون ستارا لقدرته في كف بأسهم عن المسلمين مع إبراز قوة الله سبحانه وأنه أشد بأسا

وأشد تنكيلا وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك ;
والمخاوف الميثوثة في الصف المسلم وربما كان هذا بين أحد والخندق
فهذه أخرج الأوقات التي مرت بها الجماعة المسلمة في المدينة ; بين
المنافقين وكيد اليهود وتحفز المشركين وعدم اكتمال التصور الإسلامي
ووضوحه وتناسقه بين المسلمين ج كذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية ;
وهي تدفع إلى التكاليف التي تشق عليها إلى شدة الارتباط بالله ; وشدة
الطمأنينة إليه ; وشدة الاستعانة به ; وشدة الثقة بقدرته وقوته فكل وسائل
التقوية غير هذه لا تجدي حين يبلغ الخطر قمته وهذه كلها حقائق يستخدمها
المنهج الرباني ; والله هو الذي خلق هذه النفوس وهو الذي يعلم كيف تربي
وكيف تقوى وكيف تستجاش وكيف تستجيب

الدرس العاشر قاعدة عامة في الشفاعة

وبمناسبة تحريض الرسول ص للمؤمنين على القتال الذي ورد الأمر به في
آخر الدرس وذكر المبطلين الميثطين في أوله يقرر قاعدة عامة في
الشفاعة وهي تشمل التوجيه والنصح والتعاون من يشفع شفاعة حسنة
يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله
على كل شيء مقيتًا فالذي يشجع ويحرض ويعاون على القتال في سبيل
الله يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وأثارها والذي يبطله ويشبط تكون
له تبعه فيها وفي أثارها وكلمة كفل توجي بأنه متكفل بجرائرها والمبدأ عام
في كل شفاعة خير أو شفاعة سوء وقد ذكر المبدأ العام بمناسبة الملابس
الخاصة على طريقة المنهج القرآني في إعطاء القاعدة الكلية من خلال
الحادثة الجزئية وربط الواقعة المفردة بالمبدأ العام كذلك وربط الأمر كله
بالله الذي يرزق بكل شيء أو الذين يمنح القدرة على كل شيء وهو ما
يفسر كلمة مقيت في قوله تعالى في التعقيب وكان الله على كل شيء
مقيتًا ثم استطرده السياق بعد ذكر الشفاعة إلى الأمر برد التحية بخير منها
أو بمثلها والتحية في المجتمع علاقة من العلاقات التي تدور بها عجلة الحياة
في يسر إذا اتبع الأدب الواجب فيها والمناسبة قريبة بينها في جو المجتمع
وبين الشفاعة التي سبق التوجيه فيها وإذا حيتم بتحية فحيوا بأحسن منها
أو ردها إن الله كان على كل شيء حسيبًا وقد جاء الإسلام بتحيته الخاصة
التي تميز المجتمع المسلم ; وتجعل كل سمة فيه حتى السمات اليومية
العادية متفردة متميزة ؛ لا تندغم ولا تضع في سمات المجتمعات الأخرى
ومعالمها جعل الإسلام تحيته السلام عليكم أو السلام عليكم ورحمة الله أو
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته والرد عليها بأحسن منها بالزيادة على
كل منها ما عدا الثالثة فلم تبق زيادة لمستزيد فالرد على الأولى وعليكم
السلام ورحمة الله والرد على الثانية وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته
والرد على الثالثة وعليكم إذ أنها استوفت كل الزيادات فترد بمثلها وهكذا
روي عن النبي ص ونقف أمام اللسمات الكامنة في آية التحية هذه إنها أولا
تلك السمة المتفردة التي يحرص المنهج الإسلامي على أن يطبع بها
المجتمع المسلم بحيث تكون له ملامحه الخاصة وتقاليد الخاصة كما أن له
شرائعه الخاصة ونظامه الخاص وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الخاصة

بالتفصيل عند الكلام عن تحويل القبلة وتميز الجماعة المسلمة بقبلتها كتميزها بعقيدتها وذلك في سورة البقرة من قبل في الضلال وهي ثانياً المحاولة الدائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى بين أفراد الجماعة المسلمة وإفشاء السلام والرد على التحية بأحسن منها من خير الوسائل لإنشاء هذه العلاقات وتوثيقها وقد سئل رسول الله ص أي العمل خير قال > تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف < هذا في إفشاء السلام بين الجماعة المسلمة ابتداءً وهو سنة أما الرد عليها فهو فريضة بهذه الآية والعناية بهذا الأمر تبدو قيمتها عند الملاحظة الواقعية لآثار هذا التقليد في إصفاء القلوب وتعارف غير المتعارفين ; وتوثيق الصلة بين المتصلين وهي ظاهرة يدركها كل من يلاحظ آثار مثل هذا التقليد في المجتمعات ويتدبر نتائجها العجيبة وهي ثالثاً نسمة رخية في وسط آيات القتال قبلها وبعدها لعل المراد منها أن يشار إلى قاعدة الإسلام الأساسية السلام فالإسلام دين السلام وهو لا يقاتل إلا لإقرار السلام في الأرض بمعناه الواسع الشامل السلام الناشئ من استقامة الفطرة على منهج الله

الوحدة الثامنة توجيهات في التعامل مع أطراف المعسكرات العادية

مقدمة الوحدة

الدرس الأول الألوهية أساس المجتمع الإسلامي

الدرس الثاني إنكار التميع في الموقف من المنافقين

الدرس الثالث توجيه للتعامل مع المحابدين من الكافرين

الدرس الرابع أمر بقتال المحاربين

الدرس الخامس من أحكام القتل الخطأ وحرمة القتل العمد

مقدمة الوحدة

أسس المعاملات الدولية يبدأ هذا الدرس بقاعدة التصور الإسلامي الأساسية التوحيد وإفراد الله سبحانه بالألوهية ; ثم يبني على هذه القاعدة أحكاماً شتى في معاملة المجتمع المسلم مع المعسكرات المختلفة ; بعد التنديد بانقسام الصف المسلم إلى فئتين ورأيين في معاملة المنافقين ويبدو أنها جماعة خاصة من المنافقين من غير سكان المدينة فتقوم هذه الأحكام وهذا التنديد أيضاً على قاعدتها الأصلية التي يقوم عليها بناء النظام الإسلامي كله والتي يتكرر ذكرها كلما اتجه المنهج الرباني إلى تشريع أو توجيه هذه الأحكام في معاملة المعسكرات المختلفة هي طرف من

القواعد التي أنشأها الإسلام لأول مرة في تاريخ البشرية لتنظيم المعاملات الدولية ; واتخاذ قواعد أخرى لهذه المعاملات غير تحكيم السيف ومنطق القوة وشريعة الغاب . إن أوروبا بقانونها الدولي وكل ما تفرع عنه من المنظمات الدولية لم تبدأ في هذا الاتجاه إلا في القرن السابع عشر الميلادي الحادي عشر الهجري ولم يزل هذا القانون في جملته حبرا على ورق ; ولم تزل هذه المنظمات في جملتها أدوات تختفي وراءها الأطماع الدولية ; ومنابر للحرب الباردة وليست أداة لإحقاق حق ; ولا لتحقيق عدل وقد دعت إليها منازعات بين دول متكافئة القوى ولكن كلما اختل هذا التكافؤ لم يعد للقوانين الدولية قيمة ولا للمنظمات الدولية عمل ذو قيمة أما الإسلام المنهج الرباني للبشر فقد وضع أسس المعاملات الدولية في القرن السابع الميلادي الأول الهجري ووضعها من عند نفسه ; دون أن تضطره إلى ذلك ملاسبات القوى المتكافئة فهو كان يضعها ليستخدمها هو وليقيم المجتمع المسلم علاقاته مع المعسكرات الأخرى على أساسها ليرفع للبشرية راية العدالة وليقيم لها معالم الطريق ولو كانت المعسكرات الأخرى الجاهلية لا تعامل المجتمع المسلم بتلك المبادئ من جانبها فلقد كان الإسلام ينشئ هذه المبادئ إنشاء وللمرة الأولى وهذه القواعد للمعاملات الدولية متفرقة في مواضعها ومناسباتها من سور القرآن وهي تؤولف في مجموعها قانونا كامل للتعامل الدولي يضم حكما لكل حالة من الحالات التي تعرض بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات الأخرى محاربة ومهادنة ومحالفة ومحايدة ومرتبطة مع محارب أو مهادن أو محالف أو محايد الخ وليس بنا هنا أن نستعرض هذه المبادئ والأحكام فهي جديرة ببحث مستقل يتولاه متخصص في القانون الدولي ولكننا نستعرض ما جاء في هذه المجموعة من الآيات في هذا الدرس وهي تتعلق بالتعامل مع الطوائف التالية أ المنافقين غير المقيمين في المدينة ب الذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق ج المحايدين الذين تضيق صدورهم بحرب المسلمين أو حرب قومهم كذلك وهم على دينهم د المتلاعبين بالعبقيدة الذين يظهرون الإسلام إذا قدموا المدينة ويظهرون الكفر إذا عادوا إلى مكة ه حالات القتل الخطأ بين المسلمين والقتل العمد على اختلاف المواطنين والأقوام وسنجد أحكاما صريحة واضحة في جميع هذه الحالات ; التي تكون جانبا من مبادئ التعامل في المحيط الدولي شأنها شأن بقية الأحكام التي تتناول شتى العلاقات الأخرى

الدرس الأول الألوهية أساس المجتمع الإسلامي

ونبدأ من حيث بدأ السياق القرآني بالقاعدة الأولية التي يقوم عليها بناء الإسلام كله وبناء النظام الإسلامي في شتى جوانبه الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا إنه من توحيد الله سبحانه وإفراده بالألوهية تبدأ خطوات المنهج الرباني سواء في تربية النفوس أم في إقامة المجتمع ووضع شرائعه وتنظيمه ; وسواء كانت هذه الشرائع متعلقة بالنظام الداخلي للمجتمع المسلم أم بالنظام الدولي الذي يتعامل هذا المجتمع على أساسه مع المجتمعات الأخرى ومن ثم نجد

هذا الافتتاح لمجموعة الآيات المتضمنة لطائفة من قواعد التعامل الخارجية والداخلية أيضا كذلك من الاعتقاد في الآخرة وجمع الله الواحد لعباده ليحاسبهم هناك على ما أتاح لهم في الدنيا من فرص العمل والابتلاء تبدأ خطوات هذا المنهج في تربية النفوس وإثارة الحساسية فيها تجاه التشريعات والتوجيهات ; وتجاه كل حركة من حركاتها في الحياة فهو الابتلاء في الصغيرة والكبيرة في الدنيا ; والحساب على الصغيرة والكبيرة في الآخرة وهذا هو الضمان الأوثق لنفاذ الشرائع والأنظمة ; لأنه كامن هناك في أعماق النفس حارس عليها سهران حيث يغفو الرقباء ويغفل السلطان هذا حديث الله سبحانه وهذا وعده ومن أصدق من الله حديثاً

الدرس الثاني إنكار التميع في الموقف من المنافقين

وبعد هذه اللمسة للقلوب وهي اللمسة الدالة على طريقه هذا المنهج في التربية كما هي دالة على أساس التصور الاعتقادي العملي في حياة الجماعة المسلمة بعد هذه اللمسة يبدأ في إستنكار حالة من التميع في مواجهة النفاق والمنافقين ; وقلة الحسم في موضع الحسم في معاملة الجماعة المسلمة لهم ; وانقسام هذه الجماعة فئتين في أمر طائفة من المنافقين من خارج المدينة كما سنبين حيث يشي هذا الاستنكار بما كان في المجتمع المسلم يومئذ من عدم التناسق ; كما يشي بتشدد الإسلام في ضرورة تحديد الأمور وحسمها وكراهة التميع في التعامل مع المنافقين والنظر إليهم ; والارتكان إلى ظاهرهم ما لم يكن ذلك عن خطة مقررّة هادفة فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ; أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيراً وقد وردت في شأن هؤلاء المنافقين روايات أهمها روايتان قال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا شعبة قال عدي بن ثابت أخبرني عبدالله بن يزيد عن زيد ابن ثابت أن رسول الله ص خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله ص فيهم فرقتين فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا هم المؤمنون فأنزل الله فما لكم في المنافقين فئتين فقال رسول الله ص > إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد < أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة وقال العوفي عن ابن عباس نزلت في قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام ; وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عدوكم وقالت فئة أخرى من المؤمنين سبحان الله أو كما قالوا أقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل إنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء فنزلت فما لكم في المنافقين فئتين رواه ابن أبي حاتم وقد روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب

من هذا ومع أن الرواية الأولى أوثق من ناحية السند والإخراج إلا أننا نرجح مضمون الرواية الثانية بالاستناد إلى الواقع التاريخي ؛ فالثابت أن منافقي المدينة لم يرد أمر بقتالهم ؛ ولم يقاتلهم الرسول ص أو يقتلهم إنما كانت هناك خطة أخرى مقررة في التعامل معهم هي خطة الإغضاء عنهم وترك المجتمع نفسه يبنذهم وتقطع الأسناد من حولهم بطرد اليهود وهم الذين يغرونهم ويملون لهم من المدينة أولاً ثم من الجزيرة العربية كلها أخيراً أما هنا فنحن نجد أمراً جازماً بأخذهم أسرى وقتلهم حيث وجدوا مما يقطع بأنهم مجموعة أخرى غير مجموعة المنافقين في المدينة وقد يقال إن الأمر بأخذهم أسرى وقتلهم مشروط بقوله تعالى فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم فهو تهديد ليقبلوا عما هم فيه وقد يكونون أقبلوا فلم ينفذ الرسول ص هذا الأمر فيهم ولكن كلمة يهاجروا تقطع في هذه الفترة بأنهم ليسوا من أهل المدينة وأن المقصود هو أن يهاجروا إلى المدينة ؛ فقد كان هذا قبل الفتح ومعنى الهجرة قبل الفتح كان محددًا بأنه الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ؛ والانضمام للجماعة المسلمة ؛ والخضوع لنظامها وإلا فهو الكفر أو النفاق وسيجيء في سياق السورة في الدرس التالي تنديد شديد بموقف الذين بقوا بغير عذر من الضعف من المسلمين في مكة ؛ دار الكفر والحرب بالنسبة لهم ولو كانوا من أهلها ومواطنين فيها وكل هذا يؤيد ترجيح الرواية الثانية وأن هؤلاء المنافقين كانوا جماعة من مكة أو ممن حولها يقولون كلمة الإسلام بأفواههم ويظاهرون عدو المسلمين بأعمالهم ونعود إلى النص القرآني فما لكم في المنافقين فئتين ؛ والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً إنما نجد في النصوص استنكاراً لانقسام المؤمنين فئتين في أمر المنافقين ؛ وتعجباً من اتخاذهم هذا الموقف ؛ وشدة وحسماً في التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته وفي التعامل مع أولئك المنافقين كذلك وكل ذلك يبشئ بخطر التميع في الصف المسلم حينذاك وفي كل موقف مماثل التميع في النظرة إلى النفاق والمنافقين ؛ لأن فيها تمييعاً كذلك في الشعور بحقيقة هذا الدين ذلك أن قول جماعة من المؤمنين سبحان الله أو كما قالوا أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم وتصورهم للأمر على هذا النحو من أنه كلام مثل ما يتكلم المسلمون مع أن شواهد الحال كلها وقول هؤلاء المنافقين إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس وشهادة الفئة الأخرى من المؤمنين وقولهم يظاهرون عدوكم تصورهم للأمر على هذا النحو فيه تمييع كبير لحقيقة الإيمان في ظروف تستدعي الوضوح الكامل والحسم القاطع فإن كلمة تقال باللسان ؛ مع عمل واقعي في مساعدة عدو المسلمين الظاهرين لا تكون إلا نفاقاً ولا موضع هنا للتسامح أو للإغضاء لأنه تمييع للتصور ذاته وهذا هو الخطر الذي يواجهه النص القرآني بالعجب والاستنكار والتشديد البين ولم يكن الحال كذلك في الإغضاء عن منافقي المدينة فقد كان التصور واضحاً هؤلاء منافقون ولكن هناك خطة مقررة للتعامل معهم هي أخذهم بظاهريهم والإغضاء إلى حين وهذا أمر آخر غير أن ينافح جماعة من المسلمين عن

المنافقين لأنهم قالوا كلاما كالذي يقوله المسلمون وأدوا بالسنتهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله بينما هم يظهرون أعداء المسلمين من أجل هذا التميع في فهم فئة من المسلمين ومن أجل ذلك الاختلاف في شأن المنافقين في الصف المسلم كان هذا الاستنكار الشديد في مطلع الآية ثم تبعه الإيضاح الإلهي لحقيقة موقف هؤلاء المنافقين والله أركسهم بما كسبوا ما لكم فئتين في شأن المنافقين والله أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم وهي شهادة من الله حاسمة في أمرهم بأنهم واقعون في السوء بما أضمرُوا وبما عملوا من سوء ثم استنكار آخر أتريدون أن تهدوا من أضل الله ولعله كان في قول الفريق المتسامح ما يشير إلى إعطائهم فرصة ليهتدوا ويتركوا اللججة فاستنكر الله هذا في شأن قوم استحقوا أن يوقعهم الله في شر أعمالهم وسوء مكاسبهم ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا فإنما يضل الله الضالين أي يمد لهم في الضلالة حين يتجهون هم بجهدهم ونيتهم إلى الضلالة وعندئذ تغلق في وجوههم سبل الهداية ; بما بعدوا عنها وسلكوا غير طريقها ; ونبذوا العون والهدى وتنكروا لمعالم الطريق ثم يخطو السياق خطوة أخرى في كشف موقف المنافقين إنهم لم يضلوا أنفسهم فحسب ; ولم يستحقوا أن يوقعهم الله في الضلالة بسعيهم ونيتهم فحسب إنما هم كذلك يبتغون إضلال المؤمنين ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء إنهم قد كفروا على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون ونطقوا بالشهادتين نطقا يكذبه العمل في مظاهرة أعداء المسلمين وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد فالذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين ولا بد له من عمل وسعي ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر ليكونوا كلهم سواء هذا هو الإيضاح الأول لحقيقة موقف أولئك المنافقين وهو يحمل البيان الذي يرفع التميع في تصور الإيمان ; وقيمه على أساس واضح من القول والعمل متطابقين وإلا فلا عيرة بكلمات اللسان وحولها هذه القرائن التي تشهد بالكذب والنفاق والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية مفزعة لهم وهو يقول لهم ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فقد كانوا حديثي عهد بتذوق حلاوة الإيمان بعد مرارة الكفر وبالنقلة الضخمة التي يجدونها في أنفسهم بين مشاعرهم ومستواهم ومجتمعهم في الجاهلية ثم في الإسلام وكان الفرق واضحا بارزا في مشاعرهم وفي واقعهم تكفي الإشارة إليه لاستثارة عداوتهم كلها لمن يريد أن يردهم إلى ذلك السفح الهابط سفح الجاهلية الذي التقطهم منه الإسلام ; فسار بهم صعودا في المرتقى الصاعد نحو القمة السامقة ومن ثم يتكىء المنهج القرآني على هذه الحقيقة ; فيوجه إليهم الأمر في لحظة التوفز والتحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذي يتهددهم من قبل هؤلاء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ونحس من النهي عن اتخاذ أولياء منهم أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا في نفوس المسلمين في المدينة وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضا وكان المنهج القرآني يعالج هذه الرواسب ; ويقرر للأمة المسلمة قواعد ارتباطاتها كما يقرر قواعد تصورها في الوقت ذاته كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة أو روابط الدم والقرابة أو روابط الحياة في أرض واحدة أو مدينة واحدة أو روابط المصالح الاقتصادية في التجارة

وغير التجارة إنما تقوم الأمة على العقيدة ; وعلى النظام الاجتماعي المنبثق من هذه العقيدة ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين في دار الإسلام وبين غيرهم ممن هم في دار الحرب ودار الحرب هي يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام ; وينضموا إلى المجتمع المسلم أي إلى الأمة المسلمة حيث تكون هجرتهم لله وفي سبيل الله من أجل عقيدتهم لا من أجل أي هدف آخر ; وإقامة المجتمع المسلم الذي يعيش بالمنهج الإسلامي لا لأي غرض آخر بهذه النصاعة وبهذا الحسم وبهذا التحديد الذي لا يقبل أن تختلط به شوائب أخرى أو مصالح أخرى أو أهداف أخرى فإن هم فعلوا فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم في دار الحرب وهاجروا إلى دار الإسلام ليعيشوا بالنظام الإسلامي المنبثق من العقيدة الإسلامية القائم على الشريعة الإسلامية إن هم فعلوا هذا فهم أعضاء في المجتمع المسلم مواطنون في الأمة المسلمة وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال فإن تولوا فخذوهم أي أسرى واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرًا وهذا الحكم كما قلنا هو الذي يرجح عندنا أنهم لم يكونوا هم منافقي المدينة إذ قد اتبعت مع منافقي المدينة سياسة أخرى إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له ; فلا يكرههم أبداً على اعتناق عقيدته ولهم حتى وهم يعيشون في ظل نظامه ودولته أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام في غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين فقد ورد في القرآن من استنكار مثل هذا الطعن من أهل الكتاب ما لا يدع مجالاً للشك في أن الإسلام لا يدع غير المعتنقين له ممن يعيشون في ظله يطعنون فيه ويموهون حقائقه ويلبسون الحق بالباطل كما تقول بعض الآراء المائعة في زماننا هذا وحسب الإسلام أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته وأنه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم ; وأنه يمتنعهم بخير الوطن الإسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام ; وأنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفه جهارا نهارا في العقيدة ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال لا يتسامح مع من يقولون إنهم يوحدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية كالحاكمية والتشريع للناس ; فيصم أهل الكتاب بأنهم مشركون لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم لا لأنهم عبدوهم ولكن لأنهم أحلوا لهم الحلال وحرموا عليهم الحرام فاتبعوهم ولا يتسامح هذا التسامح في وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم بقوا في دار الكفر يناصرون أعداء المسلمين ذلك أن التسامح هنا ليس تسامحا إنما هو تميع والإسلام عقيدة التسامح ولكنه ليس عقيدة التميع إنه تصور جاد ونظام جاد والجد لا ينافي التسامح ولكنه ينافي التميع وفي هذه اللفتات واللمسات من المنهج القرآني للجماعة المسلمة الأولى بيان وبلاغ

ثم استثنى من هذا الحكم حكم الأسر والقتل لهذا الصنف من المنافقين الذين يعينون أعداء المسلمين من يلجأون إلى معسكر بينه وبين الجماعة الإسلامية عهد عهد مهادنه أو عهد ذمة ففي هذه الحالة يأخذون حكم المعسكر الذي يلتجئون إليه ويتصلون به إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ويبدو في هذا الحكم اختيار الإسلام للمسلم حيثما وجد مجالاً للمسلم لا يتعارض مع منهجه الأساسي من حرية الإبلاغ وحرية الاختيار ; وعدم الوقوف في وجه الدعوة بالقوة مع كفالة الأمن للمسلمين ; وعدم تعريضهم للفتنة أو تعريض الدعوة الإسلامية ذاتها للتجميد والخطر ومن ثم يجعل كل من يلجأ ويتصل ويعيش بين قوم معاهدين عهد ذمة أو عهد هدنة شأنه شأن القوم المعاهدين يعامل معاملتهم ويسالم مسالمتهم وهي روح سلمية واضحة المعالم في مثل هذه الأحكام كذلك يستثنى من الأسر والقتل جماعة أخرى هي الأفراد أو القبائل أو المجموعات التي تريد أن تقف على الحياد فيما بين قومهم وبين المسلمين من قتال إذ تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين مع قومهم كما تضيق صدورهم أن يقاتلوا قومهم مع المسلمين فيكفوا أيديهم عن الفريقين بسبب هذا التحرج من المساس بهؤلاء أو هؤلاء أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم وواضح كذلك في هذا الحكم الرغبة السلمية في اجتناب القتال ; حيثما كف الآخرون عن التعرض للمسلمين ودعوتهم ; واختاروا الحياد بينهم وبين المحاربين لهم وهؤلاء الذين يتخرجون أن يحاربوا المسلمين أو يحاربوا قومهم كانوا موجودين في الجزيرة ; وفي قریش نفسها ; ولم يلزمهم الإسلام أن يكونوا معه أو عليه فقد كان حسبه ألا يكونوا عليه كما أنه كان المرجو من أمرهم أن ينحازوا إلى الإسلام حينما تزول الملابس التي تخرجهم من الدخول فيه ; كما وقع بالفعل ويحبب الله المسلمين في انتهاج هذه الخطة مع المحايدین المتخرجين فيكشف لهم عن الفرض الثاني الممكن في الموقف فلقد كان من الممكن بدل أن يقفوا هكذا على الحياد متخرجين أن يسلمهم الله على المسلمين فيقاتلوهم مع أعدائهم المحاربين فاما وقد كفهم الله عنهم على هذا النحو فالسلم أولى وتركهم وشأنهم هو السبيل ولو شاء الله لسلمهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً وهكذا يلمس المنهج التربوي الحكيم نفوس المسلمين المتحمسين الذين قد لا يرضون هذا الموقف من هذا الفريق يلمسه بما في هذا الموقف من فضل الله وتدييره ; ومن كف لجانب من العداة والأذى كان سيضاعف العباء على عاتق المسلمين ويعلمهم أن يأخذوا الخير الذي يعرض فلا يرفضوه ويحتموا الشر الذي يأخذ طريقه بعيداً عنهم فلا يناوشوه طالما أن ليس في هذا كله تفريط في شيء من دينهم ولا تمبيع لشيء من عقيدتهم ; ولا رضى بالدنية في طلب السلم الرخيصة لقد نهاهم عن السلم الرخيصة لأنه ليس الكف عن القتال بأي ثمن هو غاية الإسلام إنما غاية الإسلام السلم التي لا تتحيف حقاً من حقوق الدعوة ولا من حقوق المسلمين لا حقوق أشخاصهم وذواتهم ; ولكن حقوق هذا المنهج الذي يحملونه ويسمون به مسلمين وإن من حق هذا المنهج أن تزال العقبات كلها من طريق إبلاغ دعوته وبيانه للناس في كل زاوية من زوايا الأرض وأن يكون لكل من شاء ممن بلغتهم الدعوة أن يدخل فيه فلا يضار ولا يؤذي في كل زاوية من زوايا الأرض وأن تكون هناك القوة التي يخشاها كل من يفكر

في الوقوف في وجه الدعوة في صورة من الصور أو مضارة من يؤمن بها أي لون من ألوان المضارة وبعد ذلك فالسلم قاعدة والجهاد ماض إلى يوم القيامة

الدرس الرابع أمر بقتال المحاربين

ولكن هناك طائفة أخرى لا يتسامح معها الإسلام هذا التسامح لأنها طائفة منافقة شريرة كالطائفة الأولى وليست مرتبطة بميثاق ولا متصلة بقوم لهم ميثاق فالإسلام إزاءها إذن طليق يأخذها بما اخذ به طائفة المنافقين الأولى ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم؛ فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً حكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ص فيسلمون رياء؛ ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا وها هنا فامر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ولهذا قال تعالى فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم والمهادنة والصلح ويكفوا أيديهم أي عن القتال فخذوهم أسراء واقتلوهم حيث ثقتموهم أي حيث وجدتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً وهكذا نرى صفحة من حسم الإسلام وجديته إلى جانب سماحته وتغاضيه هذه في موضعها وتلك في موضعها وطبيعة الموقف وحقيقة الواقعة هي التي تحدد هذه وتلك ورؤية هاتين الصفحتين على هذا النحو كفيلة بأن تنشئ التوازن في شعور المسلم؛ كما تنشئ التوازن في النظام الإسلامي السمة الأساسية الأصيلة فأما حين يجيء المتشددون فيأخذون الأمر كله عنفاً وحماسة وشدة واندفاعاً فليس هذا هو الإسلام وأما حين يجيء المتميعون المترققون المعتذرون عن الجهاد في الإسلام كأن الإسلام في قفص الاتهام وهم يترافعون عن المتهم الفاتك الخطير فيجعلون الأمر كله سماحة وسلماً وإغضاء وعفوا؛ ومجرد دفاع عن الوطن الإسلامي وعن جماعة المسلمين وليس دفعاً عن حرية الدعوة وإبلاغها لكل زاوية في الأرض بلا عقبة وليس تأميناً لأي فرد في كل زاوية من زوايا الأرض يريد أن يختار الإسلام عقيدة وليس سيادة لنظام فاضل وقانون فاضل يأمن الناس كلهم في ظل من اختار عقيدته ومن لم يخترها سواء فأما حينئذ فليس هذا هو الإسلام وفي هذه الطائفة من أحكام المعاملات الدولية بلاغ وبيان

الدرس الخامس من أحكام القتل الخطأ وجريمة القتل العمد

ذلك في علاقات المسلمين مع المعسكرات الأخرى فأما في علاقات المسلمين بعضهم ببعض مهما اختلفت الديار وفي ذلك الوقت كما في كل وقت كان هناك مسلمون في شتى الديار فلا قتل ولا قتال إلا في حد أو قصاص فإنه لا يوجد سبب يبلغ من ضخامته أن يفوق ما بين المسلم والمسلم من وشيعة العقيدة ومن ثم لا يقتل المسلم المسلم أبداً وقد

ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ وللقتل الخطأ توضع التشريعات والأحكام فأما القتل العمد فلا كفارة له لأنه وراء الحسين ووراء حدود الإسلام وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً وهذه الأحكام تناول أربع حالات ثلاث منها من حالات القتل الخطأ وهو الأمر المحتمل وقوعه بين المسلمين في دار واحدة دار الإسلام أو في ديار مختلفة بين شتى الأقوام والحالة الرابعة حالة القتل العمد وهي التي يستبعد السياق القرآني وقوعها ابتداءً فليس من شأنها أن تقع إذ ليس في هذه الحياة الدنيا كلها ما يساوي دم مسلم يريقه مسلم عمداً وليس في ملابسات هذه الحياة الدنيا كلها ما من شأنه أن يوهن من علاقة المسلم بالمسلم إلى حد أن يقتله عمداً وهذه العلاقة التي أنشأها الإسلام بين المسلم والمسلم من المتانة والعمق والضخامة والغلاوة والإعزاز بحيث لا يفترض الإسلام أن تخدش هذا الخدش الخطير أبداً ومن ثم يبدأ حديثه عن أحكام القتل الخطأ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ فهذا هو الاحتمال الوحيد في الحس الإسلامي وهو الاحتمال الحقيقي في الواقع فإن وجود مسلم إلى جوار مسلم مسألة كبيرة جداً ونعمة عظيمة عظيمة جداً ومن العسير تصور أن يقدم مسلم على إزالة هذه النعمة عن نفسه ; والإقدام على هذه الكبيرة عن عمد وقصد إن هذا العنصر المسلم عنصر عزيز في هذه الأرض وأشد الناس شعوراً بإعزاز هذا العنصر هو المسلم مثله فمن العسير أن يقدم على إعدامه بقتله وهذا أمر يعرفه أصحابه يعرفونه في نفوسهم ومشاعرهم وقد علمهم الله إياه بهذه العقيدة وبهذه الوشيجة وبهذه القرابة التي تجمعهم في رسول الله ص ثم ترتقي فتجمعهم في الله سبحانه الذي ألف بين قلوبهم ذلك التأليف الرباني العجيب فأما إذا وقع القتل خطأ فهناك تلك الحالات الثلاث التي يبين السياق أحكامها هنا الحالة الأولى أن يقع القتل على مؤمن أهله مؤمنون في دار الإسلام ويجب في هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة ودية تسلم إلى أهله فأما تحرير الرقبة المؤمنة فهو تعويض للمجتمع المسلم عن قتل نفس مؤمنة باستحياء نفس مؤمنة وكذلك هو تحرير الرقاب في حس الإسلام وأما الدية فتسكين لثائرة النفوس وشراء لخواطر المفجوعين وتعويض لهم عن بعض ما فقدوا من نفع المقتول ومع هذا يلوح الإسلام لأهل القتل بالعفو إذا اطمأنت نفوسهم إليه لأنه أقرب إلى جو التعاطف والتسامح في المجتمع المسلم ومن يقتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا والحالة الثانية أن يقع القتل على مؤمن وأهله محاربون للإسلام في دار الحرب وفي هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة لتعويض النفس المؤمنة التي قتلت وفقدتها الإسلام ولكن لا يجوز أداء دية لقومه المحاربين يستعينون بها على قتال المسلمين ولا مكان هنا لاسترضاء أهل القتل وكسب مودتهم فهم محاربون وهم عدو للمسلمين والحالة الثانية أن يقع القتل على مؤمن قومه معاهدون عهد هدنة أو عهد ذمة ولم ينص على كون المقتول مؤمناً في هذه الحالة مما

جعل بعض المفسرين والفقهاء يرى النص على إطلاقه ويرى الحكم بتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله المعاهدين ولو لم يكن مؤمناً لأن عهدهم مع المؤمنين يجعل دماءهم مصونة كدماء المسلمين ولكن الذي يظهر لنا أن الكلام ابتداءً منصب على قتل المؤمن وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ثم بيان للحالات المتنوعة التي يكون فيها القتل مؤمناً وإذا كان قد نص في الحالة الثانية فقال وإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فقد كان هذا الاحتراز مرة أخرى بسبب ملابسة أنه من قوم عدو ويؤيد هذا الفهم النص على تحرير رقبة مؤمنة في هذه الحالة الثالثة مما يوحي بأن القتل مؤمن فأعتقت رقبة مؤمنة تعويضا عنه وإلا لكفى عتق رقبة إطلاقاً دون شرط الإيمان وقد ورد أن النبي ص ودى بعض القتلى من المعاهدين ولكن لم يرد عتق رقاب مؤمنة بعدهم مما يدل على أن الواجب في هذه الحالة هو الدية وأن هذا ثبت بعمل رسول الله ص لا بهذه الآية وأن الحالات التي تتناولها هذه الآية كلها هي حالات وقوع القتل على مؤمن سواء كان من قوم مؤمنين في دار الإسلام أو من قوم محاربين عدو للمسلمين في دار الحرب أو من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق ميثاق هدنة أو ذمة وهذا هو الأظهر في السياق ذلك القتل الخطأ فاما القتل العمد فهو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان ; والتي لا تكفر عنها دية ولا عتق رقبة ; وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب بغير حق ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها ومن ثم قرنت بالشرك في مواضع كثيرة ; واتجه بعضهم ومنهم ابن عباس إلى أنه لا توبة منها ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فرجا للقاتل التائب المغفرة وفسر الخلود بأنه الدهر الطويل والذين تربوا في مدرسة الإسلام الأولى كانوا يرون قاتلي آبائهم وأبنائهم وإخوانهم قبل إسلامهم يمشون على الأرض وقد دخلوا في الإسلام فيهيح في نفوس بعضهم ما يهيح من المرارة ولكنهم لا يفكرون في قتلهم لا يفكرون مرة واحدة ; ولا يخطر لهم هذا الخاطر في أشد الحالات وجداً ولذعاً ومرارة بل إنهم لم يفكروا في إنقاصهم حقاً واحداً من حقوقهم التي يخولها لهم الإسلام واحتراساً من وقوع القتل ولو كان خطأ ; وتطهيراً لقلوب المجاهدين حتى ما يكون فيها شيء إلا لله وفي سبيل الله يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا ; وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان إذ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ; ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً وقد وردت روايات كثيرة في سبب نزول الآية خلاصتها أن سرية من سرايا المسلمين لقيت رجلاً معه غنم له فقال السلام عليكم يعني أنه مسلم فاعتبر بعضهم أنها كلمة يقولها لينجو بها فقتله ومن ثم نزلت الآية تحرج على مثل هذا التصرف ; وتنفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع في الغنيمه ; أو تسرع في الحكم وكلاهما يكرهه الإسلام إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمسلمين في حساب ; إذا خرجوا يجاهدون في سبيل الله إنه ليس الدافع إلى الجهاد

ولا الباعث عليه وكذلك التسرع بإهدار دم قبل التبين وقد يكون دم مسلم عزيز لا يجوز أن يراق والله سبحانه يذكر الذين آمنوا بجاهليتهم القريبة وما كان فيها من تسرع ورعونة ; وما كان فيها من طمع في الغنيمة ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم فلم يعودوا يغزون ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا في جاهليتهم ويمن عليهم أن شرع لهم حدودا وجعل لهم نظاما ; فلا تكون الهيبة الأولى هي الحكم الآخر كما كانوا في جاهليتهم كذلك وقد يتضمن النص إشارة إلى أنهم هم كذلك كانوا يخفون إسلامهم على قومهم من الضعف والخوف فلا يظهرونه إلا عند الأمن مع المسلمين وأن ذلك الرجل القليل كان يخفي إسلامه على قومه فلما لقي المسلمين أظهر لهم إسلامه وأقرأهم سلام المسلمين كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبنوا إن الله كان بما تعلمون خبيرًا وهكذا يلمس المنهج القرآني القلوب لتحيا وتتخرج وتتذكر نعمة الله وعلى هذه الحساسية والتقوى يقيم الشرائع والأحكام ; بعد بيانها وإيضاحها وهكذا يتناول هذا الدرس تلك الجوانب من قواعد المعاملات الدولية بمثل هذا الوضوح ومثل هذه النظافة منذ أربعة عشر قرنا

الوحدة التاسعة الهجرة إلى دار الإسلام

مقدمة الوحدة

الدرس الأول فضل المجاهدين على القاعدین

الدرس الثاني ذم القاعدین عن الهجرة متى فتنوا

الدرس الثالث قبول هجرة المهاجر ولو مات قبل الوصول

الدرس الرابع قصر الصلاة عند السفر أو الخوف

الدرس الخامس صلاة الخوف

الدرس السادس التشجيع على المضي في الجهاد

مقدمة الوحدة

الجهاد والهجرة هذا الدرس وثيق الصلة بشديد اللحمة بالدرس السابق والدرس الذي قبله كذلك فهو تكملة موضوعية لموضوع الدرسين السابقين ولو الرغبة في إقرار مبادئ المعاملات الدولية كما يقررها الإسلام لاعتبرناهما معا مع هذا الدرس درسا واحدا متصلا إنما هي حلقات في خط واحد إن موضوعه الأساسي هو الهجرة إلى دار الإسلام ; والحث على انضمام المسلمين المتخلفين في دار الكفر والحرب إلى الصف المسلم المجاهد في سبيل الله بالنفس والمال واطراح الراحة النسبية والمصلحة كذلك في البقاء بمكة إلى جوار الأهل والمال ولعل هذه هو المقصود بقوله تعالى في مطلع هذا الدرس لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين

بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله
المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما فما كان في المدينة قاعدون إلا
المنافقين المعوقين الذين تحدث عنهم بلهجة غير هذه اللهجة في الدرس
الماضي وقد تلا هذه الفقرة فقرة أخرى فيها تحذير
وتهديد لمن يظنون قاعدين هنالك في دار الكفر وهم قادرون على الهجرة
منها بدينهم وعقيدتهم حتى تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فأولئك
ماواهم جهنم وساءت مصيرًا ثم تلتها فقرة أخرى عن ضمان الله سبحانه
لمن يهاجر في سبيله منذ اللحظة التي يخرج فيها من بيته قاصدا الهجرة
إلى الله خالصة عالج فيها كل المخاوف التي تهجس في النفس البشرية
وهي تقدم على هذه المخاطرة المحفوفة بالخطر الكثيرة التكاليف في
الوقت ذاته فالحديث مطرد عن الجهاد والهجرة إلى دار المجاهدين وأحكام
التعامل بين المسلمين في دار الهجرة وبقيّة الطوائف خارج هذه الدار بما
في ذلك المسلمون الذين لم يهاجروا والحديث موصول كذلك يلم هذا
الدرس بكيفية الصلاة عند الخوف في ميدان القتال أو في أثناء طريق
الهجرة وتدل هذه العناية بالصلاة في هذه الآونة الحرجة على طبيعة نظرة
الإسلام إلى الصلاة كما أسلفنا كما يهيء لإيجاد حالة تعبئة نفسية كاملة ;
في مواجهة الخطر الحقيقي المحقق بالجماعة المسلمة ; من أعدائها الذين
يترصدون بها لحظة غفلة أو غرة وينتهي الدرس بلمسة قوية عميقة التأثير ;
في التشجيع على الجهاد في سبيل الله ; في وجه الآلام والمتاعب التي
تصيب المجاهدين وذلك في تصوير ناصع لحال المؤمنين المجاهدين وحال
أعدائهم المحاربين ; على مفرق الطريق ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن
تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون وبهذا
التصوير يفترق طريقان ; ويبرز منهجان ; وبصغر كل ألم وتهون كل مشقة
ولا يبقى مجال للشعور بالضنى وبالكلال فالآخرون كذلك يآلمون ولكنهم
يرجون من الله ما لا يرجون ويرسم هذا الدرس بجملة الموضوعات التي
يعالجها وبطرائق العلاج التي يسلكها ما كان يعتمل في جسم الجماعة
المسلمة وهي تواجه مشاق التكوين الواقعية ; ومشكلات التكوين العملية
وما كان يشتجر في النفوس من عوامل الضعف البشري ; ومن رواسب
الماضي الجاهلي ومن طبيعة الفطرة البشرية وهي تواجه التكاليف
بمشاقها وآلامها ; مع ما يصاحب هذه المشاق والآلام من أشواق ومن تطلع
إلى الوفاء كذلك ; يستشيرها المنهج الحكيم ويستجيشها في الفطرة لتنهض
بهذا الأمر العظيم ونرى ذلك كله مرتسما من خلال الوصف للواقع ; ومن
خلال التشجيع والاستجاشة ; ومن خلال المعالجة للمخاوف الفطرية والآلام
الواقعية ; ومن خلال التسليح في المعركة بالصلاة وبالصلاة خاصة إلى
جانب التسليح بالعدة واليقظة وبالثقة في ضمانة الله للمهاجرين وثوابه
للمجاهدين وعونه للخارجين في سبيله وما أعده للكافرين من عذاب مهين
ونرى طريقة المنهج القرآني الرباني في التعامل مع النفس البشرية في
قوتها وضعفها ; وفي التعامل مع الجماعة الإنسانية في أثناء تكوينها
وإنضاجها ونرى شتى الخيوط التي يشدها منها في الوقت الواحد وفي الآية
الواحدة ونرى على الأخص كيف يملأ مشاعر الجماعة المسلمة بالتفوق
على عدوها في الوقت الذي يملأ نفوسها بالحذر واليقظة والتهيؤ الدائم
للخطر وفي الوقت الذي يدلها كذلك على مواطن الضعف فيها ومواقع
التقصير ويحذرنا إياها أشد التحذير إنه منهج عجيب في تكامله وفي تقابله

مع النفس البشرية ; وفي عدد الأوتار التي يلمسها في اللمسة الواحدة وعدد الخيوط التي يشدها في هذه النفس فتصوت كلها وتستجيب لقد كان التفوق في منهج التربية والتفوق في التنظيم الاجتماعي الذي قام عليه ; هو الأمر البارز الظاهر فيما بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله من فروق ولقد كان هذا التفوق البارز هو كذلك أوضح الأسباب التي يراها البشر لتمكن هذا المجتمع الناشئ الشاب بكل ما كان في حياته من ملابس وملاابس ومن ضعف أحيانا وتقصير من طي تلك المجتمعات الأخرى والغلبة عليها لا غلبة معركة بالسلاح فحسب ; ولكن غلبة حضارة فنية على حضارات شاخت غلبة منهج على مناهج ونموذج من الحياة على نماذج ; ومولد عصر جديد على مولد إنسان جديد ونكتفي بهذا القدر حتى نواجه النصوص بالتفصيل لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله عفورا رحيمًا إن هذا النص القرآني كان يواجه حالة خاصة في المجتمع المسلم وما حوله ; وكان يعالج حالة خاصة في هذا المجتمع من التراخي من بعض عناصره في النهوض بتكاليف الجهاد بالأموال والأنفس سواء كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة احتفاظا بأموالهم إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئاً من ماله ; أو توفيراً لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر إذ لم يكن المشركون يتركون المسلمين المهاجرين وكثيراً ما كانوا يحبسونهم ويؤذونهم أو يزيدون في إيذائهم بتعبير أدق إذا عرفوا منهم نية الهجرة سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة وهو ما نرجحه أو كان المقصود بعض المسلمين في دار الإسلام الذين لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس من غير المنافقين المبطنين الذين ورد ذكرهم في درس سابق أو كان المقصود هؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس في دار الحرب ودار الإسلام سواء إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة ; ولكن التعبير القرآني يقرر قاعدة عامة ; يطلقها من قيود الزمان وملابس البيئـة ; ويجعلها هي القاعدة التي ينظر الله بها إلى المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس غير أولي الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم قاعدة عامة على الإطلاق

الدرس الأول فضل المجاهدين على القاعدين

لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولا يتركها هكذا مبهم بل يوضحها ويقرها ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وهذه الدرجة يمثلها رسول الله ص في مقامهم في الجنة في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ص قال إن في

الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله وما بين كل درجتين كما
بين السماء والأرض وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن
عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله ص > من رمى بسهم فله أجره

درجة < فقال رجل يا رسول الله وما الدرجة فقال

أما إنها ليست بعتبة أمك ما بين الدرجتين مائة عام < وهذه المسافات التي يمثل بها رسول الله ص نحسب أننا اليوم أقدر على تصورها ; بعد الذي عرفناه من بعض أبعاد الكون حتى إن الضوء ليصل من نجم إلى كوكب في مئات السنين الضوئية وقد كان الذين يسمعون رسول الله ص يصدقونه بما يقول ولكننا كما قلت ربما كنا أقدر فوق الإيمان على تصور هذه الأبعاد بما عرفناه من بعض أبعاد الكون العجيب ثم يعود السياق بعد تقرير هذا الفارق في المستوى بين القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم فيقرر أن الله وعد جميعهم الحسنى وكلا وعد الله الحسنى فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال ; مع تفاضل أهله في الدرجات وفق تفاضلهم في النهوض بتكاليف الإيمان ; فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس وهذا الاستدراك هو الذي نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطلين إنما هم طائفة أخرى صالحة في الصف المسلم ومخلصة ; ولكنها قصرت في هذا الجانب ; والقرآن يستحثها لتلافي التقصير ; والخير مرجو فيها والأمل قائم في أن تستجيب فإذا انتهى من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولى ; مؤكدا لها متوسعا في عرضها ; ممعنا في الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله عفورا رحيمًا وهذا التوكيد وهذه الوعود وهذا التمجيد للمجاهدين والتفضيل على القاعدين والتلويح بكل ما تهفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم ومن مغفرة الله ورحمته للذنوب والتقصير هذا كله يشي بحقيقتين هامتين الحقيقة الأولى هي أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة كما أسلفنا وتعالجها وهذا كفيلا بأن يجعلنا أكثر إدراكا لطبيعة النفس البشرية ولطبيعة الجماعات البشرية وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائما في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس مع خلوص النفس لله وفي سبيل الله وظهور هذه الخصائص البشرية من الضعف والحرص والشح والتقصير لا يدعو لليأس من النفس أو الجماعة ولا إلى نفض اليد منها وازدراءها ; طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على ما بدا منها من الضعف والحرص والشح والتقصير ; والتهاف لها بالانبطاح في السفح باعتبار أن هذا كله جزء من واقعها بل لا بد لها من الهتاف لتنهض من السفح والحداء لتسير في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة بكل ألوان الهتاف والحداء كما نرى هنا في المنهج الرباني الحكيم والحقيقة الثانية هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام لما يعلمه الله سبحانه من طبيعة الطريق ; وطبيعة البشر ; وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين إن الجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابس تلك الفترة إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة وليست المسألة كما توهم بعض المخلصين أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات ; فاندس في تصورات أهله اقتباسا مما حولهم أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن هذه المقررات تشهد على الأقل بقلة ملابسة طبيعة الإسلام الأصلية لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون لو كان

الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله ؛ في مثل هذا الأسلوب ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول الله ص وفي مثل هذا الأسلوب لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول الله ص تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة > من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق < ولئن كان ص رد في حالات فردية بعض المجاهدين لظروف عائلية لهم خاصة كالذي جاء في الصحيح أن رجلا قال للنبي ص أجاهد قال > لك أبوان < قال نعم قال > ففيهما جاهد < لئن كان ذلك فإنما هي حالة فردية لا تنقض القاعدة العامة ؛ وفرد واحد لا ينقض المجاهدين الكثيرين ولعله ص على عادته في معرفة كل ظروف جنوده فردا فردا كان يعلم من حال هذا الرجل وأبويه ما جعله يوجهه هذا التوجيه فلا يقولن أحد بسبب ذلك إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف وقد تغيرت هذه الظروف وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي به في الطريق يقطع به الروؤس ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين إن الله سبحانه يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه لأنه طريق غير طريقهم ومنهج غير منهجهم ليس بالأمس فقط ولكن اليوم وغدا وفي كل أرض وفي كل جيل وإن الله سبحانه يعلم أن الشر متبجح ولا يمكن أن يكون منصفا ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل ولا بد أن يجتث الشر إلى العدوان ؛ ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة هذه جبلة وليست ملابسة وقتية هذه فطرة وليست حالة طارئة ومن ثم لا بد من الجهاد لا بد منه في كل صورة ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة وإلا كان الأمر انتحارا أو كان هزلا لا يليق بالمؤمنين ولا بد من بذل الأموال والأنفس كما طلب الله من المؤمنين وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فأما أن يقدر لهم الغلب ؛ أو يقدر لهم الاستشهاد ؛ فذلك شأنه سبحانه وذلك قدره المصحوب بحكمته أما هم فلهم إحدى الحسينيين عند ربهم والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون هناك نقتلهم ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة وفي منهجها الواقعي وفي خط سيرها المرسوم وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية التي لا علاقة لها بتغير الظروف وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين تحت أي ظرف من الظروف ومن هذه النقط الجهاد الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث الجهاد في سبيل الله وحده وتحت رأيته وحدها وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه شهداء ويتلقاهم الملائكة الأعلى بالتكريم

بعد ذلك يتحدث عن فريق من القاعدين ; أولئك الذين يظلون قاعدين في دار الكفر لا يهاجرون ; تمسك بهم أموالهم ومصالحهم أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق وهم قادرون لو أرادوا واعتزموا التضحية أن يهاجروا حتى يحين أجلهم ; وتأتي الملائكة لتتوفاهم يتحدث عنهم فيصورهم صورة زرية منكرة ; تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته وبمصيره عند ربه ; من هذا الموقف الذي يرسمه لهم إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة في الجزيرة العربية في مكة وغيرها بعد هجرة رسول الله ص وقيام الدولة المسلمة فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا حبستهم أموالهم ومصالحهم حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجرا يحمل معه شيئا من ماله أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة حيث لم يكن المشركون يدعون مسلما يهاجر حتى يمنعه ويرصدوا له في الطريق وجماعة حبسهم عجزهم الحقيقي من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب ولا يجدون سبيلا للهجرة وقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين ; بعد عجزهم عن إدراك الرسول ص وصاحبه ومنعهما من الهجرة وبعد قيام الدولة المسلمة وبعد تعرض الدولة المسلمة لتجارة قريش في بدر وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم فأخذ المشركون يسومون هذه البقية المتخلفة ألوانا من العذاب والنكال ويفتنونهم عن دينهم في غيظ شديد وقد فتن بعضهم عن دينهم فعلا ; واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تقية ومشاركة المشركين عبادتهم وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها متى استطاعوا فأما بعد قيام الدولة ووجود دار الإسلام فإن الخضوع للفتنة أو الالتجاء للتقية وفي الوسع الهجرة والجهر بالإسلام والحياة في دار الإسلام أمر غير مقبول وهكذا نزلت هذه النصوص ; تسمي هؤلاء القاعدين محافظة على أموالهم ومصالحهم أو إشفاقا من مشاق الهجرة ومتاعب الطريق حتى يحين أجلهم تسميهم ظالمي أنفسهم بما أنهم حرموها الحياة في دار الإسلام تلك الحياة الرفيعة النظيفة الكريمة الحرة الطليقة وألزموها الحياة في دار الكفر تلك الحياة الذليلة الخائسة الضعيفة المضطهدة وتوعدهم جهنم وساءت مصيرا مما يدل على أنها تعني الذين فتنوا عن دينهم بالفعل هناك ولكن التعبير القرآني على أسلوب القرآن يعبر في صورة ويصور في مشهد حي نابض بالحركة والحوار إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها إن القرآن يعالج نفوسا بشرية ; ويهدف الى استجاشة عناصر الخير والمروءة والعزة فيها ; وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والثقله لذلك يرسم هذا المشهد إنه يصور حقيقة ولكنه يستخدم هذه الحقيقة في موضعها أحسن استخدام في علاج النفس البشرية ومشهد الاحتضار بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية وتتحفز لتصور ما فيه وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافا وتحفزا وحساسية وهم القاعدون ظلموا أنفسهم وقد حضرت الملائكة لتتوفاهم وهذا حالهم ظالمي أنفسهم وهذا وحده كفيل

بتحريك النفس وارتجافها إذ يكفي أن يتصور المرء نفسه والملائكة تتوفاه وهو ظالم لنفسه ; وليس أمامه من فرصة أخرى لإنصاف نفسه فهذه هي اللحظة الأخيرة ولكن الملائكة لا يتوفونهم ظالمي أنفسهم في صمت بل يقلبون ماضيهم ويستنكرون أمرهم ويسألونهم فيم أضاعوا أيامهم ولياليهم وماذا كان شغلهم وهمهم في الدنيا قالوا فيم كنتم فإن ما كانوا فيه ضياع في ضياع ; كان لم يكن لهم شغل إلا هذا الضياع ويجب هؤلاء المحتضرون في لحظة الاحتضار على هذا الاستنكار جوابا كله مذلة وبحسبونه معذرة على ما فيه من مذلة قالوا كنا مستضعفين في الأرض كنا مستضعفين يستضعفنا الأقوياء كنا أذلاء في الأرض لا نملك من أمرنا شيئا وعلى كل ما في هذا الرد من مهانة تدعو إلى الزرابة ; وتنفر كل نفس من أن يكون هذا موقفها في لحظة الاحتضار بعد أن يكون هذا موقفها طوال الحياة فإن الملائكة لا يتركون هؤلاء المستضعفين الظالمي أنفسهم بل يجبهونهم بالحقيقة الواقعة ; ويؤنبونهم على عدم المحاولة والفرصة قائمة قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها إنه لم يكن العجز الحقيقي هو الذي يحملهم إذن على قبول الذل والهوان والاستضعاف والفتنة عن الإيمان إنما كان هناك شيء آخر حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم يمسكهم في دار الكفر وهناك دار الإسلام ويمسكهم في الضيق وهناك أرض الله الواسعة والهجرة إليها مستطاعة ; مع احتمال الآلام والتضحيات وهنا ينهي المشهد المؤثر بذكر النهاية المخيفة فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ثم يستثنى من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر ; والتعرض للفتنة في الدين ; والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ الضعاف والنساء والأطفال ; فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته بسبب عذرهم البين وعجزهم عن الفرار إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان ; متجاوزا تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين وفي بيئة معينة يمضي حكما عاما ; يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أية أرض ; وتمسكه أمواله ومصالحه أو قراباته وصدقاته ; أو إشفاقه من الأم الهجرة ومتاعبها متى كان هناك في الأرض في أي مكان دار للإسلام ; يأمن فيها على دينه ويجهر فيها بعقيدته ويؤدي فيها عباداته ; ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله ويستمتع بهذا المستوى الرفيع من الحياة

الدرس الثالث قبول هجرة المهاجر ولو مات قبل الوصول

أما السياق القرآني فيمضي في معالجة النفوس البشرية ; التي تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها ; وتشفق من التعرض لها وقد عالجاها في الآيات السابقة بذلك المشهد المثير للاشمئزاز والخوف معا فهو يعالجها بعد ذلك ببت عوامل الطمأنينة سواء وصل المهاجر إلى وجهته أو مات في طريقه في حالة الهجرة في سبيل الله وبضمان الله للمهاجر منذ ان يخرج من بيته مهاجرا في سبيله ووعدده بالسعة والمنتفس في الأرض والمنطلق فلا تضيق به الشعاب والفجاج ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض

مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحما إن المنهج الرباني القرآني يعالج في هذه الآية مخاوف النفس المتنوعة ; وهي تواجه مخاطر الهجرة ; في مثل تلك الظروف التي كانت قائمة ; والتي قد تتكرر بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف في كل حين وهو يعالج هذه النفس في وضوح وفصاحة ; فلا يكتف عن شئنا من المخاوف ; ولا يداري عنها شيئا من الأخطار بما في ذلك خطر الموت ولكنه يسكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله سبحانه وتعالى فهو أولا يحدد الهجرة بأنها في سبيل الله وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام فليست هجرة للشراء أو هجرة للنجاة من المتاعب أو هجرة للذائد والشهوات أو هجرة لأي عرض من أعراض الحياة ومن يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله يجد في الأرض فسحة ومنطلقا فلا تضيق به الأرض ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة وإنما هو ضعف النفس وحرصها وشحها ; يخيل إليها أن وسائل الحياة والرزق مرهونة بأرض ومقيدة بظروف ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلا وهذا التصور الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة والنجاة ; هو الذي يجعل النفوس تقبل الذل والصيم وتسكت على الفتنة في الدين ; ثم تتعرض لذلك المصير البائس مصير الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم والله يقرر الحقيقة الموعودة لمن يهاجر في سبيل الله إنه سيجد في أرض الله منطلقا وسيجد فيها سعة وسيجد الله في كل مكان يذهب إليه يحييه ويرزقه وينجيه ولكن الأجل قد يوافي في أثناء الرحلة والهجرة في سبيل الله والموت كما تقدم في سياق السورة لا علاقة له بالأسباب الظاهرة ; إنما هو حتم محتوم عندما يحين الأجل المرسوم وسواء أقام أم هاجر فإن الأجل لا يستقدم ولا يستأخر غير أن النفس البشرية لها تصوراتها ولها تأثيراتها بالملابسات الظاهرة والمنهج يراعي هذا ويعالجه فيعطي ضمانا لله بوقوع الأجر على الله منذ الخطوة الأولى من البيت في الهجرة إلى الله ورسوله ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله أجره كله أجر الهجرة والرحلة والوصول إلى دار الإسلام والحياة في دار الإسلام فماذا بعد ضمان الله من ضمان ومع ضمانة الأجر التلويح بالمغفرة للذنوب والرحمة في الحساب وهذا فوق الصفقة الأولى وكان الله غفورا رحيمًا إنها صفقة رابحة دون شك يقبض فيها المهاجر الثمن كله منذ الخطوة الأولى خطوة الخروج من البيت مهاجرا إلى الله ورسوله والموت هو الموت في موعده الذي لا يتأخر والذي لا علاقة له بهجرة أو إقامة ولو أقام المهاجر ولم يخرج من بيته لجاءه الموت في موعده ولخسر الصفقة الرابحة فلا أجر ولا مغفرة ولا رحمة بل هنالك الملائكة تتوفاه ظالما لنفسه وشتان بين صفقة وصفقة وشتان بين مصير ومصير ويخلص لنا من هذه الآيات التي استعرضناها من هذا الدرس إلى هذا الموضوع عدة اعتبارات نجلها قبل أن نعبر إلى بقية الدرس وبقية ما فيه من موضوعات يخلص لنا منها مدى كراهية الإسلام للعودة عن الجهاد في سبيل الله ; والعودة عن الانضمام للصف المسلم المجاهد اللهم إلا من عذرهم الله من أولي الضرر ومن العاجزين عن الهجرة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا

الدرس الرابع قصر الصلاة عند السفر أو الخوف

ويخلص لنا منها مدى عمق عنصر الجهاد وأصالته في العقيدة الإسلامية وفي النظام الإسلامي وفي المقتضيات الواقعية لهذا المنهج الرباني وقد عدته الشيعة ركنا من أركان الإسلام ولهم من قوة النصوص ومن قوة الواقع ما يفسر اتجاههم هذا لولا ما ورد في حديث > بني الإسلام على خمس < ولكن قوة التكليف بالجهاد ; وأصالة هذا العنصر في خطر الحياة الإسلامية ; وبروز ضرورته في كل وقت وفي كل أرض الضرورة التي تستند إلى مقتضيات فطرية لا ملاسبات زمنية كلها تؤيد هذا الشعور العميق بجدية هذا العنصر وأصالته ويخلص لنا كذلك أن النفس البشرية هي النفس البشرية ; وأنها قد تحجم أمام الصعاب أو تخاف أمام المخاطر وتكسل أمام العقبات في خير الأزمنة وخير المجتمعات وأن منهج العلاج في هذه الحالة ليس هو اليأس من هذه النفوس ولكن استجاشتها وتشجيعها وتحذيرها وطمأنتها في أن واحد وفق هذا المنهج القرآني الرباني الحكيم وأخيرا يخلص لنا كيف كان هذا القرآن يواجه واقع الحياة ; ويقود المجتمع المسلم ; ويخوض المعركة في كل ميادينها وأول هذه الميادين هو ميدان النفس البشرية ; وطبائعها الفطرية ورواسبها كذلك من الجاهلية وكيف ينبغي أن نقرأ القرآن وتعامل معه ونحن نواجه واقع الحياة والنفس بالدعوة إلى الله بعد ذلك يستطرد إلى رخصة يبيحها الله للمهاجرين أو الضاربين في الأرض للجهاد أو للتجارة في حالة خوفهم أن يأخذهم الذين كفروا أسارى فيفتنهم عن دينهم وهي رخصة القصر من الصلاة وهو غير القصر المرخص به للمسافر إطلاقا سواء خاف فتنة الذين كفروا أو لم يخف فهذا قصر خاص وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا إن الضارب في الأرض في حاجة ماسة إلى الصلة الدائمة بربه تعينه على ما هو فيه وتكمل عدته وسلاحه فيما هو مقدم عليه وما هو مرصود له في الطريق والصلاة أقرب الصلوات إلى الله وهي العدة التي يدعى المسلمون للاستعانة بها في الشدائد والملمات فكلما كان هناك خوف أو مشقة قال لهم واستعينوا بالصبر والصلاة ومن ثم يجيء ذكرها هنا في إبانها المناسب وفي وقت الحاجة إليها والاضطرار فما أحوج الخائف في الطريق إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله وما أحوج المهاجر من أرضه إلى أن يلتجئ إلى حمى الله غير أن الصلاة الكاملة وما فيها من قيام وركوع وسجود قد تعوق الضارب في الأرض عن الإفلات من كمين قريب أو قد تلفت إليه أنظار عدوه فيعرفوه أو قد تمكن لهم منه وهو راعع أو ساجد فيأخذوه ومن ثم هذه الرخصة للضارب في الأرض أن يقصر في الصلاة عند مخافة الفتنة والمعنى الذي نختاره في القصر هنا هو المعنى الذي اختاره الإمام الجصاص وهو أنه ليس القصر في عدد الركعات يجعلها اثنتين في الصلاة الرباعية فهذا مرخص به للمسافر إطلاقا بلا تخصيص حالة الخوف من الفتنة بل هذا هو المختار في الصلاة للمسافر كفعل رسول الله ص في كل سفر بحيث لا يجوز إكمال الصلاة في السفر في أرجح الأقوال وإذن فهذه الرخصة الجديدة في حالة خوف الفتنة تعني معنى جديدا غير مجرد

القصر المرخص به لكل مسافر إنما هو قصر في صفة الصلاة ذاتها كالقيام بلا حركة ولا ركوع ولا سجود ولا قعود للتشهد حيث يصلي الضارب في الأرض قائماً وسائراً وراكباً ويومئء للركوع والسجود وكذلك لا يترك صلته بالله في حالة الخوف من الفتنه ولا يدع سلاحه الأول في المعركة وبأخذ حذره من عدوه إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيئاً

الدرس الخامس صلاة الخوف

وبمناسبة الحديث عن صلاة الضارب في الأرض الخائف من فتنه الذين كفروا يجيء حكم صلاة الخوف في أرض المعركة ; وتحتشد جنات هذا الحكم الفقهي بلمسات نفسية وتربوية شتى وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ; فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ; وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً إن المتأمل في أسرار هذا القرآن ; وفي أسرار المنهج الرباني للتربية المتمثل فيه يطلع على عجب من اللغات النفسية النافذة إلى أعماق الروح البشرية ومنها هذه اللفتة في ساحة المعركة إلى الصلاة إن السياق القرآني لا يجيء بهذا النص هنا لمجرد بيان الحكم الفقهي في صفة صلاة الخوف ولكنه يحشد هذا النص في حملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة في ساحة المعركة ولكن هذا طبيعي بل يدهي في الاعتبار الإيماني إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة بل أنها السلاح فلا بد من تنظيم استخدام هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة وجو المعركة ولقد كان أولئك الرجال الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الرباني يلقون عدوهم بهذا السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بالله واحد يعرفونه حق المعرفة ; ويشعرون أنه معهم في المعركة متفوقين كذلك في إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله ; ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعاً متفوقين أيضاً في تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الإنساني تفوقهم في تنظيمهم الاجتماعي الناشئ من تفوق منهجهم الرباني وكانت الصلاة رمزا لهذا كله وتذكير بهذا كله ومن ثم كانت سلاحاً في المعركة بل كانت هي السلاح والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا النص هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو وهذا الحذر الذي يوصى المؤمنون به تجاه عدوهم الذي يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم ليميل عليهم ميلة واحدة ومع هذا التحذير والتخويف التطمين والتثبيت ; إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قوما كتب الله عليهم الهوان إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً وهذا التقابل بين التحذير والتطمين ; وهذا التوازن بين استشارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة ; هو طابع هذا المنهج في تربية

النفس المؤمنة والصف المسلم في مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم أما كيفية صلاة الخوف ; فتختلف فيها آراء الفقهاء أخذًا من هذا النص ولكننا نكتفي بالصفة العامة دون دخول في تفصيل الكيفيات المتنوعة وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم والمعنى إذا كنت فيهم فأممتهم في الصلاة فلتقم طائفة منهم تصلي معك الركعة الأولى على حين تقف طائفة أخرى بأسلحتها من ورائكم لحمايتكم فإذا أتمت الطائفة الأولى الركعة الأولى رجعت فأخذت مكان الحراسة وجاءت الطائفة التي كانت في الحراسة ولم تصل فلتصل معك ركعة كذلك وهنا يسلم الإمام إذ يكون قد أتم صلاته ركعتين عندئذ تجيء الطائفة الأولى فتقضي الركعة الثانية التي فاتتها مع الإمام وتسلم بينما تحرسها الطائفة الثانية ثم تجيء الثانية فتقضي الركعة الأولى التي فاتتها وتسلم بينما تحرسها الطائفة الأولى وبذلك تكون الطائفتان قد صلتا بإمامة الرسول ص وكذلك مع خلفائه وأمرائه وأمراء المسلمين منهم في كل معركة وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة وهي رغبة في نفوس الكفار تجاه المؤمنين دائمة والسنون تتوالى والقرون تمر فتؤكد هذه الحقيقة التي وضعها الله في قلوب المجموعة المؤمنة الأولى وهو يضع لها الخطط العامة للمعركة كما يضع لها الخطة الحركية أحياناً على هذا النحو الذي رأينا في صلاة الخوف على أن هذا الحذر وهذه التعبئة النفسية وهذا الاستعداد بالسلاح المستمر ليس من شأنه أن يوقع المسلمين في المشقة فهم يأخذون منه بقدر الطاقة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم فحمل السلاح في هذه الحالة يشق ولا يفيد ويكفي أخذ الحذر ; وتوقع عون الله ونصره وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيباً ولعل هذا الاحتياط وهذه اليقظة وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب المهين الذي أعده الله للكافرين فيكون المؤمنون هم ستار قدرته ; وأداة مشيئته وهي الطمأنينة مع ذلك الحذر ; والثقة في النصر على قوم أعد الله لهم عذاباً مهيباً فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأنتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً وهكذا يوجههم إلى الاتصال بالله في كل حال وفي كل وضع إلى جانب الصلاة فهذه هي العدة الكبرى وهذا هو السلاح الذي لا يبلى فأما حين الاطمئنان فأقيموا الصلاة أقيموها كاملة تامة بلا قصر قصر الخوف الذي تحدثنا عنه فهي فريضة ذات وقت محدد لأدائها ومتى زالت أسباب الرخصة في صفة من صفاتها عادت إلى صفتها المفروضة الدائمة ومن قوله تعالى إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً يأخذ الظاهرية رأيهم في عدم قضاء الفائتة من الصلاة لأنها لا تجزي ولا تصح لأن الصلاة لا تصح إلا في ميقاتها المعين فمتى فات الميقات فلا سبيل لإقامة الصلاة والجمهور على صحة قضاء الفوائت وعلى تحسين التبكير في الأداء والكرهية في التأخير ولا ندخل بعد هذا في تفصيلات الفروع



الدرس السادس التشجيع على المضي في الجهاد

ويختتم هذا الدرس بالتشجيع على المضي في الجهاد ; مع الألم والضنى والكلال ويلمس القلوب المؤمنة لمسة عميقة موحية تمس أعماق هذه القلوب وتلقي الضوء القوي على المصائر والغايات والاتجاهات ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيماً إنهن كلمات معدودات يضعن الخطوط الحاسمة ويكشفن عن الشقة البعيدة بين جهتي الصراع إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح والأواء ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم ويرتقبون عنده جزاءهم فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون لا يتجهون لله ولا يرتقبون عنده شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة فإذا أصر الكفار على المعركة فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصراراً وإذا احتمل الكفار آلامها فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من الألم وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال وتعقب آثارهم حتى لا تبقى لهم قوة وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله وإن هذا لهو فضل العقيدة في الله في كل كفاح فهناك اللحظات التي تعلق فيها المشقة على الطاقة ويربو الألم على الاحتمال ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد هنالك يأتي المدد من هذا المعين ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاقل ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة ولكن القاعدة لا تتغير فالباطل لا يكون بعافية أبداً حتى ولو كان غالباً إنه يلاقي الآلام من داخله من تناقضه الداخلي ; ومن صراع بعضه مع بعض ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار وأن تعلم أنها إن كانت تألم فإن عدوها كذلك يألم والألم أنواع والقرح ألوان وترجون من الله ما لا يرجون وهذا هو العزاء العميق وهذا هو مفرق الطريق وكان الله عليماً حكيماً يعلم كيف تعالج المشاعر في القلوب ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح

الوحدة العاشرة الإنصاف والحكم بالعدل

مقدمة الوحدة

الدرس الأول ذم السارق والنهي عن الدفاع عنه

الدرس الثاني قواعد في الإدانة والتوبة

الدرس الثالث فضل الله في إنجاء الرسول من الدفاع عن الأئمين

عدل الإسلام هذه الآيات تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيراً ولا تعرف لها البشرية شبيهاً وتشهد وحدها بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله ؛ لأن البشر مهما ارتفع تصورهم ومهما صفت أرواحهم ومهما استقامت طبائعهم لا يمكن أن يرتفعوا بأنفسهم إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات ؛ إلا بوحي من الله هذا المستوى الذي يرسم خطاً على الأفق لم تصعد إليه البشرية إلا في ظل هذا المنهج ولا تملك الصعود إليه أبداً إلا في ظل هذا المنهج كذلك إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللثيمة على الإسلام والمسلمين ؛ والتي حكى هذه السورة وسورة البقرة وسورة آل عمران جانباً منها ومن فعلها في الصف المسلم في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ؛ ويؤلبون المشركين ؛ ويشجعون المنافقين ويرسمون لهم الطريق ؛ ويطلقون الإشاعات ؛ ويضللون العقول ؛ ويطعنون في القيادة النبوية ويشككون في الوحي والرسالة ؛ ويحاولون تفسيح المجتمع المسلم من الداخل في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج والإسلام ناشئ في المدينة ورواسب الجاهلية ما يزال لها أثارها في النفوس ؛ ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم تمثل خطراً حقيقياً على تماسك الصف المسلم وتناسقه في هذا الوقت الحرج الخطر الشديد الخطورة كانت هذه الآيات كلها تنزل على رسول الله ص وعلى الجماعة المسلمة لتنصف رجلاً يهودياً اتهم ظلماً بسرقة ؛ ولتدين الذين تأمروا على اتهامه وهم بيت من الأنصار في المدينة والأنصار يومئذ هم عدة الرسول ص وجنده في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة أي مستوى هذا من النطافة والعدالة والتسامي ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى وكل كلام وكل تعليق وكل تعقيب يتهاوى دون هذه القمة السامقة ؛ التي لا يبلغها البشر وحدهم بل لا يعرفها البشر وحدهم إلا أن يقادوا بمنهج الله إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء والقصة التي رويت من عدة مصادر في سبب نزول هذه الآيات أن نفراً من الأنصار قتادة بن النعمان وعمه رفاعه غزوا مع رسول الله ص في بعض غزواته فسرفت درع لأحدهم رفاعه فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم بنو أبيرق فأتى صاحب الدرع رسول الله ص فقال إن طعمة بن أبيرق سرق درعي وفي رواية إنه بشير بن أبيرق وفي هذه الرواية أن بشيراً هذا كان منافقاً يقول الشعر في ذم الصحابة وينسبه لبعض العرب فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين وقال لنفراً من عشيرته إنني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده فانطلقوا إلى رسول الله ص فقالوا يا نبي الله إن صاحبنا بريء وإن الذي سرق الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك ولما عرف رسول الله ص أن الدرع وجدت في بيت اليهودي قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس وكان أهله قد قالوا للنبي ص قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي إن قتادة بن النعمان وعمه عمداً إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت قال قتادة فأتيت رسول الله ص فكلمته فقال > عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة < قال فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ص في ذلك فأتاني عمي رفاعه فقال يا ابن أخي ما صنعت فأخبرته بما قال لي رسول الله ص فقال الله المستعان فلم نلبث أن نزلت إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً أي بني أبيرق وخصيماً أي محامياً ومدافعاً ومجادلاً عنهم واستغفر الله أي مما قلت لقتادة إن الله كان عفوراً رحيمًا ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إلى قوله تعالى

رحيمًا أي لو استغفروا الله لغفر لهم ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه إلى قوله إنما مبيّنًا ولولا فضل الله عليك ورحمته إلى قوله فسوف نؤتيه أجرا عظيما فلما نزل القرآن أتى رسول الله ص بالسلاح فردّه إلى رفاعة قال قتادة لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخا قد عمي أو عشي في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولا فلما أتيت به بالسلاح قال يا ابن أخي هي في سبيل الله فعرفت أن إسلامه كان صحيحا فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فأنزل الله تعالى ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضللا بعيدا إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء تامرت عليه عصية لتوقعه في الاتهام وإن كانت تبرئة بريء أمرا هائلا ثقيل الوزن في ميزان الله إنما كانت أكبر من ذلك كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى ولا مع العصبية ولا يتأرجح مع المودة والشأن أي كانت الملابس والأحوال وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد ; وعلاج عناصر الضعف البشري فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية في كل صورها حتى في صورة العقيدة إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس وإقامة هذا المجتمع الجديد الفريد في تاريخ البشرية على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة التي لا تدينسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية والتي لا تترجح مع الأهواء والميول والشهوات ولقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأبخار بل فضحه بين الناس على هذا النحو العنيف المكشوف كان هناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع إليها هذا المنهج كان هناك سبب واضح عريض أن هذا المتهم يهودي من يهود يهود التي لا تدع سهما مسموما تملكه إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله يهود التي يدوق منها المسلمون الأمرين في هذه الحقبة وبشاء الله أن يكون ذلك في كل حقبة يهود التي لا تعرف حقا ولا عدلا ولا نصفة ولا تقيم اعتبارا لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق وكان هنالك سبب آخر ; وهو أن الأمر في الأنصار الأنصار الذين أووا ونصروا والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الصغائن بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي يبعد شيخ الشقاق وكان هنالك سبب ثالث هو عدم إعطاء اليهود سهما جديدا يوجهونه إلى الأنصار وهو أن بعضهم يسرق بعضا ثم يتهمون اليهود وهم لا يدعون هذه الفرصة تفلت للتشهير بها والتغريب ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله كان أكبر من كل هذه الاعتبارات الصغيرة الصغيرة في حساب الإسلام كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة لتنهض بتكاليفها في خلافة الأرض وفي قيادة البشرية وهي لا تقوم بالخلافة في الأرض ولا تنهض بقيادة البشرية حتى ينصح لها منهج فريد متفوق على كل ما تعرف البشرية ; وحتى يثبت هذا المنهج في حياتها الواقعية وحتى يمحض كيائها تمحيضا شديدا ; وتنفض عنه كل خبيثة من ضعف البشر ومن رواسب الجاهلية وحتى يقام فيها ميزان العدل لتحكم به بين الناس مجردا من جميع الاعتبارات الأرضية والمصالح القريبة الظاهرة والملابسات التي يراها الناس شيئا كبيرا لا يقدرّون على تجاهله واختار الله سبحانه هذا الحادث بذاته في ميقاته مع يهودي من يهود التي يدوق منها المسلمون الأمرين إذ ذاك في المدينة ; والتي تؤلب عليهم المشركين وتؤيد بينهم المنافقين وترصد كل ما في جعبتها من مكر وتجربة وعلم لهذا الدين وفي فترة حرجة من حياة المسلمين في المدينة والعداوات تحيط بهم من كل جانب ووراء كل هذه العداوات يهود اختار الله هذا الحادث في هذا الطرف ليقول فيه سبحانه للجماعة المسلمة ما أراد أن يقول وليعلمها به ما يريد لها أن تتعلم ومن ثم لم يكن هناك مجال للباقة ولا للكياسة ولا للسياسة ولا للمهارة في إخفاء ما يجرح وتغطية ما

يسوء ولم يكن هناك مجال لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها هنا كان الأمر جدا خالصا لا يحتمل الدهان ولا التمويه وكان هذا الجد هو أمر هذا المنهج الرباني وأصوله وأمر هذه الأمة التي تعد لتنهض بهذا المنهج وتنشره وأمر العدل بين الناس العدل في هذا المستوى الذي لا يرتفع إليه الناس بل لا يعرفه الناس إلا بوحى من الله وعون من الله وينظر الإنسان من هذه القمة السامقة على السفوح الهابطة في جميع الأمم على مدار الزمان فبإرهاها هنالك هنالك في السفوح ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطة صحورا متردية هنا وهناك من الدهاء والمراء والسياسية والكياسة والبراعة والمهارة ومصصلحة الدولة ومصصلحة الوطن ومصصلحة الجماعة إلى آخر الأسماء والعنوانات فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها الدود وينظر الإنسان مرة أخرى فيرى نماذج الأمة المسلمة وحدها صاعدة من السفوح إلى القمة تتناثر على مدار التاريخ وهي تتطلع إلى القمة التي وجهها إليها المنهج الفريد أما العفن الذي يسمونه العدالة في أمم الجاهلية الغابرة والحاضرة فلا يستحق أن ترفع عنه الغطاء في مثل هذا الجو النظيف الكريم والآن نواجه نصوص الدرس بالتفصيل

الدرس الأول ذم السارق والنهي عن الدفاع عنه

إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله إن الله كان عفورا رحيفا ولا تجادل عن الذين يفتنون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا إنا نحس في التعبير صرامة يفوح منها الغضب للحق والغيرة على العدل ; وتشيع في جو الآيات وتفيض منها وأول ما يبدو هذا في تذكير رسول الله ص بتنزيل الكتاب إليه بالحق لتحكم بين الناس بما أراه الله وإتباع هذا التذكير بالنهي عن أن يكون خصيما للخائنين يدافع عنهم ويجادل وتوجيهه لاستغفار الله سبحانه عن هذه المجادلة إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله إن الله كان عفورا رحيفا ثم تكرر هذا النهي ; ووصف هؤلاء الخائنين الذين جادل عنهم ص بأنهم يفتنون أنفسهم وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان خوانا أثيما ولا تجادل عن الذين يفتنون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما وهم خانوا غيرهم في الظاهر ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم فقد خانوا الجماعة ومنهجها ومبادئها التي تميزها وتفردتها وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها وهم منها ثم هم يفتنون أنفسهم في صورة أخرى صورة تعريض أنفسهم للإثم الذي يجازون عليه شر الجزاء حيث يكرههم الله ويعاقبهم بما أثموا وهي خيانة للنفس من غير شك وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم هي تلويث هذه الأنفس وتدنيستها بالمؤامرة والكذب والخيانة إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما وهذا عقوبة أكبر من كل عقوبة وهي تلقي إلي جانبها إحياء آخر فالذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد ولا أن يحامي عنهم أحد وقد كرههم الله للإثم والخيانة ويعقب الوصف بالإثم والخيانة تصوير منفر لسلوك هؤلاء الخونة الأثمين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وهي صورة زرية داعية إلى الاحتقار والسخرية زرية بما فيها من ضعف والتواء وهم يبيتون ما يبيتون من الكيد والمؤامرة والخيانة ; ويستخفون بها عن الناس والناس لا يملكون لهم نفعا ولا ضرا

بينما الذي يملك النفع والضرر معهم وهم يبيتون ما يبيتون ; مطلع عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون وهم يزورون من القول ما لا يرضاه فاي موقف يدعو إلى الزرابة والاستهزاء أكثر من هذا الموقف وكان الله بما يعملون محببًا إجمالًا وإطلاقًا فأين يذهبون بما يبيتون والله معهم إذ يبيتون والله بكل شيء محيط وهم تحت عينه وفي قبضته وتستمر الحملة التي يفوح منها الغضب ; على كل من جادل عن الخائنين ها أنتم هؤلاء جادتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا واللهم لا مجادل عنهم يوم القيامة ولا وكيل فما جدوى الجدل عنهم في الدنيا وهي لا تدفع عنهم ذلك اليوم الثقيل

الدرس الثاني قواعد في الإدانة والتوبة

وبعد هذه الحملة الغاضبة على الخونة الأثمة والعتاب الشديد للمنافحين عنهم والمجادلين يحيى تقرير القواعد العامة لهذه الفعلة وأثارها وللحساب عليها والجزاء ولقاعدة الجزاء عامة القاعدة العادلة التي يعامل بها الله العباد ويطلب إليهم أن يحاولوا محاكاتها في تعاملهم فيما بينهم وأن يتخلقوا بخلق الله خلق العدل فيها ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله عفورا رحيمًا ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانًا وإثما مبينًا إنها آيات ثلاث تقرر المبادئ الكلية التي يعامل بها الله عباده ; والتي يملك العباد أن يعاملوا بعضهم بعضا بها ويعاملوا الله على أساسها فلا يصيبهم السوء الآية الأولى تفتح باب التوبة على مصراعيه وباب المغفرة على سعته ; وتطمع كل مذنب تائب في العفو والقبول ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله عفورا رحيمًا إنه سبحانه موجود للمغفرة والرحمة حينما قصده مستغفر منيب والذي يعمل السوء يظلم غيره ويظلم نفسه وقد يظلم نفسه وحدها إذا عمل السيئة التي لا تتعدى شخصه وعلى أية حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين في كل حين ; ويغفر لهم ويرحمهم متى جاءوه تائبين هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بواب حينما جاءوا تائبين مستغفرين وجدوا الله عفورا رحيمًا والآية الثانية تقرر فردية التبعة وهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي في الجزاء والتي تثير في كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة الخوف من عمله وكسبه والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما ليست هناك خطيئة موروثه في الإسلام كالتى تتحدث عنها تصورات الكنيسة كما أنه ليست هناك كفارة غير الكفارة التي تؤديها النفس عن نفسها وعندئذ تنطلق كل نفس حذرة مما تكسب مطمئنة إلى أنها لا تحاسب إلا على ما تكسب توازن عجيب في هذا التصور الفريد هو إحدى خصائص التصور الإسلامي وأحد مقوماته التي تطمئن الفطرة وتحقق العدل الإلهي المطلق ; المطلوب أن يحاكيه بنو الإنسان والآية الثالثة تقرر تبعة من يكسب الخطيئة ثم يرمي بها البرى ء وهي الحالة المنطبقة على حالة العصاة التي يدور عليها الكلام ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانًا وإثما مبينًا البهتان في رميه البرى ء والإثم في ارتكابه الذنب الذي رمى به البرى ء وقد احتملها معه وكأنما هما حمل يحمل على طريقة التجسيم التي تبرز المعنى وتؤكد في التعبير القرآني المصور وبهذه القواعد الثلاث يرسم القرآن ميزان العدالة الذي يحاسب كل فرد على ما اجترح ولا يدع المجرم يمضي ناجيا إذا ألقى جرمه على سواه وفي الوقت ذاته يفتح باب التوبة والمغفرة على مصراعيه ; ويضرب موعدا مع الله سبحانه في كل لحظة للتائبين

المستغفرين الذين يطرقون الأبواب في كل حين بل يلجونها بلا استئذان
فيجدون الرحمة والغفران

الدرس الثالث فضل الله في إنجاء الرسول من الدفاع عن الأئمين

وأخيرا يمن الله على رسوله ص أن عصمه من الانسياق وراء المتأمرين
المبينين ; فأطلعه على مؤامراتهم التي يستخفون بها من الناس ولا
يستخفون بها من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ثم يمتن
عليه المنة الكبرى في إنزال الكتاب والحكمة وتعليمه ما لم يكن يعلم وهي
المنة على البشرية كلها ممثلة ابتداء في شخص أكرمها على الله وأقربها
لله ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما
يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب
والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً إن هذه
المحاولة ليست إلا واحدة من محاولات كثيرة شتى الألوان والأنواع ; مما
بذله أعداء هذا الرسول الكريم ليضلوه عن الحق والعدل والصواب ولكن
الله سبحانه كان يتولاه بفضله ورحمته في كل مرة وكان الكائدون
المتآمرون هم الذين يضلون ويقعون في الضلالة وسيرة رسول الله ص
حافلة بتلك المحاولات ; ونجاته وهدايته ; وضلال المتأمرين وخيبتهم والله
سبحانه يمتن عليه بفضله ورحمته هذه ; وبطمئنه في الوقت ذاته أنهم لا
يضرونه شيئاً بفضل من الله ورحمة وبمناسبة المنة في حفظه من هذه
المؤامرة الأخيرة ; وصيانة أحكامه من أن تتعرض لظلم برىء وتبرئة جرم
وكشف الحقيقة له وتعريفه بالمؤامرة تجيء المنة الكبرى منة الرسالة
وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله
عليك عظيماً وهي منة الله على الإنسان في هذه الأرض المنة التي ولد
الإنسان معها ميلاداً جديداً ونشأ بها الإنسان كما نشأ أول مرة بنفخة الروح
الأولى المنة التي التقطت البشرية من سفح الجاهلية لترقى بها في
الطريق الصاعد إلى القمة السامقة عن طريق المنهج الرباني الفريد
العجيب المنة التي لا يعرف قدرها إلا الذي عرف الإسلام وعرف الجاهلية
جاهلية الغابر والحاضر وذاق الإسلام وذاق الجاهلية وإذا كانت منة يذكر
الله بها رسوله ص فلأنه هو أول من عرفها وذاقها وأكبر من عرفها
وذاقها وأعرف من عرفها وذاقها وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله
عليك عظيماً

[فهرس](#)

الوحدة الحادية عشرة أساطير الجاهلية العربية وتصوراتها

مقدمة الوحدة

الدرس الأول النجوى الفاضلة النافعة

الدرس الثاني كفر المرتد وعدم المغفرة له

الدرس الثالث أوهام الجاهلية العربية في شركها

الدرس الرابع قاعدة العمل والحزاء والثواب والعقاب

مقدمة الوحدة

ربط الوحدة بما قبلها يتصل هذا الدرس بالدرس السابق بأكثر من صلة فهو أولا نزلت بعض آياته تعليقا وتعقيبا على الأحداث التي تلت حادث اليهودي من ارتداد بشير بن أبيرق ومشاقته للرسول ص وعودته إلى الجاهلية ; التي تحدث هذا الدرس عنها وعن تصوراتها وحماتها وعلاقتها بالشیطان ودور الشيطان فيها ويقرر أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وهو ثانيا يتحدث عن النجوى والتأمر ; وأنه لا خير في كثير مما يتناجون به من أمثال ما بيتوا في ذلك الحادث وتناجوا ويحدد أنواع النجوى التي يحبها الله ; وهي التناجي في فعل الخير والمعروف والإصلاح بين الناس ويقرر جزاء هذه النجوى وتلك عند الله وأخيرا يقرر القواعد العادلة التي يجازي بها الله على الأعمال ; وأنها ليست تابعة لرغبات أحد من الناس وتمنياتهم لا أمانى المسلمين ولا أمانى أهل الكتاب إنما هي ترجع إلى عدل الله المطلق ; وإلى الحق الذي لو اتبع أهواءهم لفسدت السماوات والأرض فالدرس كله موضوعا واتجاها موصول الأسباب بالدرس السابق من هذه الناحية ثم هو حلقة من حلقات المنهج التربوي الحكيم في إعداد هذه الجماعة لتكون الأمة التي تقود البشرية ; بتفوقها التربوي والتنظيمي ; وليعالج فيها مواضع الضعف البشري ورواسب المجتمع الجاهلي ; وليخوض بها المعركة في ميادينها كلها وهو الهدف الذي تتوخاه السورة بشتى موضوعاتها ويتولاه المنهج القرآني كله

الدرس الأول النجوى الفاضلة النافعة

لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى ; وهي أن تجتمع طائفة بعيدا عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة لتبني أمرا وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتي كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه فيعرضه على النبي ص مسارة إن كان أمرا شخصا لا يريد أن يشيع عنه شيء في الناس أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة التي ليست من خصوصيات هذا الشخص والحكمة في هذه الخطة هو ألا تكون جيوب في الجماعة المسلمة ; وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها أو بأفكارها واتجاهاتها وألا تبني مجموعة من الجماعة المسلمة أمرا بليل وتواجه به الجماعة أمرا مقررنا من قبل ; أو تخفيه عن الجماعة وتستخفي به عن أعينها وإن كانت لا تختفي به عن الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وهذا الموضوع أحد المواضيع التي ورد فيها هذا النهي عن التناجي والتبني بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة تتلاقى فيه وتتجمع للصلاة ولشؤون الحياة وكان المجتمع المسلم كله مجتمعا مفتوحا ; تعرض مشكلاته التي ليست بأسرار للقيادة في المعارك وغيره ; والتي ليست

بمسائل شخصية بحتة لا يجب أصحابها أن تلوكها الألسن عرضا عاما وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعا نظيفا طلق الهواء لا يتجنبه لبيت من وراء ظهره إلا الذين يتأمرون عليه أو على مبدأ من مبادئه من المنافقين غالبا وكذلك اقترنت النجوى بالمنافقين في معظم المواضع وهذه حقيقة تنفعا فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئا من هذه الظاهرة وأن يرجع أفراده إليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر أو بما يعرض لهم من خطط واتجاهات أو مشكلات والنص القرآني هنا يستثني نوعا من النجوى هو في الحقيقة ليس منها وإن كان له شكلها إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس وذلك أن يجتمع الرجل الخير بالرجل الخير فيقول له هلم نتصدق على فلان فقد علمت حاجته في خفية عن الأعين أو هلم إلى معروف معين نفعه أو نحض عليه أو هلم نصلح بين فلان وفلان فقد علمت أن بينهما نزاعا وقد تتكون العصبية من الخيرين لأداء أمر من هذه الأمور وتتفق فيما بينها سرا على النهوض بهذا الأمر فهذا ليس نجوى ولا تأمرا ومن ثم سماه أمرا وإن كان له شكل النجوى في مسارة الرجل الخير للخيرين أمثاله بأمر في معروف يعلمه أو خطر له على شرط أن يكون الباعث هو ابتغاء مرضاة الله ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما فلا يكون لهوى في الصدقة على فلان أو الإصلاح بين فلان وعلان ولا يكون ليشتهر الرجل بأنه والله رجل طيب يحض على الصدقة والمعروف ويسعى في الإصلاح بين الناس ولا تكون هناك شائبة تعكر صفاء الاتجاه إلى الله بهذا الخير فهذا هو مفرق الطريق بين العمل بعمله المرء فيرضى الله عنه ويثيبه به والعمل نفسه بعمله المرء فيغضب الله عليه ويكتبه له في سجل السيئات

الدرس الثاني كفر المرتد وعدم المغفرة له

ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضللا بعيدا وقد ذكر في سبب نزول هذه المجموعة من الآيات أن بشير بن أبيرق قد ارتد والتحق بالمشركين من بعد ما تبين له الهدى فقد كان في صفوف المسلمين ثم اتبع غير سبيل المؤمنين ولكن النص عام ينطبق على كل حالة ويواجه كل حالة من مشاققة الرسول ص ومشاققة كفر وشرك وردة ينطبق عليه ما ينطبق على ذلك الحادث القديم والمشاققة لغة أن يأخذ المرء شقا مقابلا للشق الذي يأخذه الآخر والذي يشاق الرسول ص هو الذي يأخذ له شقا وجانبا وصفا غير الصف والجانب والشق الذي يأخذه النبي ص ومعنى هذا أن يتخذ له منهجا للحياة كلها غير منهجه وأن يختار له طريقا غير طريقه فالرسول ص جاء يحمل من عند الله منهجا كاملا للحياة يشتمل على العقيدة والشعائر التعبدية كما يشتمل على الشريعة والنظام الواقعي لجوانب الحياة البشرية كلها وهذه وتلك كلتاهما جسم هذا المنهج بحيث تزهد روح هذا المنهج إذا شطر جسمه فأخذ منه شق وطرح شق والذي يشاق الرسول ص هو كل من ينكر منهجه جملة أو يؤمن ببعض

ويكفر ببعض فيأخذ بشق منه ويطرح شقا وقد اقتضيت رحمة الله بالناس
ألا يحق عليهم القول ولا يصلوا جهنم وساءت مصيرا إلا بعد أن يرسل إليهم
رسولا وبعد أن يبين لهم وبعد أن يتبينوا الهدى ثم يختاروا الضلالة وهي
رحمة الله الواسعة الحانية على هذا المخلوق الضعيف فإذا تبين له الهدى
أي إذا علم أن هذا المنهج من عند الله ثم شاق الرسول ص فيه ولم يتبعه
ويطعه ولم يرض بمنهج الله الذي تبين له فعندئذ يكتب الله عليه الضلال
ويوليه الوجهة التي تولاها ويلحقه بالكفار والمشركين الذين توجه إليهم
ويحق عليه العذاب المذكور في الآية بنصه ومن يشاقق الرسول من بعد ما
تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولي ونصله جهنم وساءت
مصيرا ويعلل النص هذا المصير البائس السيء بأن مغفرة الله سبحانه
تتناول كل شيء إلا أن يشرك به فهذه لا مغفرة لمن مات عليها إن الله لا
يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل
ضللا بعيدا والشرك بالله كما أسلفنا في هذا الجزء عند تفسير مثل هذه
الآية من قبل يتحقق باتخاذ آلهة مع الله اتخاذا صريحا على طريقه الجاهلية
العربية وغيرها من الجاهليات القديمة كما يتحقق بعدم أفراد الله بخصائص
الالوهية ; والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص كإشراك اليهود
والنصارى الذي حكاه القرآن من أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من
دون الله ولم يكونوا عبيدوهم مع الله ولكن كانوا فقط اعترفوا لهم بحق
التشريع لهم من دون الله فحرموا عليهم وأحلوا لهم فاتبعوهم في هذا
ومنحوهم خاصية من خصائص الألوهية فحق عليهم وصف الشرك وقيل
عنهم إنهم خالفوا ما أمروا به من التوحيد وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا
فيقيموا له وحده الشعائر ويتلقوا منه وحده الشرائع والأوامر ولا غفران
لذنب الشرك متى مات صاحبه عليه بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب
سواه عندما يشاء الله والسبب في تعظيم جريمة الشرك وخروجها من
دائرة المغفرة أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تماما ;
وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبداً ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً
ولو بقي خيط واحد صالح من خيوط الفطرة لشده إلى الشعور بوحدانية
ربه ; ولو قبل الموت بساعة فأما وقد غرغر وهو على الشرك فقد انتهى
أمره وحق عليه القول ونصله جهنم وساءت مصيرا

الدرس الثالث أوهام الجاهلية العربية في شركها

ثم يصف بعض أوهام الجاهلية العربية في شركها وأساطيرها حول اتخاذ
الله بنات هن الملائكة وحول عبادتهم للشيطان وقد عبده كما عبدوا
الملائكة وتمثيلها الأصنام كما يصف بعض شعائرهم في تقطيع أو تشقيق
آذان الأنعام المنذورة للآلهة وفي تغييرهم خلق الله والشرك بالله وهو
مخالف للفطرة التي فطر الله الناس عليها إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن
يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا
ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ; ولأمرنهم فلغيرن خلق
الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم
ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا لقد كان العرب في جاهليتهم

يزعمون أن الملائكة بنات الله ثم يتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها أسماء الإناث اللات والعزى ومناة وأمثالها ثم يعبدون هذه الأصنام بوصفها تماثيل لبنات الله يتقربون بها إلى الله زلفى كان هذا على الأقل في مبدأ الأمر ثم ينسون أصل الأسطورة ويعبدون الأصنام ذاتها بل يعبدون جنس الحجر كما بينا ذلك في الجزء الرابع كذلك كان بعضهم يعبد الشيطان نصا قال الكلبي كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن على أن النص هنا أوسع مدلولاً فهم في شركهم كله إنما يدعون الشيطان ويستمدون منه هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم ; الذي لعنه الله بسبب معصيته وعدائه للبشر والذي بلغ من حقه بعد طرده ولعنته أن يأخذ من الله سبحانه إذنا بأن يغوي من البشر كل من لا يلجأ إلى حمى الله إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله إنهم يدعون الشيطان عدوهم القديم ويستوحونه ويستمدون منه هذا الطلال ذلك الشيطان الذي لعنه الله والذي صرح بنبته في إضلال فريق من أبناء آدم وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية من لذة كاذبة وسعادة موهومة ونجاة من الجزاء في نهاية المطاف كما صرح بنبته في أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة وشعائر سخيفة من نسج الأساطير كتمزيق آذان بعض الأنعام ليصبح ركوبها بعد ذلك حراما أو أكلها حراما دون أن يحرمها الله ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها في الحيوان أو الإنسان كخصاء الرقيق ووشم الجلود وما إليها من التغيير والتشويه الذي حرمه الإسلام وشعور الإنسان بأن الشيطان عدوه القديم هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية يثير في نفسه على الأقل الحذر من الفخ الذي نصبه العدو وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي ينشئه في الأرض ; والوقوف تحت راية الله وحزبه في مواجهة الشيطان وحزبه وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التي أعلنها منذ لعنه وطرده والمؤمن لا يغفل عنها ولا ينسحب منها وهو يعلم أنه إما أن يكون وليا لله وإما أن يكون وليا للشيطان ; وليس هنالك وسط والشيطان يتمثل في نفسه وما يبته في النفس من شهوات ونزوات ; ويتمثل في أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة والمسلم يكافحه في ذات نفسه كما يكافحه في أتباعه معركة واحدة متصلة طوال الحياة ومن يجعل الله مولاه فهو ناج غانم ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبيهاً ويصور السياق القرآني فعل الشيطان مع أوليائه في مثل حالة الاستهواء يعدهم وبمنيتهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا إنها حالة استهواء معينة هي التي تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد إلى الكفر والشرك ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة في طريقها ولكان الإيمان هو هادي الفطرة وحاديها وإنها حالة استهواء معينة هي التي يزين فيها الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسنا وبعده الكسب والسعادة في طريق المعصية فيعدو معه في الطريق ويمنيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيطمئن ويمضي في طريقه إلى المهلكة وما يعدهم الشيطان إلا غرورا وحين يرتسم المشهد على هذا النحو والعدو القديم يقتل الحبال ويضع الفخ ويستدرج الفريسة لا تبقى إلا الجبلات الموكوسة المطموسة هي التي تظل

سادرة لا تستيقظ ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أي طريق تساق وإلى أية هوة تستهوى وبينما هذه اللمسة الموقظة تفعل فعلها في النفوس وتصور حقيقة المعركة وحقيقة الموقف يجيء التعقيب ببيان العاقبة في نهاية المطاف عاقبة من يستهويهم الشيطان ويصدق عليهم ظنه وينفذ فيهم ما صرح به من نيته الشريرة وعاقبة من يقتلون من حبالته لأنهم آمنوا بالله حقا والمؤمنون بالله حقا في نجوة من هذا الشيطان لأنه لعنة الله عليه وهو يستأذن في إغواء الضالين لم يؤذن له في المساس بعباد الله المخلصين فهو إزاءهم ضعيف ضعيف ; كلما اشتدت قبضتهم على حبل الله المتين ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا أولئك ماوأهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا فهي جهنم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان وهي جنات الخلد لا خروج منها لأولياء الله وعد الله ومن أصدق من الله قيلا والصدق المطلق في قول الله هنا ; يقابل الغرور الخادع والأمانى الكاذبة في قول الشيطان هناك وشتان بين من يثق بوعد الله ومن يثق بتغرير الشيطان

الدرس الرابع قاعدة العمل والجزاء والثواب والعقاب

ثم يعقب السياق بقاعدة الإسلام الكبرى في العمل والجزاء إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولا إلى الأمانى إنه يرجع إلى أصل ثابت وسنة لا تتخلف وقانون لا يحابي قانون تستوي أمامه الأمم فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر وليس أحد تخرق له القاعدة وتخالف من أجله السنة ويعطل لحسابه القانون إن صاحب السوء مجزى بالسوء ; وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة ولا محاباة في هذا ولا ممارسة ليس بأمانىكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ومن أحسن ديننا مما أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلاً ولقد كان اليهود والنصارى يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وكانوا يقولون لن تمسنا النار إلا أياما معدودة وكان اليهود ولا يزالون يقولون إنهم شعب الله المختار ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس وأن الله متجاوز عما يقع منهم بما أنهم المسلمون فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل والعمل وحده ويرد الناس كلهم إلى ميزان واحد هو إسلام الوجه لله مع الإحسان واتباع ملة إبراهيم وهي الإسلام إبراهيم الذي اتخذ الله خليلاً فأحسن الدين هو هذا الإسلام ملة إبراهيم وأحسن العمل هو الإحسان والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وقد كتب الإحسان في كل شيء حتى في إراحة الذبيحة عند ذبحها وحد الشفرة حتى لا تعذب وهي تذيب وفي النص تلك التسوية بين شقي النفس الواحدة في موقفهما من العمل والجزاء ; كما أن فيه شرط الإيمان لقبول العمل وهو الإيمان بالله ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى

وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا وهو نص صريح على وحدة القاعدة في معاملة شقي النفس الواحدة من ذكر أو أنثى كما هو نص صريح في اشتراط الإيمان لقبول العمل وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الإيمان ولا يصاحبه الإيمان وذلك طبيعي ومنطقي لأن الإيمان بالله هو الذي يجعل العمل الصالح يصدر عن تصور معين وقصد معلوم ; كما يجعله حركة طبيعية مطردة لا استجابة لهوى شخصي ولا فلتة عابرة لا تقوم على قاعدة وهذه الألفاظ الصريحة تخالف ما ذهب إليه الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسير جزء عم عند قوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره إذ رأى النص لعمومه هذا يشمل المسلم وغير المسلم بينما النصوص الصريحة الأخرى تنفي هذا تماما وكذلك ما رآه الأستاذ الشيخ المراغي رحمه الله وقد أشرنا إلى هذه القصة في جزء عم الجزء الثلاثين من الظلال ولقد شق على المسلمين قول الله لهم ومن يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا فقد كانوا يعرفون طبيعة النفس البشرية ; ويعرفون أنها لا بد أن تعمل سوءا مهما صلحت ومهما عملت من حسنات كانوا يعرفون النفس البشرية كما هي في حقيقتها وكانوا من ثم يعرفون أنفسهم لم يخدعوا أنفسهم عن حقيقتها ; ولم يخفوا عن أنفسهم سيئاتها ; ولم يتجاهلوا ما يعتور نفوسهم من ضعف أحيانا ولم ينكروا أو يغطوا هذا الضعف الذي يجدونه ومن ثم ارتجفت نفوسهم وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه يجزون به ارتجفت نفوسهم كالذي يواجه العاقبة فعلا ويلا مسها وهذه كانت ميزتهم أن يحسوا الآخرة على هذا النحو ويعيشوا فيها فعلا بمشاعرهم كأنهم فيها لا كأنها آية لا ريب فيها فحسب ومن ثم كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا إسماعيل عن أبي بكر بن أبي زهير قال أخبرت أن أبا بكر رضي الله عنه قال يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به فكل سوء عملناه جزينا به فقال النبي ص > غفر الله لك يا أبا بكر ألسنت تمرض ألسنت تنصب ألسنت تحزن ألسنت تصيبك الأواء < قال بلى قال > فهو مما تجزون به < ورواه الحاكم عن طريق سفيان الثوري عن إسماعيل وروى أبو بكر بن مردويه بإسناده إلى ابن عمر يحدث عن أبي بكر الصديق قال كنت عند النبي ص فنزلت هذه الآية من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا فقال رسول الله ص > يا أبا بكر ألا أفرئك آية نزلت علي < قال قلت يا رسول الله فأقرأنيها فلا أعلم أنني قد وجدت انفصاما في ظهري حتى تمطيت لها فقال رسول الله ص > مالك يا أبا بكر < فقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأينا لم يعمل السوء وأنا لمجزون بكل سوء عملناه فقال رسول الله ص > أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة < وكذا رواه الترمذي وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن عائشة قالت قلت يا رسول الله إنى لأعلم أشد آية في القرآن فقال > ما هي يا عائشة < قلت من يعمل سوءا يجز به فقال > ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة ينكبه < ورواه ابن جرير وروى مسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عيينة بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما نزلت من يعمل سوءا يجز به شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ص > سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب

به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها > على أية حال لقد كانت هذه حلقة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء ذات أهمية كبرى في استقامة التصور من ناحية واستقامة الواقع العملي من ناحية أخرى ولقد هزت هذه الآية كيانهم ورجفت لها نفوسهم لأنهم كانوا يأخذون الأمر جدا ويعرفون صدق وعد الله حقا ويعيشون هذا الوعد ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا وفي الختام يجيء التعقيب على قضية العمل والجزاء وقضية الشرك قبلها والإيمان برد كل ما في السماوات والأرض لله وإحاطة الله بكل شيء في الحياة وما بعد الحياة ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً وإفراد الله سبحانه بالألوهية يصاحبه في القرآن كثيرا إفراده سبحانه بالملك والهيمنة والسلطان والقهر فالتوحيد الإسلامي ليس مجرد توحيد ذات الله وإنما هو توحيد إيجابي توحيد الفاعلية والتأثير في الكون وتوحيد السلطان والهيمنة أيضا ومتى شعرت النفس أن لله ما في السماوات وما في الأرض وأنه بكل شيء محيط لا يند شيء عن علمه ولا عن سلطانه كان هذا باعثها القوي إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والعبادة ; وإلى محاولة إرضائه باتباع منهجه وطاعة أمره وكل شيء ملكه وكل شيء في قبضته وهو بكل شيء محيط وبعض الفلاسفات تقرر وحدانية الله ولكن بعضها ينفي عنه الإرادة وبعضها ينفي عنه العلم وبعضها ينفي عنه السلطان وبعضها ينفي عنه الملك إلى آخر هذا الركام الذي يسمى فلسفات ومن ثم يصبح هذا التصور سلبيا لا فاعلية له في حياة الناس ولا أثر له في سلوكهم وأخلاقهم ; ولا قيمة له في مشاعرهم وواقعهم كلام مجرد كلام إن الله في الإسلام له ما في السماوات وما في الأرض فهو مالك كل شيء وهو بكل شيء محيط فهو مهيم على كل شيء وفي ظل هذا التصور يصلح الضمير وبصلح السلوك وتصلح الحياة

الوحدة الثانية عشرة توجيهات بشأن الأسرة والأطفال والمرأة

مقدمة الوحدة

الدرس الأول إجابة على تساؤلات بشأن النساء واليتيمات

الدرس الثاني علاج حالة نشوز الزوج والعدل المنفي

الدرس الثالث الربط بين أحكام الله وملكه السماوات والأرض

مقدمة الوحدة

علاج روااسب الجاهلية فيما يختص بالمرأة والأسرة هذا الدرس تكمله لما بدأت به السورة من علاج روااسب المجتمع الجاهلي فيما يختص بالمرأة والأسرة ; وفيما يختص بمعاملة الضعاف في المجتمع كاليتامى والأطفال

وتنقية المجتمع المسلم من هذه الرواسب ; وإقامة البيت فيه على أساس من كرامة شطري النفس الواحدة ; ورعاية مصالحهما معا وتقوية روابط الأسرة وإصلاح ما يشجر في جوها من خلاف قبل أن يستفحل فيؤدي إلى تقطيع هذه الروابط وتحطيم البيوت على من فيها وبخاصة على الذرية الضعيفة الناشئة في المحاضن وإقامة المجتمع كذلك على أساس من رعاية الضعاف فيه ; كي لا يكون الأمر للأغلب ; وتكون شريعة الغاب هي التي تتحكم وهذا الدرس يعالج بعض هذه الشؤون ويربطهما بنظام الكون كله مما يشعر معه المخاطب بهذه الآيات أن أمر النساء والبيوت والأسرة والضعاف في المجتمع هو أمر خطير كبير وهو في حقيقته أمر خطير كبير وقد تحدثنا في ثنايا هذا الجزء وفي مقدمات السورة في الجزء الرابع ; بما فيه الكفاية عن نظرة الإسلام إلى الأسرة ; وعن الجهد المبذول في هذا المنهج لتخليص المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية ومن رفع مستواه النفسي والاجتماعي والخلقي بما يكفل تفوقه على المجتمعات كلها من حوله وعلى كل مجتمع آخر لا يدين بهذا الدين ولا يتربى بهذا المنهج ولا يخضع لنظامه الفريد والآن نواجه نصوص هذا الدرس بالتفصيل

الدرس الأول إجابة على تساؤلات بشأن النساء واليتيمات

ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكوهن والمستضعفين من والدان ; وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً لقد أثارت الآيات التي نزلت في أوائل السورة عن النساء أسئلة واستفتاءات في بعض شأنهن وظاهرة سؤال المسلمين واستفتائهم في بعض الأحكام ظاهرة لها دلالتها في المجتمع المسلم الناشئ ; وفي رغبة المسلمين في معرفة أحكام دينهم في شؤون حياتهم فقد كانت الهزة التي أحدثتها النقلة من الجاهلية إلى الإسلام في نفوسهم هزة عميقة بحيث أصبحوا يشكون ويشفقون من كل أمر كانوا يأتونه في الجاهلية مخافة أن يكون الإسلام قد نسخه أو عدله ويتطلبون أن يعرفوا حكم الإسلام في كل ما يعرض لهم في حياتهم اليومية من الشؤون وهذه اليقظة وهذه الرغبة في مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام هي العنصر البارز في هذه الفترة على الرغم من بقاء بعض رواسب الجاهلية في حياتهم فالمهم هو رغبتهم الحقيقية القوية في مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام ; والاستفسار عن بعض الأحكام بهذه الروح لا لمجرد الاستفتاء ولا لمجرد العلم والمعرفة والثقافة كمعظم ما يوجه إلى المفتين في هذه الأيام من استفتاءات لقد كانت بالقوم حاجة إلى معرفة أحكام دينهم لأنها هي التي تكون نظام حياتهم الجديدة وكانت بهم حرارة لهذه المعرفة لأن الغرض منها هو إيجاد التطابق بين واقع حياتهم وأحكام دينهم وكان بهم انخلاع من الجاهلية وإشفاق من كل ما كان فيها من تقاليد وعادات وأوضاع وأحكام مع شدة إحساسهم بقيمة هذا التغيير الكامل الذي أنشأه الإسلام في حياتهم أو بتعبير أدق بقيمة هذا الميلاد الجديد الذي ولدوه على يدي الإسلام وهنا نجد جزاء تطلعهم لله وجزاء حرارتهم وصدق عزمهم على الاتباع نجد

جزاء هذا كله عناية من الله ورعاية بأنه سبحانه بذاته العلية يتولى إفتاءهم فيما يستفتون فيه ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن فهم كانوا يستفتون الرسول ص والله سبحانه يتفضل فيقول للنبي ص قل إن الله يفتيكم فيهن وفي بقية الشؤون التي جاء ذكرها في الآية وهي لفتة لها قيمتها التي لا تقدر في عطف الله سبحانه وتكريمه للجماعة المسلمة ; وهو يخاطبها بذاته ; ويرعاها بعينه ; ويفتيها فيما تستفتي وفيما تحتاج إليه حياتها الجديدة وقد تناولت الفتوى هنا تصوير الواقع المترسب في المجتمع المسلم من الجاهلية التي التقطه المنهج الرباني منها كما تناولت التوجيه المطلوب لرفع حياة المجتمع المسلم وتطهيرها من الرواسب قل الله يفتيكم فيهن ; وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك فلم يقدر أحد أن يتزوجها أبدا وإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها وإن كانت دميمة منعها الرجال أبد حتى تموت فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه وقال في قوله والمستضعفين من الولدان كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات وذلك قوله ولا تؤتونهن ما كتب لهن فنهى الله عن ذلك ; وبين لكل ذي سهم سهمه فقال للذكر مثل حظ الأنثيين صغيرا أو كبيرا وقال سعيد بن جبير في قوله وأن تقوموا لليتامى بالقسط كما إذا كانت ذات جمال وقال نكحتها واستأثرت بها كذلك وإذا لم تكن ذات مال ولا جمال فأنكحها واستأثر بها وعن عائشة رضي الله عنها ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن إلى قوله وترغبون أن تنكحوهن قالت عائشة هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فأشركته في ماله حتى في العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلا فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها فنزلت الآية أخرجه البخاري ومسلم وقال ابن أبي حاتم مع محمد بن عبدالله بن عبد الحكم أخبرنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير قالت عائشة ثم إن الناس استفتوا رسول الله ص بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب الآية قالت والذي ذكر الله أنه يتلى في الكتاب الآية الأولى التي قال الله وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء وبهذا الإسناد عن عائشة قالت وقول الله عز وجل وترغبون أن تنكحوهن رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن هن وظاهر من هذه النصوص ومن النص القرآني ما كان عليه الحال في الجاهلية ; فيما يختص بالفتيات اليتيمات فقد كانت اليتيمة تلقى من وليها الطمع والغبن الطمع في مالها والغبن في مهرها إن هو تزوجها فياكل مهرها ويأكل مالها والغبن إن لم يتزوجها كراهية لها لأنها دميمة ومنعها أن تتزوج حتى لا يشاركه زوجها فيما تحت يده من مالها كذلك كان الحال في الولدان الصغار والنساء إذ كانوا يحرمونهم من الميراث لأنهم لا يملكون القوة التي يدفعون بها عن ميراثهم ; أو أنهم غير محاربين فلا حق لهم في الميراث تحت تأثير الشعور القبلي الذي يجعل للمحاربين في القبيلة كل شيء ولا شيء للضعاف وهذه التقاليد الشائنة

البداية هي التي أخذ الإسلام يبدلها وينشئ ء مكانها تقاليد إنسانية راقية لا تعد كما قلنا مجرد وثبة أو نهضة في المجتمع العربي إنما هي في حقيقتها نشأة أخرى وميلاد جديد وحقيقة أخرى لهذه الأمة غير حقيقتها الجاهلية والمهم الذي يجب أن نسجله هو أن هذه النشأة الجديدة لم تكن تطورا مسبقا بأية خطوات تمهيدية له ؛ أو أنه انبثق من واقع مادي تغير فجأة في حياة هذا الشعب فالنقلة من إقامة حقوق الإرث والملك على أساس حق المحارب إلى إقامتها على أساس الحق الإنساني وإعطاء الطفل واليتيم والمرأة حقوقهم بصفتهم الإنسانية لا بصفتهم محاربين هذه النقلة لم تنشأ لأن المجتمع قد انتقل إلى أوضاع مستقرة لا قيمة فيها للمحاربين ومن ثم قضى على الحقوق المكتسبة للمحاربين لأنه لم يعد في حاجة إلى تمييزهم كلا فقد كان للمحاربين في العهد الجديد قيمتهم كلها ؛ وكانت الحاجة إليهم ماسة ولكن كان هناك الإسلام كان هناك هذا الميلاد الجديد للإنسان الميلاد الذي انبثق من خلال كتاب ؛ ومن خلال منهج ؛ فأقام مجتمعا جديدا وليدا على نفس الأرض وفي ذات الظروف وبدون حدوث انقلاب لا في الإنتاج وأدواته ولا في المادة وخواصها وإنما مجرد انقلاب في التصور هو الذي انبثق منه الميلاد الجديد وحقيقة أن المنهج القرآني قد كافح وكافح طويلا لطمس ومحو معالم الجاهلية في النفوس والأوضاع وتخطيط وتثبيت المعالم الإسلامية في النفوس والأوضاع وحقيقة كذلك أن رواسب الجاهلية ظلت تقاوم ؛ وظلت تعاود الظهور في بعض الحالات الفردية ؛ أو تحاول أن تعبر عن نفسها في صور بثنى ولكن المهم هنا هو أن المنهج المنتزل من السماء والتصوير الذي أنشأه هذا المنهج كذلك هو الذي كان يكافح الواقع المادي ويبدله ويبدله ولم يكن قط أن الواقع المادي أو النقيض الكامن فيه ؛ أو تبدل وسائل الإنتاج أو شيء من هذا الهوس الماركسي هو الذي اقتضى تغيير التصورات ومناهج الحياة وأوضاعها لتلائم هذا التبدل الذي تفرضه وسائل الإنتاج كان هناك فقط شيء جديد واحد في حياة هذا الشعب شيء هبط عليه من الملائكة الأعلى فاستجابت له نفوس لأنه يخاطب فيها رصيد الفطرة الذي أودعه الله فيها ومن ثم وقع هذا التغيير بل تم هذا الميلاد الجديد للإنسان الميلاد الذي تغيرت فيه ملامح الحياة كلها في كل جانب من جوانبها عن الملامح المعهودة في الجاهلية ومهما يكن هناك من صراع قد وقع بين الملامح الجديدة واللامح القديمة ومهما يكن هناك من آلام للمخاض وتضحيات فقد تم هذا كله لأن هناك رسالة علوية ؛ وتصورا اعتقاديا ؛ هو الذي كان له الأثر الأول والأثر الأخير في هذا الميلاد الجديد الذي لم تقتصر موجهته على المجتمع الإسلامي ؛ ولكن تعدته كذلك إلى المجتمع الإنساني كله ومن ثم ينتهي هذا النص القرآني الذي يفتي فيه الله المؤمنين فيما يستفتون فيه الرسول ص في أمر النساء ويقص عليهم حقوق اليتيمات وحقوق الولدان الضعاف ينتهي بربط هذه الحقوق وهذه التوجيهات كلها بالمصدر الذي جاء من عنده هذا المنهج وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً فهو غير مجهول وهو غير ضائع وهو مسجل عند الله ولن يضيع خير سجل عند الله وهذا هو المرجع الأخير الذي يعود إليه المؤمن بعمله والجهة الوحيدة التي يتعامل معها في نيته وجهده وقوة هذا المرجع وسلطانه هي التي تجعل لهذه التوجيهات ولهذا المنهج قوته وسلطانه في النفوس وفي الأوضاع وفي الحياة إنه ليس المهم أن تقال توجيهات ؛ وأن تبدع مناهج ؛ وأن تقام أنظمة إنما المهم هو السلطان الذي

ترتكز إليه تلك التوجيهات والمناهج والأنظمة السلطان الذي تستمد منه قوتها ونفاذها وفعاليتها في نفوس البشر وشتان بين توجيهات ومناهج ونظم يتلقاها البشر من الله ذي الجلال والسلطان وتوجيهات ومناهج ونظم يتلقونها من العبيد أمثالهم من البشر ذلك على فرض تساوي هذه وتلك في كل صفة أخرى وفي كل سمة ; وبلوغهما معا أوجا واحدا وهو فرض ظاهر الاستحالة ألا إنه ليكفي أن أشعر ممن صدرت هذه الكلمة لأعطيها في نفسي ما تستحقه من مكان ولتفعل في نفسي ما تفعله كلمة الله العلي الأعلى أو كلمة الإنسان ابن الإنسان

الدرس الثاني علاج حالة نشوز الزوج والعدل المنفي

ثم نمضي خطوة أخرى مع التنظيم الاجتماعي في محيط الأسرة في هذا المجتمع الذي كان الإسلام ينشئه بمنهج الله المنتزل من الملأ الأعلى لا بعوامل التغير الأرضية في عالم المادة أو دنيا الإنتاج وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراسا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفورا رحيفا وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما لقد نظم المنهج من قبل حالة النشوز من ناحية الزوجة ; والإجراءات التي تتخذ للمحافظة على كيان الأسرة وذلك في أوائل هذا الجزء فالآن ينظم حالة النشوز والإعراض حين يخشى وقوعها من ناحية الزوج فتهدد أمن المرأة وكرامتها وأمن الأسرة كلها كذلك إن القلوب تتقلب وإن المشاعر تتغير والإسلام منهج حياة يعالج كل جزئية فيها ويتعرض لكل ما يعرض لها ; في نطاق مبادئه وأهدافه ; وتصميم المجتمع الذي يرسمه وينشئه وفق هذا التصميم فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة ; وأن تؤدي هذه الجفوة إلى الطلاق وهو أبغض الحلال إلى الله أو إلى الإعراض الذي يتركها كالمعلقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها أن تتنازل له عن شيء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية كأن تترك له جزءا أو كلا من نفقتها الواجبة عليه أو أن تترك له قسمتها ووليبتها إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها وكانت هي قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها هذا كله إذا رأت هي بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراسا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا هو هذا الصلح الذي أشرنا إليه ثم يعقب على الحكم بأن الصلح إطلاقا خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق والصلح خير فينسم على القلوب التي دبت فيها الجفوة والجفاف نسمة من الندى والإيناس والرغبة في إبقاء الصلة الزوجية والرابطة العائلية إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله فهو يحاول بكل وسائله المؤثرة أن يرفع هذه النفس إلى أعلى مستوى تهيئها له طبيعتها وفطرتها ولكنه في الوقت ذاته لا يتجاهل حدود هذه الطبيعة والفطرة ; ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس في طاقتها ; ولا يقول للناس اضربوا رؤوسكم في الحائط فانا

أريد منكم كذا والسلام سواء كنتم تستطيعونه أو لا تستطيعونه إنه لا يهتف للنفس البشرية لتبقى على ضعفها وقصورها ; ولا ينشد لها أناشيد التمجيد وهي تتلبد في الوحل وتتمرغ في الطين بحجة أن هذا واقع هذه النفس ولكنه كذلك لا يعلقها من رقبتها في حبل بالملأ الأعلى وبدعها تتأرجح في الهواء ; لأن قدميها غير مستقرتين على الأرض بحجة الرفة والتسامي إنه الوسط إنه الفطرة إنه المثالية الواقعية أو الواقعية المثالية إنه يتعامل مع الإنسان بما هو إنسان والإنسان مخلوق عجيب هو وحده الذي يضع قدميه على الأرض ; وينطلق بروحه إلى السماء في لحظة واحدة لا تفارق فيها روحه جسده ; ولا ينفصل إلى جسد على الأرض وروح في السماء وهو هنا في هذا الحكم يتعامل مع هذا الإنسان وينص على خصيصة من خصائصه في هذا المجال وأحضرت الأنفس الشح أي أن الشح حاضر دائماً في الأنفس وهو دائماً قائم فيها الشح بأنواعه الشح بالمال والشح بالمشاعر وقد ترسب في حياة الزوجين أو تعرض أسباب تستثير هذا الشح في نفس الزوج تجاه زوجته فيكون تنازلها له عن شيء من مؤخر صداقها أو من نفقتها إرضاء لهذا الشح بالمال تستبقي معه عقدة النكاح وقد يكون تنازلها عن ليلتها إن كانت له زوجة أخرى أثيرة لديه والأولى لم تعد فيها حيوية أو جاذبية إرضاء لهذا الشح بالمشاعر تستبقي معه عقدة النكاح والأمر على كل حال متروك في هذا للزوجة وتقديرها لما تراه مصلحة لها لا يلزمها المنهج الرباني بشيء ; ولكنه فقط يجيز لها التصرف ويمنحها حرية النظر والتدبر في أمرها وفق ما تراه وفي الوقت الذي يتعامل المنهج الإسلامي مع طبيعة الشح هذه لا يقف عندها باعتبارها كل جوانب النفس البشرية بل هو يهتف لها هتافاً آخر ويعزف لها نغمة أخرى وإن تحسّنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعلمون خبيراً فالإحسان والتقوى هما مناط الأمر في النهاية ولن يضيع منهما شيء على صاحبة فإن الله خير بما عمله كل نفس ; خير ببواعثه وكوامنه والتهاتف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل هتاف مؤثر ونداء مستجاب بل هو وحده الهتاف المؤثر والنداء المستجاب ومرة أخرى نجدنا أمام المنهج الفريد وهو يواجه واقع النفس البشرية وملابسات الحياة البشرية بالواقعية المثالية أو المثالية الواقعية ويعترف بما هو كامن في تركيبها من ازدواج عجيب فريد ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيمًا إن الله الذي فطر النفس البشرية يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها ومن ثم أعطاهها لهذه الميول خطاماً خطاماً لينظم حركتها فقط لا ليعدمها ويقتلها من هذه الميول أن يميل القلب البشري إلى إحدى الزوجات ويؤثرها على الأخريات فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات وهذا ميل لا حيلة له فيه ; ولا يملك محوه أو قتله فماذا إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه ; ولا يجعل هذا إثماً يعاقبه عليه ; فيدعه موزعاً بين ميل لا يملكه وأمر لا يطيقه بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ولو حرصوا لأن الأمر خارج عن إرادتهم ولكن هنالك ما هو داخل في إرادتهم هناك العدل في المعاملة العدل في القسمة العدل في النفقة العدل في الحقوق الزوجية كلها حتى الابتسام في الوجه والكلمة الطيبة باللسان وهذا ما هم مطالبون به هذا هو الخطام الذي يقود ذلك الميل لينظمه لا ليقتله فلا

تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة فهذا هو المنهي عنه الميل في المعاملة الظاهرة والميل الذي يحرم الأخرى حقوقها فلا تكون زوجة ولا تكون مطلقة ومعه الهتاف المؤثر العميق في النفوس المؤمنة ; والتجاوز عما ليس في طاقة الإنسان وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيمًا ولأن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بجملة ما فيها من مزاج فريد مؤلف من القبض من الطين والنفخة من روح الله وجملة ما فيها من استعدادات وطاقات وبواقعتها المثالية أو مثاليته الواقعية التي تضع قدميها على الأرض وترف بروحها إلى السماء دون تناقض ودون انفصام لأن الإسلام كذلك كان نبي الإسلام ص هو الصورة الكاملة للإنسانية حين تبلغ أوجها من الكمال ; فتنمو فيها جميع الخصائص والطاقات نموا متوازنا متكاملًا في حدود فطرة الإنسان وكان هذا الرسول ص وهو يقسم بين نسائه فيما يملك ويعدل في هذه القسمة لا ينكر أنه يؤثر بعضهن على بعض وأن هذا خارج عما يملك فكان يقول > اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك يعني القلب < أخرجه أبو داود فأما حين تجف القلوب فلا تطبق هذه الصلة ; ولا يبقى في نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة فالتفرق إذن خير لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال ولا بالقيود والأغلال ; إنما يمسكهم بالمودة والرحمة ; أو بالواجب والتجمل فإذا بلغ الحال أن لا تبلغ هذه الوسائل كلها علاج القلوب المتنافرة فإنه لا يحكم عليها أن تقيم في سجن من الكراهية والنفرة ; أو في رباط ظاهري وانفصام حقيقي وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً فالله يعد كلا منهما أن يغنيه من فضله هو ومما عنده هو ; وهو سبحانه يسع عباده ويوسع عليهم بما يشاء في حدود حكمته وعلمه بما يصلح لكل حال إن دراسة هذا المنهج وهو يعالج مشاعر النفوس وكوامن الطباع وأوضاع الحياة في واقعيتها الكلية تكشف عن عجب لا ينقضي من تنكر الناس لهذا المنهج هذا المنهج الميسر الموضوع للبشر الذي يقود خطاهم من السفح الهابط في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة ; وفق فطرتهم واستعداداتهم ; ولا يفرض عليهم أمرا من الارتفاع والتسامي إلا وله وتر في فطرتهم يوقع عليه ; وله استعداد في طبيعتهم يستجيشه ; وله جذر في تكوينهم يستنبته ثم هو يبلغ بهم بعد هذا كله إلى ما لا يبلغه بهم منهج آخر في واقعية مثالية أو مثالية واقعية هي صورة طبق الأصل من تكوين هذا الكائن الفريد

الدرس الثالث الربط بين أحكام الله وملكه السموات والأرض

ولأن هذه الأحكام الخاصة بتنظيم الحياة الزوجية قطاع من المنهج الرباني لتنظيم الحياة كلها ; ولأن هذا المنهج بجملته قطاع من الناموس الكوني الذي أراده الله للكون كله فهو يتوافق مع فطرة الله للكون وفطرة الله للإنسان الذي يعيش في هذا الكون لأن هذه هي الحقيقة العميقة في هذا المنهج الشامل الكبير يجيء في سياق السورة بعد الأحكام الخاصة بتنظيم الأسرة ما يربطها بالنظام الكوني كله ; وسلطان الله في الكون كله وملكية الله للكون كله ووحدانية الوصية التي وصى الله بها الناس في كتبه

كلها ; وثواب الدنيا وثواب الآخرة وهي القواعد التي يقوم عليها المنهج كله قواعد الحق والعدل والتقوى ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيفا إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا ويكثر في القرآن التعقيب على الأحكام وعلى الأوامر والنواهي بأن لله ما في السماوات وما في الأرض ; أو بأن لله ملك السماوات والأرض فالأمران متلازمان في الحقيقة فالمالك هو صاحب السلطان في ملكه ; وهو صاحب حق التشريع لمن يحتوهم هذا الملك والله وحده هو المالك ومن ثم فهو وحده صاحب السلطان الذي يشرع به للناس فالأمران متلازمان كذلك يبرز هنا من وصية الله سبحانه لكل من أنزل عليهم كتابا الوصية بالتقوى وذلك بعد تعيين من له ملكية السماوات والأرض ومن له حق الوصية في ملكه ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله فصاحب السلطان الحقيقي هو الذي يخشى ويخاف وتقوى الله هي الكفيلة بصلاح القلوب وحرصها على منهجه في كل جزئياته كذلك يبين لمن يكفرون ضالة شأنهم في ملك الله ; وهو أن أمرهم عليه سبحانه ; وقدرته على الذهاب بهم والمجيء بغيرهم وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيفا إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا فهو سبحانه إذ يوصيهم بتقواه لا يعنيه في شيء ولا يضره في شيء ألا يسمعوا الوصية وأن يكفروا فإن كفرهم لن ينقص من ملكه شيئا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وهو قادر على أن يذهب بهم ويستبدل قوما غيرهم إنما هو يوصيهم بالتقوى لصالحهم هم ولصالح حالهم ويقدر ما يقرر الإسلام كرامة الإنسان على الله ; وتكريمه على كل ما في الأرض وكل من في الكون بقدر ما يقرر هو أنه على الله حين يكفر به ويعتو وتجبر ويدعي خصائص الألوهية بغير حق فهذه كفاء تلك في التصور الإسلامي وفي حقيقة الأمر والواقع كذلك وبختم هذا التعقيب بتوجيه القلوب الطامعة في الدنيا وحدها إلى أن فضل الله أوسع فعنده ثواب الدنيا والآخرة وفي استطاعة الذين يقصرون همهم على الدنيا أن يتطلعوا بأنظارهم وراءها ; وأن يأملوا في خير الدنيا وخير الآخرة من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا وإنه ليكون من الحمق كما يكون من سقوط الهمة أن يملك الإنسان التطلع إلى الدنيا والآخرة معا ; وإلى ثواب الدنيا وثواب الآخرة جميعا وهذا ما يكفله المنهج الإسلامي المتكامل الواقعي المثالي ثم يكتفي بطلب الدنيا ويضع فيها همه ; ويعيش كالحيوان والدواب والهوام ; بينما هو يملك أن يعيش كالإنسان قدم تدب على الأرض وروح ترف في السماء وكيان يتحرك وفق قوانين هذه الأرض ; ويملك في الوقت ذاته أن يعيش مع الملائكة الأعلى وأخيرا فإن هذه التعقيبات المتنوعة كما تدل على الصلة الوثيقة بين الأحكام الجزئية في شريعة الله والمنهج الكلي للحياة تدل في الوقت ذاته على خطورة شأن الأسرة في حساب الإسلام حتي ليربطها بهذه الشؤون الكبرى ; ويعقب عليها بوصية التقوى الشاملة للأديان جميعا ; وإلا فالله

قادر على أن يذهب بالناس ويأتي بغيرهم يتبعون وصيته ; و يقيمون شريعته وهو تعقيب خطير يدل على أن أمر الأسرة كذلك خطير في حساب الله وفي منهجه للحياة

الوحدة الثالثة عشرة العدل والإيمان والولاء ودم المنافقين لمولاتهم الكافرين

مقدمة الوحدة

الدرس الأول الأمر بالعدل في الحكم والقضاء

الدرس الثاني أركان الإيمان وعدم الفصل بينها

الدرس الثالث دم المنافقين لتلاعيمهم في الإيمان

الدرس

الدرس

الدرس السادس سمات المنافقين ووعده الله بالنصر

الدرس السابع تذبذب المنافقين وخداعهم وتكاسلهم

الدرس الثامن نهى المسلمين عن موالاته الكفار وخلود

المنافقين في النار

الدرس التاسع ترغيب في التوبة والشكر

مقدمة الوحدة

التربية المنهجية للجماعة المؤمنة هذا الدرس حلقة من سلسلة التربية المنهجية التي تولتها يد الرعاية الإلهية ; لإخراج الأمة التي قال الله فيها كنتم خير أمة أخرجت للناس وهي حلقة من المنهج الثابت المطرد الخطو المرسوم الأهداف لمعالجة النفس البشرية بالدواء الذي صنعه صانع هذه النفس سبحانه الخبير بدروبها ومنحنياتها البصير بطبيعتها وحقيقتها العليم بضرورتها وأشواقها وبمقدراتها وطاقاتها وهذه الحلقة كما ترسم قواعد المنهج واتجاهاته الثابتة الموضوعية للناس جميعا في أجيالهم كلها لترفعهم من سفوح الجاهلية حسب مكانهم في الدرج وتعرج بهم في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة هي كذلك في الوقت ذاته ترتسم فيها حال الجماعة المسلمة الأولى المخاطبة بهذا القرآن ; وتبرز من بين السطور صورة لهذه الجماعة إذ ذاك كما هي بكل ما فيها من بشرية وبكل ما في بشريتها من ضعف وقوة ; ومن رواسب جاهلية ومشاعر فطرية وتبرز كذلك طريقة المنهج في علاجها وتقويتها وتثبيتها على الحق الذي تمثله ; بكل ما في وقفها مع الحق من جهد وتضحية ويبدأ الدرس بنداء الجماعة

المؤمنة إلى النهوض بتكاليف دورها في إقامة العدل بين الناس على النحو الفريد الذي لم يقم إلا على يد هذه الجماعة العدل الذي تتعامل فيه الجماعة مع الله مباشرة ; متخلصة من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة بما في ذلك ما يسمى مصلحة الجماعة أو الأمة أو الدولة متجردة من كل اعتبار آخر غير تقوى الله ومرضاته العدل الذي رأينا نموذجا منه في الدرس العملي الذي ألقاه الله سبحانه بذاته العلية على النبي ص وعلى الجماعة المسلمة في حادث اليهودي الذي سلف ذكره يبدأ الدرس بنداء الذين آمنوا ليقوموا هذا العدل بصورته هذه ومنزل هذا القرآن يعلم حقيقة المجاهدة الشاقة التي تتكلفها إقامة العدل على هذا النحو وفي النفس البشرية ضعفها المعروف وعواطفها تجاه ذاتها وتجاه الأقارب ; وتجاه الضعاف من المتقاضين وتجاه الأقوياء أيضا تجاه الوالدين والأقربين وتجاه الفقير والغني ; تجاه المودة وتجاه الشنآن ويعلم أن التجرد من هذا كله يحتاج إلى جهاد شاق جهاد للصعود إلى هذه القمة على سفوح ملساء لا تتعلق فيها النفس بشيء إلا بحبل الله ثم يدعوهم دعوة ثانية إلى الإيمان بعناصر الإيمان الشامل بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولكل عنصر من هذه العناصر قيمته في تكوين العقيدة الإيمانية ; وقيمه في تكوين التصور الإسلامي المتفوق على جميع التصورات الأخرى التي عرفتها البشرية قبل الإسلام وبعده وهو ذاته التفوق الذي انبعث منه كل تفوق آخر أخلاقي أو اجتماعي أو تنظيمي في حياة الجماعة المسلمة الأولى والذي يحمل عنصر التفوق دائما لكل جماعة تؤمن به حقا وتعمل بمقتضياته كاملة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها حيث تحقق كلمة الله في هذا الدرس نفسه ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وبعد هذين النداءين يأخذ السياق في حملة منوعة الأساليب على المنافقين من بقي منهم على حالة النفاق ومن أعلن كفره بعد إعلان إسلامه حملة يصور فيها طبيعة المنافقين ويرسم لهم فيها صورا زرية من واقع ما يقومون به في الصف المسلم ; ومن واقع مواقفهم المتلونة حسب الظروف وهم يلقون المسلمين إذا انتصروا بالملق والنفاق ويلقون الذين كفروا إذا انتصروا كذلك بدعواهم أنهم سبب انتصارهم وهم يقومون للصلاة كسالى يراءون الناس وهم مذذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وترد في ثنايا هذه الحملة توجيهات للمؤمنين وتحذيرات تدل على مدى ما كان لأفاعيل المنافقين في الصف المسلم حينذاك من آثار وعلى مدى ضخامة الجبهة المنافقة وتغلغلها في حياة الجماعة المسلمة ; مما استدعى هذه الحملة مع مراعاة الواقع يومئذ وأخذ المسلمين خطوة خطوة في الابتعاد عن المنافقين واجتنابهم من ذلك امرهم باجتنب مجالس المنافقين التي يتداولون فيها الكفر بايات الله والإستهزاء بها ولم يأمرهم حينذاك بمقاطعة المنافقين البتة مما يدل على أن جبهة النفاق كانت ضخمة ومتغلغلة بصورة يصعب فيها على المسلمين مقاطعتهم كذلك ترد في ثناياها تحذيرات للمسلمين من سمات النفاق ومقدماته ; كي لا يقعوا فيها وأخصها موالة الكافرين وابتغاء العزة عندهم والقوة بهم وتأمينهم بأن العزة لله جميعا وبأن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا وذلك مع رسم الصور البشعة للمنافقين في الدنيا وفي الآخرة وتقرير أن مكانهم في الدرك الأسفل من النار وهذه التوجيهات والتحذيرات بهذا الأسلوب تشي بطريقة المنهج في علاج النفوس والأوضاع ; وتغيير الواقع في حدود الطاقة والملابسات

القائمة كذلك حتى ينتهي إلى تغييره نهائيا ; وإقامة واقع آخر جديد كما تشي بحالة الجماعة المسلمة حينذاك وموقفها من جبهة الكفر وجبهة النفاق المتعاونتين في حرب الجماعة المسلمة والدين الجديد ومن خلال هذه وتلك تتبين طبيعة المعركة التي كان القرآن يخوض بها الجماعة المسلمة وطبيعة الأساليب المنهجية في قيادته للمعركة وللنفوس وهي المعركة الدائمة المتصلة بين الإسلام والجاهلية في كل زمان وكل مكان وبين الجماعة المسلمة وأعدائها الذين تتغير أشخاصهم ووسائلهم ولكن لا تتغير طبيعتهم ومبادئهم ومن خلال هذا كله تبرز حقيقة هذا الكتاب القرآن ودوره في قيادة الأمة المسلمة ليس بالأمس فقط فما جاء ليقود جيلا دون جيل إنما جاء ليقود هذه الأمة وليكون مرشدها وهاديها في جميع الاجيال والدهور وفي نهاية الدرس تجيء تلك اللفتة العجيبة إلى استغناء الله سبحانه عن تعذيب العباد فهو لا يطلب منهم إلا أن يؤمنوا ويشكروا وهو سبحانه غني عن إيمانهم وشكرهم ولكن ذلك إنما هو لصالح حالهم وارتقاء مستواهم ; حتى يتأهلوا لحياة الآخرة ومستوى النعيم في الجنة فإذا هم ارتكسوا وانتكسوا فإنما يؤهلون أنفسهم لمستوى العذاب في الجحيم حيث يسقط المنافقون إلى أحط الدرجات في الدرك الأسفل من النار

الدرس الأول الأمر بالعدل في الحكم والقضاء

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ; فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا إنه نداء للذين آمنوا نداء لهم بصفاتهم الجديدة وهي صفاتهم الفريدة صفتهم التي بها أنشئوا نشأة أخرى ; وولدوا ميلاد آخر وولدت أرواحهم وولدت تصوراتهم وولدت مبادئهم وأهدافهم وولدت معهم المهمة الجديدة التي تناط بهم والأمانة العظيمة التي وكلت إليهم أمانة القوامة على البشرية والحكم بين الناس بالعدل ومن ثم كان للنداء بهذه الصفة قيمته وكان له معناه يا أيها الذين آمنوا فبسبب من اتصافهم بهذه الصفة كان التكليف بهذه الأمانة الكبرى وبسبب من اتصافهم بهذه الصفة كان التهيؤ والاستعداد للنهوض بهذه الأمانة الكبرى وهي لمسة من لمسات المنهج التربوي الحكيم ; تسبق التكليف الشاق الثقيل كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما إنها أمانة القيام بالقسط بالقسط على إطلاقه في كل حال وفي كل مجال القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض والذي يكفل العدل بين الناس والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين ففي هذا الحق يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين كما رأينا في قصة اليهودي ويتساوى الأقارب والأباعد ويتساوى الأصدقاء والأعداء ويتساوى الأغنياء والفقراء كونوا قوامين بالقسط شهداء لله حسبة لله وتعاملا مباشرا معه لا لحساب أحد من المشهود لهم أو عليهم ولا لمصلحة فرد أو جماعة أو أمة ولا تعاملا مع الملابس المحيطة بأي عنصر من عناصر القضية ولكن شهادة لله وتعاملا مع الله وتجردا من كل ميل ومن كل هوى ومن كل

مصلحة ومن كل اعتبار ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين وهنا يحاول المنهج تجنيد النفس في وجه ذاتها وفي وجه عواطفها تجاه ذاتها أولا وتجاه الوالدين والأقربين ثانيا وهي محاولة شاقة أشق كثيرا من نطقها باللسان ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل إن مزاولتها عمليا شيء آخر غير إدراكها عقليا ولا يعرف هذا الذي نقوله إلا من يحاول أن يزاول هذه التجربة واقعا ولكن المنهج يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة لأنها لا بد أن توجد لا بد أن توجد في الأرض هذه القاعدة ولا بد أن يقيمها ناس من البشر ثم هو يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية ; حين يكون المشهود له أو عليه فقيرا تشفق النفس من شهادة الحق ضده وتود أن تشهد له معاونة لضعفه أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية وحين يكون المشهود له أو عليه غنيا ; تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده وهي مشاعر فطرية أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع والمنهج يجند النفس تجاهها كذلك كما جندها تجاه حب الذات وحب الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما وهي محاولة شاقة ولا نفتأ نكرر أنها محاولة شاقة وأن الإسلام حين دفع نفوس المؤمنين في عالم الواقع إلى هذه الذروة التي تشهد بها تجارب الواقع التي وعاءها التاريخ كان ينشئ معجزة حقيقية في عالم البشرية معجزة لا تقع إلا في ظل هذا المنهج الإلهي العظيم القويم فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا والهوى صنوف شتى ذكر منها بعضها حب الذات هوى وحب الأهل والأقربين هوى والعطف على الفقير في موطن الشهادة والحكم هوى ومجاملة الغني هوى ومضارته هوى والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن في موضع الشهادة والحكم هوى وكرهه الأعداء ولو كانوا أعداء الدين في موطن الشهادة والحكم هوى وأهواء شتى الصنوف والألوان كلها مما ينهي الله الذين آمنوا عن التأثر بها والعدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها وأخيرا يجيء التهديد والإنذار والوعيد من تحريف الشهادة والإعراض عن هذا التوجيه فيها وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ويكفي أن يتذكر المؤمن أن الله خبير بما يعمل ليستشعر ماذا وراء هذا من تهديد خطير يرتجف له كيانه فقد كان الله يخاطب بهذا القرآن المؤمنين حدث أن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لما بعثه رسول الله ص يقدر على أهل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة حسب عهد رسول الله ص بعد فتح خيبر أن حاول اليهود رشوته ليرفق بهم فقال لهم والله لقد جئتمكم من عند أحب الخلق إلي ولأنتم والله أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم فقالوا بهذا قامت السماوات والأرض لقد كان رضي الله عنه قد تخرج في مدرسة الرسول ص على المنهج الرباني المنفرد وكان إنسانا من البشر خاض هذه التجربة الشاقة ونجح ; وحقق كما حقق الكثيرون غيره في ظل ذلك المنهج تلك المعجزة التي لا تقع إلا في ظل ذلك المنهج ولقد مضت القرون تلو القرون بعد تلك الفترة العجبية ; وحفلت المكتبات بكتب الفقه والقانون ; وحفلت الحياة بالتنظيمات والتشكيلات القضائية ; وضبط الإجراءات والشكليات التنظيمية وامتلت الرؤوس بالكلام عن العدالة ; وامتلت الأفواه بالحديث عن إجراءاتها

الطوبلة ووجدت نظريات وهيئات وتشكيلات متنوعة لضبط هذا كله ولكن التذوق الحقيقي لمعنى العدالة ; والتحقق الواقعي لهذا المعنى في ضمائر الناس وفي حياتهم ; والوصول إلى هذه الذروة السامية الوضيئة لم يقع إلا في ذلك المنهج في تلك الفترة العجبية في ذروة القمة وبعدها على مدار التاريخ في الأرض التي قام فيها الإسلام وفي القلوب التي عمرت بهذه العقيدة وفي الجماعات والأفراد التي تخرجت على هذا المنهج الفريد وهذه حقيقة ينبغي أن يتنبه إليها الذين يؤخذون بالتشكيلات القضائية التي جرت ; وبالإجراءات القضائية التي استحدثت ; وبالأنظمة والأوضاع القضائية التي نمت وتعدت فيحسبون أن هذا كله أقمن بتحقيق العدالة وأضمن مما كان في تلك الإجراءات البسيطة في تلك الفترة الفريدة في تلك القرون البعيدة وأن الأمور اليوم أضبط وأحكم مما كانت على صورتها البسيطة هذا وهم تنشئه الأشكال والأحجام في تصورات من لا يدركون حقائق الأشياء والأوضاع إن المنهج الرباني وحده هو الذي يبلغ بالناس ما بلغ على بساطة الأشكال وبساطة الأوضاع وهو وحده الذي يمكن أن يبلغ بالناس هذا المستوى على ما استحدثت من الأشكال والأوضاع وليس معنى هذا أن نلغي التنظيمات القضائية الجديدة ولكن معناه أن نعرف أن القيمة ليست للتنظيمات ولكن للروح التي وراءها أيا كان شكلها وحجمها وزمانها ومكانها والفضل للأفضل بغض النظر عن الزمان والمكان

الدرس الثاني أركان الإيمان وعدم الفصل بينها

يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضللاً بعيداً إنه النداء الثاني للذين آمنوا بصفاتهم هذه التي تفردهم من الجاهلية حولهم وتحدد وظيفتهم وتكاليفهم وتصلهم بالمصدر الذي يستمدون منه القوة والعون على هذه التكاليف يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل فهو بيان لعناصر الإيمان التي يجب أن يؤمن بها الذين آمنوا بيان للتصور الإسلامي الاعتقادي فهو إيمان بالله ورسوله يصل قلوب المؤمنين بربهم الذي خلقهم وأرسل إليهم من يهديهم إليه وهو الرسول ص وإيمان برسالة الرسول وتصديقه في كل ما ينقله لهم عن ربهم الذي أرسله وهو إيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله يربطهم بالمنهج الذي اختاره الله لحياتهم وبينه لهم في هذا الكتاب ; والأخذ بكل ما فيه بما أن مصدره واحد وطريقه واحد ; وليس بعضه بأحق من بعضه بالتلقي والقبول والطاعة والتنفيذ وهو إيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل بما أن مصدر الكتب كلها واحد هو الله ; وأساسها كذلك واحد هو إسلام الوجه لله ; وإفراد الله سبحانه بالألوهية بكل خصائصها والإقرار بأن منهج الله وحده هو الذي تجب طاعته وتنفيذه في الحياة وهذه الوحدة هي المقتضى الطبيعي البديهي لكون هذه الكتب قبل تحريفها صادرة كلها عن الله ومنهج الله واحد وإرادته بالبشر واحدة وسيله واحد تتفرق السبل من حولها وهي مستقيمة إليه واصلة والإيمان بالكتاب كله بوصف أن الكتب كلها كتاب

واحد في الحقيقة هو السمة التي تنفرد بها هذه الأمة المسلمة لأن تصورها لربها الواحد ومنهجه الواحد وطريقه الواحد هو التصور الذي يستقيم مع حقيقة الألوهية ويستقيم مع وحدة البشرية ويستقيم مع وحدة الحق الذي لا يتعدد والذي ليس وراءه إلا الضلال فماذا بعد الحق إلا الضلال وبعد الأمر بالإيمان يجيء التهديد على الكفر بعناصر الإيمان مع التفصيل فيها في موضع البيان قبل العقاب ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضللاً بعيداً وقد ذكر في الأمر الأول الإيمان بالله وكتبه ورسله ولم يذكر الملائكة وكتب الله تتضمن ذكر الملائكة وذكر اليوم الآخر ومن مقتضى الإيمان بهذه الكتب الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر ولكنه يبرزها هنا لأنه موطن الوعيد والتهديد الذي يبين فيه كل عنصر على التحديد والتعبير بالضلال البعيد غالباً يحمل معنى الإبعاد في الضلال الذي لا يرجى معه هدى ; ولا يرتقب بعده مآب والذي يكفر بالله الذي تؤمن به الفطرة في أعماقها كحركة ذاتية منها واتجاه طبيعي فيها ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر استمدادا من كفره بالحقيقة الأولى الذي يكفر هذا الكفر تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب الحد الذي لا يرجى معه هدى ; ولا يرتقب بعده مآب

الدرس الثالث ذم المنافقين لتلاعهم في الإيمان

وبعد هذين النداءين للذين آمنوا يأخذ السياق في الحملة على النفاق والمنافقين ويبدأ بوصف حالة من حالاتهم الواقعة حينذاك تمثل موقف بعضهم وهو أقرب المواقف إلى الحديث عن الكفر والكفار إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً إن الكفر الذي يسبق الإيمان يغفره الإيمان ويمحوه فالذي لم يشهد النور معذور إذا هو أدلج في الظلام فأما الكفر بعد الإيمان مرة ومرة فهو الكبيرة التي لا مغفرة لها ولا معذرة إن الكفر حجاب فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق واتصل الشارد بالركب واتصلت النبتة بالنوع وذقت الروح تلك الحلاوة التي لا تنسى حلاوة الإيمان فالذين يرتدون بعد الإيمان مرة ومرة إنما يفترون على الفطرة عن معرفة ويلجون في الغواية عن عمد ويذهبون مختارين إلى التيه الشارد والضلال البعيد فعدل ألا يغفر الله لهم ; وعدل ألا يهديهم سبيلاً ; لأنهم هم الذين أضاعوا السبيل بعد ما عرفوه وسلكوه وهم الذين اختاروا السيئة والعمى بعد ما هدوا إلى المثابة والنور وإذا لم تتجرد النفس لله لم تتحرر أبداً من ضغط القيم والأوضاع والضرورات والمصالح والحرص والشح ولم ترتفع أبداً على المصالح والمغانم والمطامح والمطامح ولم تستشعر أبداً تلك الطلاقة والكرامة والاستعلاء التي يحسها القلب المملوء بالله أمام القيم والأوضاع وأمام الأشخاص والأحداث وأمام القوى الأرضية والسلطان وأصحاب السلطان ومن هنا تبذر بذرة النفاق وما النفاق في حقيقته إلا الضعف عن الإصرار على الحق في مواجهة الباطل وهذا الضعف هو ثمرة الخوف والطمع وتعليقهما بغير الله ; وثمره التقيد بملايسات الأرض ومواضعات الناس في عزلة عن منهج الله للحياة فهناك مناسبة في

السياق بين الحديث عن الإيمان بالله والتجرد في القيام بالشهادة له وبين الحديث عن النفاق إلى جانب المناسبة العامة التي يكونها موضوع السورة الأصيل وهو تربية الجماعة المسلمة بمنهج الإسلام ; ومعالجة الرواسب الباقية من الجاهلية ; وتعبئة النفوس كذلك ضد الضعف البشري الفطري ثم خوض المعركة بهذه الجماعة مع المشركين من حواليتها ومع المنافقين فيها والسياق متصل في هذا الهدف العام من مبدأ السورة إلى منتهاها وهكذا يستغرق الحديث عن النفاق والمنافقين بقية هذا الدرس وهو ختام هذا الجزء بعد تلك الصورة التي رسمتها الآية السابقة لطائفة من المنافقين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا ومن هنا تبدأ الحملة التي سبقت الإشارة إليها على النفاق والمنافقين بشتى أساليبها الجديرة بالدراسة والتأمل لمعرفة طبيعة المنهج وهو يزاول العمل على الطبيعة ; وفي واقع الحياة والقلوب بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا

الدرس الرابع تعذيب المنافقين لمولاتهم الكافرين

تبدأ الحملة بهذا التهلكم الواضح في استعمال كلمة بشر مكان كلمة أنذر وفي جعل العذاب الأليم الذي ينتظر المنافقين بشارة ثم بيان سبب هذا العذاب الأليم وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين ; وسوء ظنهم بالله ; وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعًا والكافرون المذكورون هنا هم على الأرجح اليهود ; الذين كان المنافقون يأوون إليهم ; ويتخنسون عندهم ويبيتون معهم للجماعة المسلمة شتى المكائد والله جل جلاله يسأل في استنكار لم يتخذون الكافرين أولياء وهم يزعمون الإيمان لم يضعون أنفسهم هذا الموضع ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف أهم يطلبون العزة والقوة عند الكافرين لقد استأثر الله عز وجل بالعزة ; فلا يجدها إلا من يتولاه ; ويطلبها عنده ; ويرتكب إلى حماه وهكذا تكشف اللمسة الأولى عن طبيعة المنافقين وصفتهم الأولى وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى ; وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون وتقرر أن العزة لله وحده ; فهي تطلب عنده وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين إلا إنه لسند واحد للنفس البشرية

تجد عنده العزة فإن ارتكنت إليه استعلت على من دونه وألا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها العبودية لله فإن لا تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى ; وأشخاص شتى ; واعتبارات شتى ومخاوف شتى ولم يعصمها شيء من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل اعتبار وإنه إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال ولمن شاء أن يختار وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله وما أوحى ناسا ممن يدعون الإسلام ; ويتسمون بأسماء المسلمين وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض أن يتدبروا هذا القرآن إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين وإلا فإن الله غني عن العالمين ومما يلحق بطلب العزة عند الكفار وولايتهم من دون المؤمنين الاعتزاز بالأباء والأجداد الذين ماتوا على الكفر ; واعتبار أن بينهم وبين الجيل المسلم نسبا وقرابة كما يعتز ناس بالفراعنة والآشوريين والفينيقيين والبابليين وعرب الجاهلية اعتزازا جاهليا وحمية جاهلية روى الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا أبو بكر بن عباس عن حميد الكندي عن عبادة ابن نسي عن إبي ربحانة أن النبي ص قال من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزا وفخرا فهو عاشرهم في النار ذلك أن أصرة التجمع في الإسلام هي العقيدة وأن الأمة في الإسلام هي المؤمنون بالله منذ فجر التاريخ في كل أرض وفي كل جيل وليست الأمة مجموعة الأجيال من القدم ولا المتجمعين في حيز من الأرض في جيل من الأجيال

الدرس الخامس ذم المنافقين لمجالستهم الكافرين ونهي المسلمين عن ذلك

وأولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسا يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستتهزأ بها فيسكت ويتغاضى يسمى ذلك تسامحا أو يسميه دهاء أو يسميه سعة صدر وأفق وإيمانا بحرية الرأي وهي هي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله ; وهو يموه على نفسه في أول الطريق حياء منه أن تأخذه نفسه متلبسا بالضعف والهوان إن الحمية لله ولدين الله ولايات الله هي آية الإيمان وما تفتت هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد ; وينزاح بعدها كل حاجز وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمدا ثم تهمد ثم تخمد ثم تموت فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس فإما أن يدفع وإما أن يقاطع المجلس وأهله فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق وقد كان بعض المسلمين في المدينة يجلسون في مجالس كبار المنافقين ذوي النفوذ وكان ما يزال لهم ذلك النفوذ وجاء المنهج القرآني ينه في النفوس تلك الحقيقة حقيقة أن غشيان هذه المجالس والسكوت على ما يجري فيها هو أولى مراحل الهزيمة وأراد أن يجنبهم إياها ولكن الملابسات في ذلك الحين لم تكن تسمح بأن يأمرهم أمرا بمقاطعة مجالس القوم إطلاقا فبدأ يأمرهم بمقاطعتها حين يسمعون آيات الله يكفر بها ويستتهزأ بها وإلا فهو النفاق وهو المصير المفزع مصير

المنافقين والكافرين وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستنهزاً بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً والذي تحيل إليه الآية هنا مما سبق تنزله في الكتاب هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره والتهديد الذي يرتجف له كيان المؤمن إنكم إذا مثلهم والوعيد الذي لا تبقى بعده بقية من تردد إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ولكن قصر النهي على المجالس التي يكفر فيها بآيات الله ويستنهزاً بها وعدم شموله لكل علاقات المسلمين بهؤلاء المنافقين يشي كما أسلفنا بطبيعة الفترة التي كانت تجتازها الجماعة المسلمة إذ ذاك والتي يمكن أن تتكرر في أجيال أخرى وبيئات أخرى كما تنشي بطبيعة المنهج في أخذ الأمر رويدا رويدا ; ومراعاة الرواسب والمشاعر والملابسات والوقائع في عالم الواقع مع الخطو المطرد الثابت نحو تبديل هذا الواقع

الدرس السادس سمات المنافقين ووعد الله بالنصر

ثم يأخذ في بيان سمات المنافقين فيرسم لهم صورة زرية منفرة ; وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفار بوجه ; ويمسكون العصا من وسطها ويتلوون كالديدان والثعابين الذين يترصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وهي صورة منفرة تبدأ بتقرير ما يكنه المنافقون للجماعة المسلمة من الشر وما يترصون بها من الدوائر وهم مع ذلك يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله ونعمة فيقولون حينئذ ألم نكن معكم ويعنون أنهم كانوا معهم في الموقعة فقد كانوا يخرجون أحيانا يخذلون ويخلخلون الصفوف أو يعنون أنهم كانوا معهم يقلوبهم وأنهم ناصرهم وحموا ظهورهم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين يعنون أنهم أزروهم وناصرهم وحموا ظهورهم ; وخذلوا عنهم واخلخلوا الصفوف وهكذا يتلوون كالديدان والثعابين في قلوبهم السم وعلى ألسنتهم الدهان ولكنهم بعد ضعاف ; صورتهم زرية شائنة تعافها نفوس المؤمنين وهذه إحدى لمسات المنهج لنفوس المؤمنين ولما كانت الخطة التي اتبعها الرسول ص بتوجيه ربه في مسألة المنافقين هي الإغضاء والإعراض وتحذير المؤمنين وتبصيرهم بأمرهم ; في الطريق إلى تصفية هذا المعسكر اللعين فإنه يكلهم هنا إلى حكم الله في الآخرة ; حيث يكشف الستار عنهم وينالهم جزاء ما يكيدون للمسلمين فالله يحكم بينكم يوم القيامة حيث لا مجال للكيد والتامر والتبويت ; ولا مجال لإخفاء مكنونات الصدور ويطمئن الذين آمنوا بوعد من الله قاطع ; أن هذا الكيد الخفي الماكر وهذا التآمر مع الكافرين لن يغير ميزان الأمور ; ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وفي تفسير هذه الآية وردت رواية أن

المقصود بهذا النص يوم القيامة حيث يحكم الله بين المؤمنين والمنافقين فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل كما وردت رواية أخرى بأن المقصود هو الأمر في الدنيا بأن لا يسلط الله الكافرين على المسلمين تسليط استئصال وإن غلب المسلمون في بعض المعارك وفي بعض الأحيان وإطلاق النص في الدنيا والآخرة أقرب لأنه ليس فيه تحديد والأمر بالنسبة للآخرة لا يحتاج إلى بيان أو توكيد أما بالنسبة للدنيا فإن الظواهر أحيانا قد توحي بغير هذا ولكنها ظواهر خادعة تحتاج إلى تمعن وتدقيق إنه وعد من الله قاطع وحكم من الله جامع أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين ; وتمثلت في واقع حياتهم منهجا للحياة ونظاما للحكم وتجردا لله في كل خاطرة وحركة وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها وأنا أقرر في ثقة بوعده الله لا يخالفها شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ولم تلحق بهم في تاريخهم كله إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان إما في الشعور وإما في العمل ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ; ثم يعود النصر للمؤمنين حين يوجدون ففي أحد مثلا كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ص وفي الطمع في الغنيمة وفي حين كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ولو ذهبنا نتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا نعرفه أو لا نعرفه أما وعد الله فهو حق في كل حين نعم إن المحنة قد تكون للابتلاء ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضياته من الأعمال كما وقع في أحد وقصه الله على المسلمين فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين على أنني إنما أعني بالهزيمة معنى أشمل من نتيجة معركة من المعارك إنما أعني بالهزيمة هزيمة الروح وكلال العزيمة فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس همودا وكلالا وقنوطا فأما إذا بعثت الهمة وأذكت الشعلة وبصرت بالمزالق وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد ولو طال الطريق كذلك حين يقرر النص القرآني أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا وإنما يشير إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر ; والفكرة المؤمنة هي التي تسود وإنما يدعو الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصورا وشعورا ; وفي حياتها واقعا وعملا وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها فالنصر ليس للعنوانات إنما هو للحقيقة التي وراءها وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء ; وألا نطلب العزة إلا من الله ووعده الله هذا الأكيد يتفق تماما مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى التي لاتضعف ولا تفنى وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون جميعا غير أنه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان إن حقيقة الإيمان قوة

حقيقة ثابتة ثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً

الدرس السابع تذبذب المنافقين وخداعهم وتكاسلهم

ثم يمضي السياق بعد هذا الوعد القاطع المطمئن للمؤمنين المخذل للمنافقين الذين يتولون الكافرين ينتغون عندهم العزة يمضي فيرسم صورة زرية أخرى للمنافقين مصحوبة بالتهوين من شأنهم وبوعيد الله لهم إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً وهذه لمسة أخرى من لمسات المنهج للقلوب المؤمنة فإن هذه القلوب لا بد أن تشمئز من قوم يخادعون الله فإن هذه القلوب تعرف أن الله سبحانه لا يخدع وهو يعلم السر وأخفى وهي تدرك أن الذي يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه محتوية على قدر من السوء ومن الجهل ومن الغفلة كبير ومن ثم تشمئز وتحتقر وتستصغر كذلك هؤلاء المخادعين ويقرر عقب هذه اللمسة أنهم يخادعون الله وهو خادعهم أي مستدرجهم وتاركهم في غيهم ; لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ; ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا وذلك هو خداع الله سبحانه لهم فالقوارع والمحن كثيراً ما تكون رحمة من الله حين تصيب العباد فتردهم سريعاً عن الخطأ ; أو تعلمهم ما لم يكونوا يعلمون وكثيراً ما تكون العافية والنعمة استدراجاً من الله للمذنبين الغاوين ; لأنهم بلغوا من الإثم والغواية ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولا نذير ; حتى ينتهوا إلى شر مصير ثم يستمر السياق يرسم لهم صوراً زرية شائنة لا تثير في قلوب المؤمنين إلا الاشمئزاز والاحتقار وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً فهم لا يقومون إلى الصلاة بحرارة الشوق إلى لقاء الله والوقوف بين يديه والاتصال به والاستمداد منه إنما هم يقومون يراءون الناس ومن ثم يقومون كسالى كالذي يؤدي عملاً ثقيلًا ; أو يسخر سخرة شاقة وكذلك هم لا يذكرون الله إلا قليلاً فهم لا يتذكرون الله إنما يتذكرون الناس وهم لا يتوجهون إلى الله إنما هم يراءون الناس وهي صورة كريمة ولا شك في حس المؤمنين تثير في نفوسهم الاحتقار والاشمئزاز ومن شأن هذا الشعور أن يباعد بينهم وبين المنافقين ; وأن يوهن العلائق الشخصية والمصلحية وهي مراحل في المنهج التربوي الحكيم ; للبت بين

المؤمنين والمنافقين ويستمر السياق في رسم الصور الزرية المنفرة مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا وموقف الذبذبة والأرجحة والاهتزاز وعدم الاستقرار والثبات في أحد الصفين الصف المؤمن أو الصف الكافر موقف لا يثير إلا الاحتقار والاشمئزاز كذلك في نفوس المؤمنين كما أنه يوحى بضعف المنافقين الذاتي هذا الضعف الذي يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم هنا أو هناك ولا على المصارحة برأي وعقيدة وموقف مع هؤلاء أو هؤلاء ويعقب على هذه الصور الزرية وهذه المواقف المهزوزة بأنهم قد حقت عليهم كلمة الله ; واستحقوا ألا يعينهم في الهداية ; ومن ثم فلن يستطيع أحد أن يهديهم سبيلا ولا أن يجد لهم طريقا مستقيما ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا

الدرس الثامن نهى المسلمين عن موالة الكفار وخلود المنافقين في النار

وإلى هنا يكون السياق قد بلغ من إثارة الاشمئزاز والاحتقار والاستضعاف للمنافقين في نفوس المؤمنين مبلغا عظيما فإلتفت بالخطاب للمؤمنين محذرا إياهم أن يسلكوا طريق هؤلاء المنافقين وطريق المنافقين كما سبق هو اتخاذهم الكفار أولياء من دون المؤمنين ويحذرهم بطش الله ونقمته كما يصور لهم مصير المنافقين في الآخرة وهو مصير مفرع رعب مهين كذلك دليل يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيماً إنها العودة إلى نداء الذين آمنوا بالصفة التي تفرقهم وتميزهم ممن حولهم والتي بها يتميز منهجهم وسلوكهم وواقعهم والتي بها يستجيبون للنداء كذلك ويطيعون التوجيهات نداء لهم بهذه الصفة أن يحذروا سلوك طريق المنافقين ويحذروا أن يتولوا الكفار من دون المؤمنين وهو نداء لا بد كانت هناك حاجة إليه في المجتمع المسلم يومذاك حيث كانت الصلات ما تزال قائمة في المجتمع بين بعض المسلمين واليهود في المدينة ; وبين بعض المسلمين وقرابتهم في قريش ولو من الناحية النفسية ونقول بعض المسلمين لأن هناك البعض الآخر ; الذي فصم كل علاقاته بالمجتمع الجاهلي حتى مع الآباء والأبناء وجعل العقيدة وحدها هي أصرة التجمع ووشيجة الرجم ; كما علمهم الله وذلك البعض هو الذي كانت الحاجة قائمة لتنبهه إلى أن هذا هو طريق النفاق والمنافقين بعد تصوير النفاق والمنافقين تلك الصور الزرية المنفرة البغيضة وتحذيره من التعرض لغضب الله وبتطشه ونقمته أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ولا يفرق قلب المؤمن ويرتجف أكثر من فرقة وارتجافة من التعرض لبطش الله ونقمته ومن ثم جاء التعبير في صورة الاستفهام ومجرد التلويح بالاستفهام يكفي في خطاب قلوب المؤمنين وطريقة أخرى عالية على هذه القلوب غير موجهة إليها مباشرة ولكن عن طريق التلويح طريقة تقرر المصير الرعب المفرع المهين للمنافقين إن المنافقين في الدرك الأسفل

من النار ولن تجد لهم نصيرًا في الدرك الأسفل إنه مصير يتفق مع ثقله الأرض التي تلصقهم بالتراب فلا ينطلقون ولا يرتفعون ثقله المطامع والرغائب والحرص والحذر والضعف والخور الثقله التي تهبط بهم إلى موالة الكافرين ومداراة المؤمنين والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين في الدرك الأسفل من النار بلا أعوان هنالك ولا أنصار وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا فأنى ينصرهم الكفار ثم يفتح لهم بعد هذا المشهد المفزع باب النجاة باب التوبة لمن أراد النجاة إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيماً وفي مواضع أخرى كان يكتفي بأن يقول إلا الذين تابوا وأصلحوا فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله وإخلاص الدين لله ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله وإخلاص الدين لله لأنه يواجه نفوسا تذبذبت وناققت وتولت غير الله فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح على التجرد لله والإعتصام به وحده ; وإخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة وتلك الأخلاق المخلخلة ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد بذلك تخف تلك الثقله التي تهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض وتهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين ; المعتزين بعزة الله وحده المستعلين بالإيمان المنطلقين من ثقله الأرض بقوة الإيمان وجزاء المؤمنين ومن معهم معروف وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيماً وبهذه اللمسات المتنوعة يكشف حقيقة المنافقين في المجتمع المسلم ويقلل من شأنهم ; وبنبه المؤمنين إلى مزالق النفاق ويحذرهم مصيره ويفتح باب التوبة للمنافقين ; ليحاول من فيه منهم خير أن يخلص نفسه وينضم إلى الصف المسلم في صدق وفي حرارة وفي إخلاص

الدرس التاسع ترغيب في التوبة والشكر

وأخيرا تجيء تلك اللمسة العجيبة الموحية المؤثرة العميقة أخيرا بعد ذكر العقاب المفزع والأجر العظيم لتشعر قلوب البشر أن الله في غنى عن عذاب العباد فما به سبحانه من نعمة ذاتية عليهم يصب عليهم من أجلها العذاب وما به سبحانه من حاجة لظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق وما به سبحانه من رغبة ذاتية في عذاب الناس كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر لله مع تحبيهم في الإيمان والشكر لله وهو الذي يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وأمنتم وكان الله شاكرا عليما نعم ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وأمنتم إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران ; وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان إنها ليست شهوة التعذيب ولا رغبة التنكيل ; ولا التذاذ الآلام ولا إظهار البطش والسلطان تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان ; فهناك الغفران والرضوان وهناك شكر الله سبحانه لعبده وعلمه سبحانه بعبده وشكر الله

سبحانه للعبد يلمس القلب لمسة رفيقة عميقة إنه معلوم أن الشكر من
الله سبحانه معناه الرضى ومعناه ما يلزم الرضى من الثواب ولكن التعبير
بأن الله سبحانه شاكر تعبير عميق الإيحاء وإذا كان الخالق المنشئ
المنعم المتفضل الغني عن العالمين يشكر لعباده صلاحهم وإيمانهم
وشكرهم وامتنانهم وهو غني عنهم وعن إيمانهم وعن شكرهم وامتنانهم إذا
كان الخالق المنشئ المنعم المتفضل الغني عن العالمين يشكر فماذا
ينبغي للعباد المخلوقين المحدثين ; المغمورين بنعمة الله تجاه الخالق
الرازق المنعم المتفضل الكريم ألا إنها اللمسة الرفيعة العميقة التي ينتفض
لها القلب ويخجل ويستجيب ألا إنها الإشارة المنيرة إلى معالم الطريق
الطريق إلى الله الواهب المنعم الشاكر العليم وبعد فهذا جزء واحد من
ثلاثين جزءاً من هذا القرآن يضم جناحية على مثل هذا الحشد العجيب من
عمليات البناء والترميم ; والتنظيف والتقويم وينشئ في عالم النفس
وفي واقع المجتمع وفي نظام الحياة ذلك البناء الضخم المنسق العريض
ويعلن مولد الإنسان الجديد ; الذي لا تعرف له البشرية من قبل ولا من بعد
مثيلاً ولا شبيهاً في مثاليته وواقعيته وفي نظافته وتطهره مع مزاولته نشاطه
الإنساني في شتى الميادين هذا الإنسان الذي التقطه المنهج الرياني من
سفح الجاهلية ودرج به في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة في يسر
وفي رفق وفي لين لين انتهى الجزء الخامس ويليهِ الجزء السادس مبدؤاً
بقوله تعالى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول